سهيل قاشا

النوارس المهاجرة

هجرة مسيحيي العراق

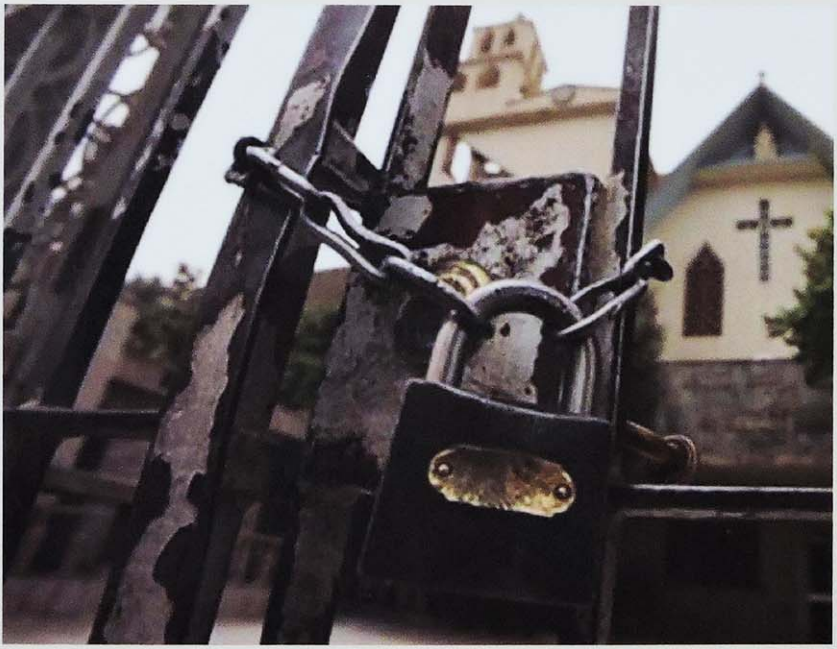

www.daralrafidain.com

OPUS PUBLISHERS

دراسات
STUDIES

النوارس المهاجرة

هجرة مسيحيي العراق

سهيل قاشا

OPUS PUBLISHERS

النوارس المهاجرة

هجرة مسيحيي العراق

THE MIGRATORY GULLS

By: Suhil Qasha

المؤلف

سهيل قاشا

الطبعة الأولى، لبنان/ كندا، 2016

First Edition, Lebanon/Canada, 2016

جميع حقوق النشر محفوظة، ولا يحق لأي شخص أو مؤسسة أو جهة، إعادة إصدار هذا الكتاب، أو جزء منه، أونقله، بأي شكل أو واسطة من وسائط نقل المعلومات، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك النسخ أو التسجيل أو التخزين والاسترجاع، دون إذن خطي من أصحاب الحقوق

All rights reserved. is not entitled to any person or institution or entity reissue of this book, or part thereof, or transmitted in any form or mode of modes of transmission of information, whether electronic or mechanical, including photocopying, recording, or storage and retrieval, without written permission from the rights holders

OPUS PUBLISHERS

56 Laurel Cres. London, Ontario, Canada
Tel: +1 2266783972
N6J1 4W7
opuspublishers@hotmail.com

لبنان - بيروت / الحمرا
تلفون: 751055 1 961+ / 541980 1 961+
daralrafidain@yahoo.com
www.daralrafidain.com

هام: إن جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبّر عن رأي كاتبها، ولا تعبّر بالضرورة عن رأي الناشر.

ISBN: 978-1-988150-11-6

الإهداء

إلى كل العراقيين الذين هاجروا

إلى عالم الاغتراب

إلى المهجر البعيد

نوارس بيضاء

نوارس سلام

نوارس محبة

د. س. ق

تقديم
بيني وبين الأب قاشا
النـوارس المهاجـرة

بقلم حبيب إفرام(*)
التاريخ: ٨/١/٢٠١٠

بيني وبين الأب سهيل قاشا ما هو أعمق من أسرار مقدسة تتلى على مذبح حياة أو تقرأ بين دفتي كتاب.

ليس عن عصبية في أننا معاً ننتمي إلى ما نظن ونؤمن أنه بقايا شعب مشرقي مسيحي خانه التاريخ مجازر واضطهاداً وتهجيراً وظلمته الجغرافيا تفتتاً وهجرة.

ولا عن تعصب لحضارة ساهمت في نهضة شرق فكراً ولاهوتاً وترجمة وجسر انفتاح، بلْ عن عشق لدور ورسالة، لتجذر أبناء أصيلين ولحقوقهم.

وعن هوى بالكلمة، لأنها في البدء كانت، وهي تحيي وتميت.

الكلمة التي لبس ثوبها، كأنها كهنوت.

وعن ثورة. نعم ثورة شفافة تحمل سوط السيِّد تحاول طرد الفريسيين من الهيكل.

(*) حبيب إفرام رئيس الرابطة السريانية، أمين عام اتحاد الرابطات اللبنانية المسيحية.

هو قضيته مسيحٌ. آمن حتى الرجاء. مع غصّة على واقع كنائس قسمتها السياسات وتكاد تفرغها المظاهر عن سمو رمزيتها.

وأنا قضية شعب مسيحي مشرقي. صار نوارس مهاجرة كما وصفه.

كان يمكن أن يكون عنوان كتابه النوارس المهجَّرة أو الأخيرة أو أي وصف يوحي بأن المسيحيين المشرقيين مهددون حتى في وجودهم وبقائهم، في ظل صمت جبان يصل إلى حد التواطؤ الفاضح من كل من يدَّعي حضارة وحقوق إنسان وحوار حضارات شرقاً وغرباً، ملوكاً ورؤساء وأحزاباً وقادة فكر.

بيني وبين الأب سهيل أننا أبناء الإيمان العميق الشفاف الصادق بأن أرضنا هي قدسنا، ضيعنا كلها من طور عابدين إلى نينوى إلى القامشلي وبيروت. بأن هنا قبلتنا ومجدنا لا في أي عاصمة غربية.

ومن أحلى ما بيننا أنه هو صار بكتابه التسعين «اللهم زدْ بارك» وأنا ما زلت على مشارف الرابع، وما يعزيني أني أكتب له هذه المقدمة.

تمهيد

المسيحيون العراقيون مواطنون أصيلون، متجذرون في بلدهم كتجذر دجلة ـ والفرات. وأن العراق، بلاد ما بين النهرين، هو وطنهم الأول والأخير، وأرضهم ـ جنة عدن ـ جنتهم منذ القدم، إنهم أبناء الحضارات الأولى، منذ فجر السلالات، والعالم يشهد: أور وبابل ونينوى، أرضهم مقدسة، من بداية تاريخ البشر، فإبراهيم الخليل أبو الآباء والأنبياء سليل مجتمعهم المتطور بشهادة التوراة. بلغتهم كتب الكتاب المقدس، وبامتداده تمتد جذورهم إلى تبشير الرسول توما الذي مرّ بأرضهم وهو في طريقة إلى الهند. فالمسيحية نمت في العراق منذ نهاية القرن الأول وبداية الثاني. وكنائسهم عراقية محضة "بين نهرينيه) بطقوسها وتركيبها وروحانيتها، أديرتهم كانت مزروعةفي طول البلاد وعرضها، في مناطق بغداد والكوفة والموصل وتوابعها.

وعندما راح العرب منذ العام ٦٣٤ ميلادية، ينشرون الإسلام وصلوا إلى بلاد ما بين النهرين، فاستكان المسيحيون للحكم العربي وتمتعوا في ظل الخلافة الإسلامية بسقف من الحرية وفّر لهم الإسهام في بناء الحضارة العربية الإسلامية التي عدّوها جزءاً من تراثهم، لاسيما أيام الخلافة العباسية، ويكفي أن تذكر على سبيل المثال: أبناء آل بختيشوع الأطباء، وحُنين بن إسحاق، ويوحنا بن

حيلان، والمتكلمين المناطقة يحيى بن عدي وابورائطة التكريتيين وعلماء بيت الحكمة المترجمين والنقلة، فشكل المسيحيون حلقة وصل وتفاعل مابين الشرق والغرب، إذ قاموا بنقل الثقافة والفكر العالمي إلى العربية، وعبرهم تعرّف الغرب إلى اللغة والتراث العربيين.

وفي القرون الوسطى، رغم المآسي التي عاشها المسيحيون خاصة إبان هجمة المغول على بغداد عام ١٢٥٨، ما لبث أن عادت كنيستهم إلى وضعها الطبيعي في السنين والعقود اللاحقة، وعرفت انتشاراً غير مسبوق حيث قدّر عدد التابعين للكنيسة المشرقية النسطورية في ذلك الحين بنحو ثمانين مليون نسمة، موزعين في مائتين وخمسين أبرشية وثلاثين رئاسة اسقفية من مصر إلى اليابان مروراً ببلاد النهرين وفارس والهند وسيلان وتركستان وأفغانستان والصين وجنوب آسيا وأندونيسيا.

وهكذا نستطيع القول في الكنيسة السريانية الأرثوذكسية. التي جعلت مركزها ورئاستها، في تكريت الذي كانت تتمثل بسلطة «المفريان» الذي كان يدير ثلاث عشرة أبرشية تشمل العراق وإيران وأفغانستان والهند وغيرها من البلاد وكان يقدّر اتباعها بأكثر من خمسين مليون نسمة، بأديرتهم الشهيرة وكنائسهم الشاهدة إلى هذا اليوم.

وفي فترة الحكم الوطني، شارك المسيحون في مجالات عديدة من الحياة العامة. واستلموا مراكز في الدولة الفتية، كما ساهموا مساهمة مميزة في النهضة الفكرية الثقافية والعلمية، فكان منهم السياسيون والعسكريون، المترجمون وحملة المعرفة من الأطباء والمهندسين والمحامين، أصحاب المطابع، الحرفيون والصحفيون، الفنانون والموسيقيون، بحيث أن إسهامهم المتنوّع في تلك الحقبة الزمنية أغنى تراث العراق كله بالحيوية الإنسانية. والعلمية الخالصة.

أما حالتهم اليوم (فترة نظام صدام والبعث) فرغم أن الأمن كان مستتباً، إذ كانت الدولة تسيطر على كل شيء بقوة جهاز الأمن والمخابرات، فقد عانى

العراقيون رغم ذلك خلال الحقبة المذكورة، ولأسباب عديدة أهمها الحروب المدمّرة مع إيران ثم الكويت فضلًا عن اثني عشر عاماً من الحصار مما أدى إلى إفقار العراق الثري وإضعافه، ومع انهيار النظام، على أثر غزو قوات التحالف، تغيّر الوضع في مجالات معينة نحو الأحسن، وفي أخرى نحو الأسوأ.

الجديد الذي مارسه العراق بأبنائه كان عودة الحرية التي كانت مفقودة، حرية التعبير، وحرية التصويت في الانتخابات، ثم ولادة مجالس المدن، برلمان وطني ودستور جديد. كما برزت إيجابيات تمثلت بتفعيل وجود المرأة ومشاركتها في العملية السياسية (نسبتهنّ ٢٥٪) وظهور العديد من الأحزاب السياسية من بينها ثمانية أحزاب مسيحية، بصحافة واسعة من المجلات والجرائد المتنوعة.

ومن معالم الانفتاح والحرية، أن توفرت وسائل لم تكن موجودة سابقاً مما فتح العالم فجأة أمام العراقيين: الانترنت، الصحون اللاقطة، الهاتف النّقال، السفر والتنقل. أما النتيجة السيئة والتي تكاد توازي وتنسي كل الإيجابيات فهي أن الأرض أصبحت ميداناً للفوضى والإرهاب، فلا أمن، ولا استقرار. نتيجة لذلك خفّت الوظائف، ونمت الهجرة في ظل المخاوف على المستقبل.

منذ العام ٢٠٠٦، أخذ المتطرفون، وبينهم عناصر من غير العراقيين يسيطرون على العديد من الأماكن ويدعون إلى الجهاد لفرض أحكام الشريعة الإسلامية والعيش في دولة تيوقراطية. كما يتلقون الدعم من بعض الراديكاليين، مما جعل حالة الحرية الدينية تزداد سواءً، فاستهدف العديد من الأفراد من مختلف الجماعات بسبب هويتهم الدينية أو العلمانية، وبينهم المسيحيون، فكثر بينهم الخطف والقتل والسلب والتهديد والتهجير، فوقعت الكثير من الاعتداءات على المسيحيين خصوصاً في بعض المدن مثل بغداد والموصل والبصرة. تفجير الكنائس وخطف الكهنة وقتلهم وتهجير متعمّد للمسيحيين مما جعلهم يفقدون

الثقة بالمستقبل، فأخذوا ينزحون أفراداً وجماعات إلى الداخل والخارج بحثاً عن مأوى آمن. حيث يقدر عدد المسيحيين الذين تركوا العراق إلى الخارج بما بين ٢٥ و٣٠٪ في السنوات الثلاث الماضية فقط، ففي سوريا من يقول بوجود ٨٠.٠٠٠ و١٠٠.٠٠٠ مسيحي، وفي الأردن قد يكون ٢٠.٠٠٠ أو ٣٠.٠٠٠، كما نزح منهم بأعداد متفاوتة إلى كل من لبنان، مصر، اليونان، تركيا عدا الدول الأوروبية سيما السويد والولايات المتحدة وكندا..

أما في الداخل فلقد توجهت أكثرية المسيحيين إلى شمال العراق. حيث يقدّر عدد الأسر النازحة، في قرى سهل نينوى ٦١١٠ عائلة، ورغم مساعي وزيرالمالية: المسيحي في حكومة إقليم كردستان السيد سركيس آغاجان، لإعادة بناء العديد من القرى في تلك المناطق، تكمن المشكلة الرئيسية في غياب الخدمات كالمستوصفات والمدارس، إضافة إلى الإيجارات المرتفعة، مما يضطر عدد كبير من الطلاب إلى عدم مواصلة، دراستهم. وهناك صعوبات كبيرة لهؤلاء النازحين المسيحيين في كردستان في إيجاد وظائف، وبالتالي ينتاب هذه الأسر مزيج من مشاعر الخوف والأمل. من جهة يريدون المحافظة على الأمل في مستقبل أفضل ولكن يبدو أن الصعوبات كبيرة في ظل غياب الضمانات، فيطول الانتظار، من دون أي مؤشر حلحلة جدية لوضعهم..

وهنا نتساءل، ما هي المقترحات من أجل بقاء المسيحيين في العراق.

إن المسيحيين في العراق، هم مصدر تنوع ثقافي وحضاري، واستمرار وجودهم في هذه المنطقة يشكل حاجة للشرق والغرب. فهم الحلقة التي تربط الحضارتين وبالتالي من أكثر المؤهلين للقيام بدور الوسيط في الحوار المنشود بين الأديان، كنائسهم هي جذور المسيحية، وتحمل غنى روحياً وليتورجيا وتاريخ خبرة وانفتاح. وهم مواطنون مخلصون لأوطانهم أينما حلوا، يعبرون عن انتمائهم بصدق وبسلوك يومي. لذلك يقتضي المحافظة عليهم في أرضهم، العراق. وفيما يلي بعض الأفكار التي قد تساهم في ذلك.

١ ـ تضامن حقيقي بالأفعال من قبل الكنائس الغربية (في أوروبا وأمريكا) لمساعدة المسيحيين على البقاء في العراق. فيمكن أن تقدم الجمعيات الخيرية للكنيسة الغربية والمحلية العون للمسيحيين من خلال فتح مؤسسات ثقافية واجتماعية ورعوية. نذكر على سبيل المثال: فتح مدارس، ومعاهد صناعية، مدارس تمريض.. كما يمكن إطلاق خطة لتطوير القرى التي لجأ إليها النازحون عبر مشاريع تنموية صغيرة، زراعية، وصناعية، إضافة إلى تحسين الخدمات المقدمة، في هذه المناطق.

٢ ـ قيام الكنيسة المحلية في العراق بلملمة ذاتها بعد المآسي التي حلت بها، وإجراء دراسة لأوضاع أبنائها خصوصاً لناحية الهجرة، وذلك بهدف معالجة واحتواء الوضع الناشئ عن النزف البشري إلى الداخل والخارج، حي يتم ذلك عبر رعاية والديه من قبل الكنيسة، رعاية بأبعادها الروحية والإنسانية ومتطلباتها الاقتصادية فيقتضي ذلك تبني عمل رعوي مناسب، بشكل سريع ومرّكز، للم شمل الناس المظلومين والمتعبين، ورفع معنوياتهم والدفاع عنهم، وتشجيعهم على البقاء في وطنهم.

٣ ـ ضرورة وضع تصور واضح من قبل الكنيسة المحلية في العراق لكل المأساة الناتجة عن النزوح، وذلك للحؤول دون إطلاق مبادرات مرتجلة غير منتقة سواء من داخل الكنيسة، أو خارجها أو ظهور توجهات مستقلة. لبعض المجموعات المسيحية نتيجة لظروف خاصة. وبالتالي من المهم جداً للكنيسة توحيد صف المسيحيين عبر وحدة الصوت والخطاب.

٤ ـ من ضمن الهموم التي سوف تواجهها الكنيسة محاولة الكثيرين استغلال غيابها عن الساحة. والفراغ القسري الذي تخلفه النتائج عن أوضاع أمنية وظروف قاهرة حيث يجب احتواء هذا الفراغ من خلال تطوير مؤسسات

الكنيسة، وتثبيتها وتنظيمها بعمق روحاني، إنساني ووطني، ونظرة واضحة شاملة، وموضوعية، تؤمن بقاء الكنيسة. وبقاء المؤمنين في أرض الأجداد على المدى البعيد.

وختاماً، هناك ضرورة لاستمرار توعية المسيحين على دورهم ورسالتهم ومسؤولياتهم في المجتمع العراقي المتعدد. وعلى المسيحيين تفعيل هذا الدور تماماً كما فعل أجدادهم في الخلافة الأموية والعباسية وفي الحكم الوطني. من منطلق إيمانهم المسيحي وأخلاقيتهم. فعلى الكنيسة إذن التأكيد المتواصل على مبدأ المواطنة، خصوصاً أن العلاقة مع المسلمين علاقة تاريخية وعلاقة يومية في المدرسة والعمل والجيرة، علاقة مبنية على الإيمان بإله واحدو ديّان الناس في اليوم الأخير. وهذه العلاقة مبنية على الانتماء إلى البشرية الواحدة، والعيش المشترك والمصير الواحد ونؤكد من جانبنا أن لدى المسيحيين رغبة صادقة في العيش في فضاء متناغم مع أخوتهم المسلمين. لا بد أن يصمد المسيحيون في العراق، حيث عليهم البقاء والتشبث بالأرض مهما كانت المحن. وفي اعتقادنا أن نعمل العمل المزدوج من قبل الكنيسة داخل العراق ومن الكنيسة العالمية، هو الكفيل باستمرار المسيحيين في هذا الشرق العزيز رغم العواصف والمآسي.

دير يسوع الملك
يوم الثلاثاء
2009 /12/ 15

الفصل الأول

ظهور المسيحية في العراق

إن الأخبار التي وصلتنا عن مسيحيي بلادنا الأولين ضئيلة جداً إذ لم يدوّن المؤرخون في حينه إلا نُبذاً وأحداث قصيرة صغيرة لا تفي بالغرض لمعرفة كيف الظهور وكيف الانتشار؟؟

في القرون الوسطى ظهرت بعض المدوّنات ـ على ضآلتها ـ تذكر لنا أن مار أدّي أحد تلاميذ السيد المسيح الإثنين والسبعين (لوقا ١٠) وتلميذه ماري بشرا في نصيبين والجزيرة والموصل وأرض بابل والسواد وبلاد العرب وأرض المشرق[١] في المئة الأولى للميلاد، وأوردوا على قولهم النصوص الصريحة[٢].

---

(١) المجدل. ص ١ ـ ٢، أخبار فطاركه ـ كرسي المشرق، ص١ ـ ٥.

(٢) راجع التاريخ الكنسي ٢: ١١ ـ ١٤ والنصرانية وآدابها ١: ٧٤ ـ ٧٥، وتاريخ كلدو وآثور ٢: ١ ـ ١٤ والدرر النفيسة، ص ٧٦ ـ ١٩٦ وذخيرة الأذهان ١: ٣٢ ـ ٣٩ و٢: ٢٤١ ـ ٢٥٠ ومجلة المشرق ١: ١٠٠ و٢٥٧ ـ ٢٦١ و٣: ٨١٧ ـ ٨١٩ ومجلة ـ النجم ٦: ٢٤٢ و١٠: ١٠ ـ ١٣ و٦٥ ـ ٦٦ و٧١، وسير الشهداء والقديسين ١: ٤٥ ـ ٩٤ و٢: ٥١٢ والمكتبة الشرقية ٤: ٥ ـ ٣٠.

قال جائليق[٣] المدائن[٤] طيمثاوس الأول (+ ٨٢٣م) ما معناه: «كانت الديانة المسيحية منتشرة لدينا بعد صعود ربنا إلى السماء بنحو من عشرين عاماً»[٥].

وكتب المسعودي في كتابه التنبيه والإشراف: «والعباد[٦] تذكر أول البطاركة[٧] السريان الذين نزلوا كرسي المشرق على قديم الأيام بعد صعود المسيح إلى السماء بنحو ثلاثين سنة بعد توما الرسول أحد الإثني عشر أدّي السليح[٨] قبل حدوث الخلاف بين المسيحيين وهو أدّي بر[٩] ماري (كذا) من السبعين وهو عمّذ أهل المدائن ودير قنى[١٠] وكشكر[١١]، وغيرها من أرض

---

(٣) الجائليق: كلمة ـ يونانية معربة تعني العام، وهنا تعني الأب العام.

(٤) جاء في معجم البلدان للحموي عن المدائن (٤: ٤٤٦): «إن هذا الموضع كان مسكن الملوك من الأكاسرة الساسانية وغيرهم. فكان كل واحد منهم إذا ملك بنى لنفسه مدينة إلى جنب التي قبلها وسماها باسم فأولها المدينة العتيقة التي لزاب ثم مدينة الاسكندر ثم طيسفون من مدائنها. ثم أسفانير ثم مدينة يقال لها رومية فسميت المدائن بذلك والله أعلم. وإنما سمتها العرب لأنها سبع مدائن بين كل مدينة إلى الأخرى مسافة قريبة أو بعيدة».

(٥) مجلة النجم ١٠: ١١.

(٦) العباد أو العبادیون مسيحيون من عدة بطون وقبائل نزلوا الحيرة قبل الإسلام فاستوطنوها. أما سبب تسميتهم بالعباد فعللها أبو الفرج في «الأغاني ١١: ١٥٦» قائلاً: «ثم أغار عليهم سابور الأكبر فقاتلوه فكان شعارهم يومئذ: آل عباد الله فسموا «العباد» راجع عن العباديين (معجم البلدان ٢: ٣٧٩) وكتاب التنبيه والإشراف ص١٤٥ ـ ١٤٨، ومعجم ما استعجم ص١٨. وتاريخ مختصر الدول ص٢٥٠ ومروج الذهب ٢: ٣٢٨ والنصرانية وآدابها إ: ١٣٣ ١٣٤ و١٥٤ و٢: ٤٤٥ و٤٥٧ و«الحيرة» ص١٦ و«العرب قبل الإسلام ص٢٠٠.

(٧) البطاركة مفردها البطريرك كلمة يونانية الأصل معناها رئيس الآباء.

(٨) السليح كلمة مأخوذة من (شليحا) الآرامية بمعنى الرسول.

(٩) بر، كلمة أرامية معناها: الابن.

(١٠) قال الحموي ٢: ٦٨٧: «دير قنى بضم أوله وتشديد ثانيه مقصور يقع على ستة عشرفرسخاً من بغداد منحدراً بين النعمانية وهو في الجانب الشرقي معدود من أعمال النهر وآن بينه وبين دجلة ميل..».

(١١) تاريخ كلدو وآثور ج٢ ص١٤ ـ ١٨ وتخبرة الأذهان ج١ ص ٥١ ـ ٥٢، وشهداء المشرق ج١ ص ٤٢ ـ ٦٨ والمكتبة الشرقية ج٣ ص ٤٠ ـ ٧٣ وكتاب الحيرة، ص٣.

السواد. وبنى بيعتين إحداهما بالمدائن وجعلها كرسيا لمن يأتي بعده من البطاركة، تسمى باسم (كوخي) ورسم ألا تتم البطركة لمن ينصب لها إلا في هذه البيعة، وأخرى بدير قنى وقبره بها[١٢].

انتشرت المسيحية في العراق، في مطاوي المئة الأولى والثانية من حياتها فاعتنقها جموع غفيرة من السكان المبثوثين في أصقاعه[١٣]. وقد لاقت من أعدائها ما يلاقي كل دين جديد، لدى انتشاره، ولاسيما في تلك القرون المتسكعة في ظلمات الجهل والتعصب، راقبها المجوس فوقفوا حائلًا دون تقدمها، وضيّق كهانهم الخناق على رؤسائها فحرضوا ملوكهم على اضطهادها فأشعل الملك الفرثي كسرى سنة ٨٩ م نار أول اضطهاد عليهم. ثم نكّل بهم تنكيلًا مريعاً، بل أباد منهم خلقاً كثيراً، بيد أنهم نالوا الراحة في أواخر حكمه فاستطاعوا أن يقوموا بأمور دينهم وفروض عقائدهم بكل حرية[١٤].

هذا وكان ملوك الروم يطمحون إلى العراق، يرمون الاستيلاء عليه، فبلغت جحافلهم نهر دجلة واجتاحت مدنه، وكانوا أثناء زحفهم يثيرون الاضطهادات على المسيحيين، كما كانوا يثيرون مثلها على المسيحيين في مملكتهم، فالامبراطور ترايانوس بعدما فتح المدائن عنوة سنة ١١٥م أضرم عليهم لهيب الاضطهاد وأذاقهم أنواع الهوان فأهلك منهم جمعاً غفيراً[١٥].

بنى المسيحيون في مطاوي القرون الثلاثة الأولى للميلاد كنائس عديدة[١٦]

---

(١٢) تاريخ كلدو وآثور ج٢ ص٥.

(١٣) كرخ سلوخ، الاسم القديم لمدينة كركوك.

(١٤) فرات ميشان أو برات ميشان أو ميشان أو ميسان أو دستيمسان من الأسماء القديمة لمدينة البصرة (كتاب الديورة ص١ و٣ وكتاب أخبار فطاركة كرسي المشرق ص٤.

(١٥) تاريخ كلدو وآثور ج٢ ص١١ وذخيرة الأذهان ج١ ص ٤١ و٥٦، ومقدمة كتاب شهداء المشرق ص٥، والحيرة ص٥٥ وتاريخ نصارى العراق ص ٣١ ـ ٣٢.

تاريخ كلدو و«ثور ج٢، ص١٤ ـ ١٨ وذخيرة الأذهان ج١، ص٥١ ـ ٥٢، وشهداء المشرق ج١، ص٤٢ ـ ٦٨ والمكتبة الشرقية، ج٣، ص٤٠ ـ ٧٣، وكتاب «الحيرة» ص٣.

في حدياب وأربيل وكرخ سلوخ[١٧] وفرات ميشان[١٨] وغيرها، كما بنوا في جوارها مدارس عديدة لتعليم الصلوات الفرضية[١٩].

هذا وتفقه المسيحون في هذه الآونة في أساليب لغتهم الأرامية الإنشائية وكانت لغة سكان ما بين النهرين وأقطار الشام وتغلغلت في بلاد فارس، ثم امتدت إلى وادي النيل وآسيا الصغرى وشمال جزيرة العرب حتى حدود الحجاز وبقيت أجيالاً طوالاً اللغة الرسمية والتجارية للأمم الحية، في القرون الأولى قبل الميلاد في بابل وأشور وفارس ومصر وفلسطين[٢٠].

ومن أشهر العلماء المسيحيين العراقيين الذين ظهروا في تلك الفترة ططيانس الحديابي المتوفي سنة ١٨٠م الذي وضع المؤلفات العديدة باليونانية لم يصلنا منها سوى خطابه الذي وجهه إلى اليونان وبيّن فيه فضائل المسيحية، أي صلاح المسيحيين وصدقهم وحشمة المسيحيات وعفافهن، وندد بالوثنية، تنديداً شديداً، بيد أنه ادعى بإلهين إله مطلق وإله خالق، وأنكر جسد المسيح، وفي نحو سنة ١٧٣م وضع بالأرامية كتابه المشهور الذي سماه «دياطسرون» بلفظ يوناني فركب معناه «من خلال الأربعة» وقد جمع فيه الأناجيل الأربعة في مجلد واحد يتضمن خمسة وخمسين فصلاً سبكها سبكاً متقناً محكماً، وكان لسهولته وجودة أسلوبه وترتيبه التاريخي يقرأ في إقليم الفرات وفي كنائس الرها حتى أبطل استعماله أسقفها مار رابولا (المتوفي سنة ٤٣٥) حرصاً على سلامة الإنجيل بنصوصه الأربعة[٢١].

---

(١٦) تاريخ كلدو وآثور ج٢، ص٥.

(١٧) كرخ سلوخ الاسم القديم لمدينة كركوك.

(١٨) تاريخ كلدو وآثور ج٢، ص١١، وذخيرة الأذهان ج١، ص٤١ و٥٦. ومقدمة شهداء المشرق ص٥، والحيرة ص٥٥، وتاريخ نصارى العراق ص٣١ ـ ٣٢.

(١٩) اللؤلؤ المنثور ص١٦ واللمعة الشهية ص١٩٢ ـ ١٩٣ و«العرب قبل الإسلام ص٨٠، وتاريخ اللغات السامية، ص١٢٥ و١٤٤ ـ ١٤٩، والعصور القديمة ص١٠٠ ـ ١٠٩ و١٢٤ ـ ١٢٥ و١٤٠ وتاريخ كلدو وآثور ج١، ص١٦٠ ـ ١٦٢، وتاريخ نصارى العراق ص٤٢.

(٢٠) ذخيرة الأذهان ج١، ص١٩٥ ـ ٢٠٠ و٢٤٥ ـ ٢٤٩، تاريخ كلدو وآثور، ج٢، ص١٩ والدرر النفيسة، ص٢٤٤ ـ ٢٤٧ واللؤلؤ المنثور، ص٥٢١ ـ ٥٢٢.

المسيحيون في العهد الساساني

سقطت الدولة الفرثية عام ٢٢٦م واستلم الحكم الملك أردشير بن بابك الساساني للفترة (٢٢٦ ـ ٢٤١م) واتسعت رقعة حكمه أيام خلفائه فشملت أقطار إيران والبختيارية والولايات الصغرى قي أواسط آسيا إلى حدود الصين والهند، كما بسطت سلطانها على العراق والجزيرة.

تواصلت بين الساسانيين والرومان حروب طاحنة واستمرت معها الاضطهادات فأمر دافيوس الملك الروماني سنة ٢٥٠م ولاته بتقتيل المسيحيين، فأبادوا منهم جماعات جماعات، وأمر الملك ديوقليتيانوس فراقبهم وأراق دمهم عام ٣٠٢ بالمئات[٢٢].

بينما ملوك الفرس في هذه الآونة لم يتعرضوا للمسيحيين فعاشوا معهم في وفاق ووئام دائبين مواظبين على أعمالهم الدينية والدنيوية، إلا أنهم أضرموا مثلهم نيران الاضطهاد عليهم عندما وافتهم الأنباء بتنصر الملك قسطنطين الروماني سنة ٣١٢، ظانين أنهم متحزبون لمسيحيي الغرب ميالون إلى قياصرتهم[٢٣].

الاضطهاد الأربعيني:

إن أول الملوك الساسانيين الذين اضطهدوا مسيحي العراق هو سابور الثاني الملقب بذي الأكتاف (٣٠٩ ـ ٣٧٩م)، وقد اثار أربعة اضطهادات كبيرة[٢٤] قاسوا في خلالها أنواع الظلم والقتل والقساوة، وكان الاضطهاد الرابع الأخير أطولها وأقساها وقد دام زهاء أربعين سنة، فدعاه المؤرخون الاضطهاد الأربعيني (٣٣٩ ـ ٣٧٩م) لقد جار سابور على المسيحيين ووضع السيف فيهم

(٢١) ذخيرة الأذهان ج١، ص٥٩ ـ ٦٠، وشهداء المشرق ج١، ص٧٤ ـ ١٨٢.
(٢٢) تاريخ كلدو وآثور، ج٢، ص٢٨ ـ ٦٠.
(٢٣) ذخيرة الأذهان، ج١، ص٧٦.

فمزق شملهم واستأصل شأفة معاهدهم الدينية والعلمية. وأباد منهم عدداً كبيراً وقال المؤرخ ماري بن سليمان: «وقتل سابور من المؤمنين بالدير الأحمر وباجرمي[٢٥] وغيرها نحو مئة وستين ألف رجل وفي بلدان الفرات نحو ثلاثين ألف رجل»[٢٦]. وقال المسعودي: «إن سابور ملك فارس قتل منهم نحواً من مئتي ألف»[٢٧].

بعد الاضطهاد ازدهار:

مات الملك سابور الثاني فحسنت أحوال المسيحيين، ولاسيما في أيام سابور الثالث (٣٨٣ ـ ٣٨٨م) وبهرام الرابع (٣٨٨ ـ ٣٩٩م) وفي مطلع القرن الخامس عمّ السلام واستتب النظام بين المسيحيين على أثر الصلح الثري الذي تمّ بين الروم وبين الملك يزدجرد الأول (٣٩٩ ـ ٤٢٠م) بمساعي مار ماروثا أسقف ميافرقين[٢٨] (المتوفي في أوائل القرن الخامس) ومار إسحاق جاثليق المدائن (٤١٠م) فاستأنف المسيحيون أعمالهم وأعادوا انتخاب رؤسائهم. وأسسوا مجامعهم ورفعوا دعائم كنائسهم ووسعوا غرف مدارسهم وجددوا بناء أديارهم[٢٩].

ازداد عدد المسيحيين في العراق إذ ذاك وبلغت فتوحاتهم أوج مجدها[٣٠] وانضوى تحت لوائها جمهور من المجوس ذوي المناصب العالية

---

(٢٤) باجرفي: البقعة الواقعة بين دجلة والزاب الصغير وجبال حمرين ونهر ديالي.

(٢٥) أخبار فطاركه ـ كرسي المشرق ص١٣، والجدل ص١٨.

(٢٦) كتاب التنبيه والإشراف، ص١٤٩.

(٢٧) ميافرقين أشهر مدن ديار بكر وسميت مدينة الشهداء، لما حوته من ذخائر القديسين الذين استشهدوا في حكم سابور الثاني (٣٠٩ ـ ٣٧٩) كان قد نقلها ماروثا إليها.

(٢٨) أخبار فطاركة كرسي المشرق ص٢٩ ـ ٣١ والمجدل ص٢٢ ـ ٢٤ والتاريخ الكنسي ٢: ٤٧ ـ ٤٨ وتاريخ كلدو وآثور ج٢، ص٢٤ و٩٥ و٩٨ ـ ١٠٢ وتاريخ نصارى العراق ص٤٧.

(٢٩) ذخيرة الأذهان ج١، ص٧٢ وتاريخ كلدو وآثور ج٢، ص٣.

في الدولة[٣١] ثم عجت خزائن الكنائس والأديار بالمصنفات واكتظت حلقات مدارسهم بالطلاب، هذا فضلاً على الهمم التي بذلها الرهبان والأساقفة في تثقيف الشعب العلمي والأدبي فدربوا رعيتهم على الفضائل العالية، والأخلاق الكريمة، والأعمال الصالحة، وشرحوا لهم أسرار الديانة، وأصولها وآدابها وشرائعها وكتبها المقدسة غير أن يزدجرد في أواخر أيامه سنة ٤٢٠م أمر باضطهاد المسيحيين. واقتفى أثره ابنه بهرام الخامس جور (٤٢٠ ـ ٤٢٨م) ويزدجرد الثاني (٤٣٨ ـ ٤٢٧) ولم تخمد نيران هذه الاضطهاد إلا بعد وفاة الملك هرمزد الثالث فيروز (٤٥٧ ـ ٤٨٤م).

ثارت على المسيحيين في العراق الاضطهادات الهائلة وحلّت بهم الضربات الأليمة، ورغماً عن ذلك فلم تستطع أن تزعزع إيمانهم ولا أن تتغلب على اعتقاداتهم بل زادتهم نشاطاً وقوّة[٣٢] فكان رؤساؤهم يقيمون المجامع ليتباحثوا في سياسة الكنيسة. وينظموا حياة أبنائهم الاجتماعية ـ والعلمية ـ ويوّحدوا أعيادهم وصومهم مع صلواتهم الطقسية[٣٣] وأقرّ مجمع سلوقية الثاني المنعقد عام ٤١٠م أن مجتمع الأساقفة والمطارين في كل سنتين مرة واحدة لدى الجاثليق في سلوقية لإصلاح أمور البيعة، والطائفة، وأن تكون الصلوات الطقسية، موحدة نظير صلوات بيعة المدائن، وأن يكون لكل كرسي أسقف واحد لا غير، وأن تعيّد جميع الكنائس معاً عيد الميلاد والدنح[٣٤] والقيامة[٣٥].

---

(٣٠) تاريخ كلدو وآثور ج٢، ص١٠٧ ـ ١١١.

(٣١) ذخيرة الأذهان ج١، ص١٠٠ ـ ١١٠.

(٣٢) نسبة إلى الطقس: كلمة ـ آرامية معناها: ترتيب، أو نظام، وقد أطلقت على مجموع صلوات وتضرعات منسقة ومنظمة لأيام السنة كافة.

(٣٣) يقع عيد الدنح بعد رأس السنة بسبعة أيام وهو عيد الغطاس والكلمة مشتقة من الفعل السرياني (دنح) بمعنى، اشرق، أو لاح، أو ظهر.

(٣٤) تاريخ كلدو وآثور ج٢، ص١٠٢ ـ ١٠٣ وذخيرة الأذهان ج١، ص١٠٦ و١٠٩ ـ ١١٠ والمكتبة الشرقة ج٣، ص١، ٣٦٣ و٣٧٠ ـ ٣٧٦. السنهادوسات (المجامع الشرقية) ص١٧ ـ ٢٢ وتاريخ نصارى العراق ص٣٨.

وازدهرت بهذه الفترة العلوم فبرز جمهور من المسيحيين العراقيين وخدموا الآداب على اختلاف أنواعها منهم: شحولفا أسقف أربيل (+ ٢٥٣م) وكان من أنحاء بيت أرماني[٣٦] فنشأ وتهذّب في كشكر حيث تقاطر إليها الطلاب من كل فجّ وصوب فخرجوا منها ونشروا العلم والحكمة في الآفاق[٣٧]. ولم يصلنا من مؤلفاته شيء يذكر[٣٨].

وعاش في أواخر القرن الثالث وأوائل القرن الرابع عبد يشوع أسقف كشكر، وكان من أكابر أئمة، العلم، جادل المبتدع ماني[٣٩] ودحض تعاليمه، ولم يبلغنا من مصنفاته سوى هذه المجادلات التي نقلت منذ المئة الرابعة من الأرامية إلى اليونانية واللاتينية[٤٠].

ومن العراقيين الذين عرفوا بالآداب الدينية جاثليق المدائن بربعشمين[٤١] كان من باجرمي، تمهّر في العلوم اللاهوتية، نال إكليل الشهداء بأمر الملك سابور الثاني عام ٣٤٧م.

وفي أواخر القرن الرابع أيام بهرام الرابع (٣٨٨ ـ ٣٩٩) التمس الراهب العراقي عبداً (وهو عبد يشوع القناني)[٤٢] من جاثليق المدائن تومرصا[٤٣]

---

(٣٥) بيت أرماني: سميت مع أرض البصرة بعد الفتوحات الإسلامية العراق العربي.
تاريخ نصارى العراق ص٣٧.

(٣٦) تاريخ كلدو وآثور ج٢، ص١٢.

(٣٧) كان مولد ماني سنة ٢٤٠م في شوشن. إدّعى الروح القدس وانقطع إلى الاشتغال بالعلوم الفلسفية والتبحّر في الآداب الدينية، وادعى بإلهين إله الخير وإله الشر، وقد شاعت تعاليمه في الشرق.

(٣٨) تاريخ كلدو وآثور ج٢، ص٤٣ وذخيرة الأذهان ج١، ص٦١، وشهداء المشرق ج١، ص٨٠ ـ ٩٠، والدرر النفيسة، ص٤١٧.

(٣٩) بربعشمين، كلمة آرامية مركبة معناها ذو الأسماء الأربعة،

(٤٠) القناني، نسبة إلى دير قنى.

(٤١) كان تومرصا من بلاد كسكر ويسميه ابن العبري تموزا، واشتهر بميله إلى بناء الكنائس والأديرة (راجع أثر قديم في العراق ص٧٨).

(٣٨٣ ـ ٣٩٩م) أن يشيد الأديرة في بلاد العرب[٤٤] فلبى طلبه، فبنى باسم مار ماري ديراً كبيراً في دير قنى،[٤٥] مسقط رأسه، والحق به مدرسة وجامعة عظم شأنها حتى أصبح فيها ستون مدرّساً[٤٦] وخرج منها أساقفة وجثالقة وعلماء عديدون أشهرهم الجاثليق مار آحى (المتوفى سنة ٤١٥م) والجاثليق مار يابالاها (المتوفى سنة ٤٢٠م). الذي كان من مشاهير زمانه متفقهاً في العلوم، فتى تقلّد رئاسة دير مار ماري وصار جاثليقاً بأمر الملك يزدجرد وقد أرسله إلى القسطنطينية لمقابلة ملكها تيودوسيوس الثاني (٤٠٨ ـ ٤٥٠م) لتوثيق روابط الصلح بين الدولتين، ومن أعماله أنه جدد بناء بيعة المدائن الكبرى، وبنى ديراً في دسكرة[٤٧] وديراً آخر على ضفة نهر دجلة فقصده رهبان كثيرون من عدة أنحاء، حتى بلغوا أكثر من أربعمائة راهب، وكانوا يتكلمون لغات مختلفة، فنظمهم أربعاً وعشرين فرقة يتعاقبون في تلاوة الصلوات ليلًا ونهاراً، فيتلون الأناشيد الدينية بلغاتهم الأرامية واليونانية والقبطية[٤٨].

وهكذا راحت المسيحية تنتعش وتنتشر في هذه الفترة بالعراق سيما قبل ظهور الإسلام وانتشاره إثر الفتوحات الكبرى. فتنفس المسيحيون الصعداء، وشمروا عن ساعد الجدّ، وأخذوا يزاولون أعمالهم اليومية، يكتنفهم الأمن ويخدمهم النجاح، فعاد الفلاح المسيحي إلى حقله والعامل إلى صناعته، والتاجر إلى تجارته، ثم شادوا كنائس وأديرة، وفتحوا مدارس منظمة واسعة

---

(٤٢) النصرانية وآدابها ج١، ص٧٩.

(٤٣) قد استولى عليه الخراب في أوائل القرن الرابع عشر وتسمى بقاياه باسم «الدير» انظر عنه في مجلة المشرق ١٩٨/٣٧ ومجلة الاعتدال ٤، النجف (١٩٣٧، ص١٥٩) وطه الهاشمي، مفصل جغرافية العراق، بغداد ١٩٣٠ ص٥٢٩ ومجلة النجم ٥٢/١٠.

(٤٤) تاريخ كلدو وآثور ٢: ٣٠ وذخيرة الأذهان ص٩٥ ـ ٩٦ و١٠٧.

(٤٥) دسكرة: قرية كبيرة بنواحي نهر الملك كمدينة صغيرة على ضفة نهر الملك والمراصد ج١، ص٤٥٢.

(٤٦) راجع، النصرانية وآدابها ج١، ص٧٩ ـ ٨٠ وتاريخ كلدو وآثور ج٢، ص١٠٤ ـ ١٠٥ وأخبار فطاركة كرسي المشرق ص٣٢ والتاريخ الكنسي ج٢، ص٥٣ وذخيرة الأذهان ج١، ص٩٦.

الأرجاء رحبة الردة. قام بأعباء رئاستها مدرّسون أفاضل وخرج منها علماء أماثل خدموا البلاد وأذاعوا العلم في أنحائها.

استمرت مملكة ـ الساسانيين أكثر من أربعة قرون (٢٢٦ ـ ٦٥١) وقد عاش المسيحيون في مطاويها تارة بين حرب وظلم وشقاء، وتارة بين سلم وعدل وهناء، وأجمع المؤرخون ولاسيما الشرقيون، على أن هذه الفترة كانت ميداناً فسيح الجوانب تبارى فيه أعظم أدباء النصرانية، فوسعوا نطاق المعارف وتنافسوا في التصنيف، ثم أقاموا مدارس طارت شهرتها في المعمورة وتصدّر للتدريس فيها نخبة من علية الأساتذة. ولا عجب في ذلك فقد كان في العراق أكثر من خمسين مدرسة مسيحية تدرّس الفلسفة والعلوم والرياضيات والفلك وغيرها.

ظهور الإسلام ونشوء الدولة الإسلامية:

في السنة ٦٣٢م وبعد فتن أهلية دامية جلس على سرير الأكاسرة يزدجرد الثالث (٦٣٢ ـ ٦٥١م) وفي تلك الأثناء اشتد ساعد الإسلام واتحد سكان جزيرةالعرب، وترابطوا وخضعوا لزعيم واحد، فانصرفت هممهم إلى الفتح والتبسط في الآفاق، وأرسل الخليفة أبو بكر الصديق (٦٣٢ ـ ٦٣٤م) خالد بن الوليد إلى أرض العراق، فزحف إلى الحيرة وفتحها صلحاً[٤٩]. ورحب به المسيحيون وأنزلوا جنوده في كنائسهم وأديارهم[٥٠]. وفي عهد عمر بن الخطاب (٦٣٤ ـ ٦٤٤م) تولى القيادة العامة سعد بن أبي وقاص فخيّم في القادسية[٥١]. ثم اشتعلت نار الحرب بينه وبين القائد الفارسي رستم، فدارت الدوائر على الفرس. وفي عام ٦٣٧م سارت الجنود العربية إلى المدائن وفتحوا أبوابها. وفي ٦٤٠م زحفوا إلى فارس فاشتبك القتال بينهم وبين الفرس

---

(٤٧) تاريخ مختصر الدول لابن العبري، ص١٦٠.

(٤٨) تاريخ الأمم والملوك ٤: ١٢. تاريخ الكامل لابن الأثير ٢: ١٤٧ ـ ١٥٠.

(٤٩) بين القادسية والكوفة خمسة عشر فرسخاً.

فاستظهروا عليهم وهكذا انقرضت الدولة الساسانية، واستولى المسلمون على أملاكها وسكانها وعلى قسم عظيم من مملكة الروم.

إن المسيحيين ولاسيما رؤساؤهم عضدوا المسلمين في الفتوحات العراقية وأرسلوا المدد إلى جيوشهم الباسلة.

قال مؤلف التاريخ السعردي الجاثليق يشوعياب جدلاياً أي الجدالي[٥٢] (+ ٦٤٧م): وكان يشوعياب الجاثليق قد أنفذ هدايا إلى الرسول محمد، وفي جملتها ألف أستار فضة مع جبرائيل أسقف ميشان، وكان فاضلًا عالماً، وكاتبه وسأله الإحسان إلى المسيحيين[٥٣]، وأتى في كتاب «أخبار فطاركة كرسي المشرق»: ويرّه صاحب الشريعة (محمد) كان فيه عدة الإبل وثياب عدنية»[٥٤].

وقال إنه مثل بين يدي عمر بن الخطاب، وكلمه عن شؤون المسيحيين فكتب له ولطائفته عهداً وذماماً. وسطر المؤرخ توما المرجى (ت سنة ٢٨٥٠) في كتابه «الرؤساء»: أن الجاثليق الجدالي بعث رسالة إلى أحد أساقفة الفرس يقول فيها: «العرب الذين وهبهم الله الملك يحترمون الديانة المسيحية ويودون القسوس والرهبان، ويكرمون أولياء الله، ويحسنون إلى الكنائس والأديار»[٥٥].

المفريان ماروثا (ت سنة ٦٣٩م). فتح لجيوش المسلمين قلعة تكريت، فنجا أهلها من كل أذى ونائبه[٥٦]. ومار آمه الأرزوني[٥٧] (ت سنة ٦٥٠م) قد

---

(٥٠) الجدالي: نسبة إلى جدال إحدى قرى بلد الموصل.

(٥١) روفائيل بابو إسحاق، تاريخ نصارى العراق، ص٧٢.

(٥٢) أخبار فطاركة كرسي المشرق، ص٦٢.

(٥٣) راجع عن يشوعياب الجدالي: المجدل ص٥٤. أخبار فطاركة كرسي المشرق ص٦١ ـ ٦٢ وذخيرة الأذهان ج١، ص٢٤٩ ـ ٢٥٣ وتاريخ كلدو وأثور ٢: ٢٥١ ـ ٢٥٥ و٢٨٥ وتاريخ الموصل ٢: ٢٠ ـ ٢١..

(٥٤) ذخيرة الأذهان ج١، ص٣٣١.

(٥٥) كان مار آمه من بلد أرزن وتلقى علومه في مدرسة نصيبين في عهد رئاسة حنانا الحديابي (٥٧٢ ـ ٦١٢) وترهب في دير مار إبراهام الكبير ثم سقف على نينوى وفي سنة ٦٤٦، اختير جاثليقا.

حمل الميرة والأرزاق إلى جنود المسلمين يوم نزولهم إلى الموصل، وساعدهم رئيسهم عبد الله بن المعتم على الفتح. قال المؤرخ ماري بن سليمان ما نصه: وكتب له علي بن أبي طالب كتاباً بالوصاة عليه وبالنصارى ورعاية ذمتهم، وكان يظهره لكل من يتولى من رؤساء الجيوش وأمرائهم فيمتثلونه[٥٨].

ولاقى الجثالقة والأساقفة والمقارنة ورعاياهم عند الخلفاء والأمراء وعمال البلاد الثقة والحظوة والكرامة والحفاوة ما لم يلاقيه غيرهم من الشعوب، فقد كتبوا لهم المناشير والرسائل بحماية، ديراتهم وأموالهم وصيانة حقوقهم في الأصقاع كافة. فالجاثليق يشوعياب الثالث المعروف بالحزّي (ت سنة ٦٦٠م) نال عهداً من الخلفاء بأن لا يتعرض له أحد في كرسيه ومركزه وأجيز له أن يحضر كل يوم جمعة، ليسأل حوائجه وما تصلح معه أمور النصارى[٥٩].

والجاثليق مارفثيون (ت سنة ٧٤١م) حظي بمنزلة كبرى عند خالد بن عبد الله القسري عامل العراق، وكان إذا دخل إليه بالكوفة يجلسه على كرسي ويخلع عليه ويسأله الدعاء، ووافقه على شيء يسير يؤديه عن الخراج بالمدائن. وكتب له كتاباً. وتقدم إلى طارق خليفته بصيانته[٦٠]. وهكذا نقول عن الحفاوة العالية التي كان يلاقيها الجاثليق مارآبا الثاني (ت ٧٥٢م) من لدن عامل الكوفة يوسف بن عمر[٦١].

ونجد بين الآثار القديمة وفي كتب الأخبار، نسخ عهود أعطيت للمسيحيين توصية بهم منها: نسخة عهد وسجل من محمد بن عبد الله لأهل نجران.. وسجل

---

(٥٦) أخبار فطاركة كرسي المشرق ص٧٢. ذخيرة الأذهان ١: ٢٥٩ ـ ٢٦٠، ومجلة النجم عدد ١ ص١١٧ ـ ١٨٨ وعدد ٦ ص٢٤٤ وعدد ١٠ ص٣٠٨ ـ ٣١١.

(٥٧) ذخيرة الأذهان ١: ٢٦٢ ـ ٢٦٥. وأخبار فطاركة كرسي المشرق ص٦٢ ومجلة النجم ١: ٢٦٤ ـ ٢٦٨، ٣٩٧، ٣٠٣، ١٠/ ٣١١.

(٥٨) أخبار فطاركة ـ كرسي المشرق، ص٦٦. ذخيرة الأذهان ١: ٣٣٥.

(٥٩) مجلة النجم ٦: ٢٤٤ ـ ٢٤٥، ١٠: ٣٨٣. وأخبار فطاركة كرسي المشرق ص٦٦ وذخيرة الأذهان ١: ٣٣٦.

آخر للسيد بن الحارث بن كعب، وأهل ملته.. ومعاهدة خالد بن الوليد لأهل الحيرة.. وعهد عمر بن الخطاب لنصارى المدائن.. وغيرها الكثير.

العلم ورجاله:

جَدّ المسيحيون العراقيون في نشر العلوم على اختلاف أنواعها وبنوا زهاء خمسين مدرسة من أرقى المدارس في تلك الفترة ثم ألحقوا بها المكتبات الواسعة، فكانوا نقلة الثقافة اليونانية إلى الدولة الفارسية أيام الساساتيين، وأخذت هذه البذرة في الازدهار على أيام الخلفاء الراشدين والأمويين حتى أيام العباسيين[٦٢] فكان من بينهم الراهب عنانيشوع الحديابي وقد وضع مصنفات عديدة أحسنها مقره المعروف بـ«فردوس الآباء» واشتهر أيضاً الجاثليق يشوعياب الجدالي، ويشوعياب الحزّي، وقد جاوزت مؤلفاته العشرين مجلداً. وظهر الشاعر إسحاق النينوي وقد نقلت أكثر مصنفاته إلى اللغة العربية. وعرف وقتئذ يوحنا الدلياتي الذي صنف كتباً عديدة في الرهبانية، ومار فثيون الذي أقام المدارس في كل مكان وأيضاً باباي من جيلة، الذي رصد حياته لبناء المدارس وتنظيمها وغيرهم كثيرون.

مسيحيو العراق في العهد العباسي:

انتقلت الخلافة من الأمويين إلى العباسيين سنة ٧٥٠م، فازداد حب المسيحيين للمسلمين الذين غالوا في ملاطفتهم ووثقوا بهم ثقة بلغت أقصاها. فمنحهم أبو العباس السفاح (٧٥٠ ـ ٧٥٤م) ومن عقبه من الخلفاء تواً الحرية في أحكامهم الكنسية، وخوّلوا رؤسائهم الروحانيين النفوذ الواقع على أبناء قومهم ولاسيما بعدما نزل بغداد أبو جعفر المنصور سنة ٧٦٦م[٦٣].

---

(٦٠) ضحى الإسلام ٢: ٥٩ ـ ٦٠ وعصر المأمون ١: ٤٥.

(٦١) ذخيرة الأذهان ١: ٣٣٧ ـ ٣٣٨، وعصر السريان الذهبي، ص١٨ ـ ٢١. روفائيل بابو إسحاق، تاريخ نصارى العراق، ص٧٩.

توالى الخلفاء على عاصمة الرشيد فبلغت ذروة المجد والحضارة[٦٤] فعمّ الأمن واتسعت أبواب الرزق وصارت بغداد عين العراق، ومركز الثقافة، وأخذ القوم يتمتعون بما فاض لديهم من النعم، فنال من ذلك المسيحيون ما ناله المسلمون من ترف العيش ورغد الحياة، وكثر بينهم الأدباء والأطباء والشعراء، فكان من ذلك امتزاج الثقافات وتبادل في الآراء.

فالخلفاء محمد المهدي (٧٥٧ ـ ٧٨٥م) وموسى الهادي (٧٨٥ ـ ٧٨٦م) وهارون الرشيد (٧٨٦ ـ ٨٠٩م) وغيرهم ساعدوا نصارى العراق، ووهبوا رؤساؤهم الروحانيين سلطة واسعة، فكان الجاثليق الجديد بعد تنصيبه يسير بحفاوة إلى دار الخلافة، وهناك يحظى بالأذن الشريف (الفرمان أو البراءة) أي بكتاب العهد الحاوي على حقوقه[٦٥] ثم تُلقى عليه ثياب الجاثليق الثمينة، وبعد ذلك ينحدر إلى المدائن مدينة كرسية[٦٦] تصحبه ثلة من الجنود وجماعة من المطارنة والأساقفة وعظماء الدولة فيزور ضريح مار ماري في ديره[٦٧]. وغب هذه المراسيم يعود قافلًا إلى كرسيه في عاصمة الرشيد[٦٨]. أما كتاب العهد أو المنشور العالي أو البراءة الإمامية، فكان يشتمل على الحقوق والامتيازات التي تمنحها السلطة المدنية الجاثليق، وتخوّله الحق في مراجعة السلطات في الشؤون

---

(٦٢) راجع عن مجد الخلفاء في بغداد مجلة النجم (الموصل) عدد ٢ ص٢٤ ـ ٢٨ وحضارة الإسلام، ص١١٦ ـ ١٢٩ وظهر الإسلام ص٨٩ ـ ١٠٢، بابو إسحاق، تاريخ نصارى العراق، ص٨٨ ـ ١٠٢.

(٦٣) اخبار فطاركة، كرسي المشرق، ص١٢٩.

(٦٤) المجدل، ص٨١، ٩٦، ١٠٣ و١١٦. كان كرسي الجاثليق في المدائن، فلما هُدمت رحل إلى كرخ جدان من مدن باجرمي في جنوب كركوك ومكث فيها مدة من الزمن إلى أن هدأت الأحوال فرجع إليها وأقام حيناً في دير مار ماري، وحيناً آخر في دير مار ميخائيل. ثم انتقل الكرسي إلى بغداد سنة ٧٧٩ وبقي إلى سنة ١٢٩٥م. راجع كتاب السلاسل التاريخية لفيليب طرازي ص١١، ١٣، ١١٤، ١٦٢.

(٦٥) المجدل ص١١٦ وأخبار فطاركة. كرسي المشرق ص١٥٢ و١٥٤ ـ ١٥٥.

(٦٦) مجلة النجم (الموصل) عدد ٦ ص٢٤٥ ـ ٢٤٨ وعدد ١٠ ص٣٤٣ ـ ٣٤٤ وذخيرة الأذهان ج١، ص١٥٦ ـ ١٦٦ وج٢، ص١٣ ـ ١٤.

المتعلقة بالطائفة المسيحية التسطورية وكذلك للمفريان السرياني اليعقوبي في تكريت.

الجاثليق طيمثاوس الأول (٧٨٠ ـ ٨٢٣م) حظي بالمثول لدى الخلفاء الخمسة الذين عاش في عهدهم، ولقي لديهم كل لطف. وبعد انتقال دار الخلافة إلى بغداد سكن كنيسة دار الروم[٦٩]، وكان الخليفة موسى الهادي (٧٨٥ ـ ٧٨٦م) يستدعيه ويحاوره في مسائل الدين وهو يجيبه بأجوبة قاطعة[٧٠].

كانت الدولة الإسلامية، في العصر العباسي أكثر الأمم تسامحاً مع المسيحيين على الرغم ما كان يصيبهم بعض الأحيان من الاعتداء. وقد أصاب نظير هذا الاعتداء المسلمين نفوسهم كما أصاب غيرهم[٧١]. وكان أول مظهر لهذا الاعتداء في أيام الخليفة المتوكل على الله (٨٤٧ ـ ٨٦١م) أيام استولى الجيش التركي على أمور الدولة، ثم ازداد نفوذه حتى أصبحت البلاد محكومة بالخفاء إسماً وبسلطته فعلًا، فاختلفت المناصب الحكومية، وفسد النظام بجباية الخراج وسائر الضرائب، وانقسم الجيش إلى فرق مختلفة، كل فرقة تتعصب لجنسها، هذا فضلًا عن تدخل الحكام المحليين وانتشار الرشوة وإنفاق الأموال على صنوف الترف.

---

(٦٧) كانت دار الروم محلة للمسيحيين في بغداد وبقيت إلى سنة ١٣٠٠م وقد عين ابن سرابيون في جغرافيته موضعها على وجه التقريب وذلك على الجزء الأسفل من نهر الهادي أو نهرالفضل، أي شرقي الصليخ اليوم. والأصل في هذا الاسم أن أسرى من الروم قدم بهم إلى الخليفة المهدي وأسكنوا داراً في هذا الموضع فسميت بهم وبنيت الكنيسة هناك وبقي الاسم عليها. (راجع الفصل الخامس عشر من كتاب «بغداد في عهد الخلافة العباسية، ص١٧٩ ـ ١٨٠» و«ظهر الإسلام ص٢٦٦» و«معجم البلدان، ج٢، ص٦٦٢، ٧٨٣ وج٣، ص٣١٧.

(٦٨) ذخيرة الأذهان ج١، ص٣٤٣ ـ ٣٤٤ والمكتبة الشرقية ج٢، ص٤٣٣ والتاريخ الكنسي ج٢، ص١٦٥، وأخبار فطاركة كرسي المشرق ص٧١ ـ ٧٥.

(٦٩) بغداد في عهد الخلافة العباسية، ص١٨٣.

استشرى فساد الجيش التركي في البلاد، بيد أن المسيحيين العراقيين ورؤساؤهم كانوا يحترمون الخلفاء ويتخذونهم قضاة في سياسة شؤونهم، ولاسيما في أثناء انتخاب الجثالقة. فإذا حدث نزاع أو خصام بينهم التجأوا إليهم[٧٢] فاسعدوهم وأخذوا بيدهم.

فالخليفة المعتضد بالله بن الموفق (٨٨٢ ـ ٩٠٢م) بعدما قطع دابر المشاغبات القائمة إذا ذاك بينهم، خرج أمره بتنصيب الجاثليق يوحنا بن عيسى المعروف بالأعرج (ت سنة ٩٠٥م)[٧٣] وأنعم عليه بثوب ديباج وعكاز. واقتدى به غيره من الخلفاء[٧٤].

وكان بعض الخلفاء العباسيين لمعرفتهم بما استقر في نفوس بعض العمال من حب الظلم والعسف والضراوة على إرهاق أهل الذمّة، يشددون في اختيار أهل العفة والنزاهة، منهم ويوصونهم بالقسط في جباية الجزية، وأن لا يأخذونها من النساء والولدان والعجزة والمرضى والفقراء والرهبان، كما جاء في العهد الذي كتبه أبو إسحاق الصابئ من الخليفة الطائع لله (٩٧٤ ـ ٩٩١م) إلى فخر الدولة بن بويه في جمادي الأولى سنة ٩٧٦م، قال:

«وأمره بأن يتخير عماله على الأعشار والخراج والضياع والجهبذة والصدقات والجوالي من أهل الظلف والنزاهة وأن يوزعوا إلى جباة جماجم أهل الذمة، أن يأخذوا منهم الجزية، في الحرم من كل سنة بحسب منازلهم في الأحوال، وذات أيديهم في الأموال، وعلى الطبقات المطبقة فيها، والحدود

---

(٧٠) التاريخ الكنسي ج٢، ص١٨١ ـ ١٩٦ والمكتبة الشرقية ج٣، ص٥٠٥ ـ ٥١٣ وذخيرة الأذهان، ج١، ص٣٨٧ ـ ٣٤٠.

(٧١) كان الجاثليق يوحنا بن عيسى من أفضل الجثالقة وقد تربى في بغداد. ومن مآثره الجليلة تطبيقه على أبناء طائفته أحكام وقوانين الميراث بحسب شريعة المسلمين الحنفية. وكان عنوان هذه القوانين العربية (جوامع مواريث الإسلام لبعض محبي الشعب).

(٧٢) التاريخ الكنسي، ج٢، ص٢٢٩، وذخيرة الأذهان ج١، ص٤٢١ ـ ٤٢٣، ٤٦٠ ـ ٤٦١، ٤٩٤.

المحدودة المعهودة لها، وأن لا يأخذوها من النساء، ولا ممن لم يبلغ الحلم من الرجال، ولا من ذي سن عالية، ولا ذي علّة بادية ولا فقير معدم ولا مترهب متبتل[٧٥].

راعى المسلمون حقوق المسيحيين العراقيين فاستخدموهم في دواوينهم وولوهم على مدنهم وقراهم وخزائنهم المالية. هذا عدا من أدنوا منهم من الصيادلة والأطباء والمهندسين والكحالين[٧٦]. وفي الوقت نفسه أكرم المسيحيون المسلمين وخضعوا لرؤسائهم، وقاموا بأعباء وظائفهم، فعالج أطباؤهم الخلفاء والأمراء والوزراء أحسن معالجة، وشاد مهندسوهم مبانيهم وقصورهم يزينونها بنقوش جميلة بديعة. فالمنقبون الألمان في سامراء وجدوا بين أنقاضها صوراً وتماثيل أشخاص ملونة ورسوماً هندسية متنوعة وصلباناً عديدة، موقعة باسم شماس نسطوري بارع بفن التصوير[٧٧].

لقد عاش المسلمون والمسيحيون في بلادنا في وئام وإخاء تامين لا يكدر صفاءهما تباين ولا تفاوت في المناصب والمراتب. ففي القرن الثالث الهجري العاشر الميلادي ولي في بعض الأحيان ديوان الجيش مسيحي[٧٨]. وكان لعضد الدولة البويهي في بغداد وزير مسيحي اسمه نصر بن هارون، وقد أذن له في عمارة الكنائس والأديرة وإطلاق الأموال لفقراء المسيحيين[٧٩]، بل إن عادات مسيحية تسربت إلى المسلمين في العصرالعباسي واشترك بعضهم في أعياد

---

(٧٣) الديارات النصرانية. في الإسلام ص١١٥، وصبح الأعشى ١٠: ٢٧ ـ ٢٨.

(٧٤) أخبار فطاركة كرسي المشرق ص٧٧، وذخيرة الأذهان ١: ٣٨٩ ـ ٣٩٠ و٣٩٥. والتاريخ الكنسي ٢: ١٨٧ ـ ١٨٩ والمكتبة الشرقية ٢: ٤٣٥ ـ ٤٣٨. وخلاصة تاريخ العراق ص٨٧ وتاريخ مختصر العرب ص٣٥٢.

(٧٥) النصرانية وآدابها ٢: ٣٥٢ ومجلة لغة العرب ١: ١٦٧، ٢: ٥١٨، والتصوير عند العرب ص١٤٢ ـ ١٤٥.

(٧٦) تاريخ الوزراء ص٩٥.

(٧٧) تاريخ الكامل ٨: ٢٣٤.

المسيحيين، فيوم الشعانين أو (السباسب)[٨٠] عرف في العصر وما بعده وأنشد فيه الشعراء قصائد كثيرة[٨١].

عدل الخلفاء العباسيون بين نصارى العراق، وعفوهم عن المال الذي يتركه المسيحيون من وارث وردّه إلى أهل ملّته[٨٢]، وكرموا جثالقتهم ولقبوهم بأجمل الألقاب ومنحوهم البراءات[٨٣]، وقلّدوا أطباؤهم أعلى المناصب، ووهبوهم الحرية في أعمالهم وأشغالهم ومكاسبهم، وكان أغلبهم أطباء قصور الخلفاء في بغداد. واتخذ بعض الخلفاء جواري من المسيحيات مراعين شعائرهم الدينية. وقد تكون الجارية مسيحية تلبس الصليب والزنار وترتدي رداءها القومي، وتتكلم بلغتها، ولا تحسن العربية. وكان للمهدي جارية مسيحية تعلق في صدرها صليبا من ذهب[٨٤]. وكذلك باقي الخلفاء.

وكان لمسيحيي العراق النفوذ في دواوين الحكومة. والجاه الواسع بين الأعيان والوجهاء والأموال الطائلة، والأرباح الكثيرة بين أصحاب الحرف والملاكين والتجار[٨٥]. قال الجاحظ: إن النصارى اتخذوا البرادين الشهرية، والخيل العتاق واتخذوا الجوقات، وضربوا بالصوالجة. وتحدقوا المديني ولبسوا الملحم والمطبقة، واتخذوا الشاكريه، وتسموا بالحسن والحسين والعباس والفضل وعلي[٨٦].

---

(٧٨) جاء في ابن سيده «السباسب والشعانين من أعياد النصارى، والسباسب أيام السعانين (البستاني، معجم البستان) ج١، ص١٠٤٣.

(٧٩) ضحى الإسلام ١: ٣٥١ ـ ٣٥٣.

(٨٠) تاريخ الوزراء، ص٢٤٨.

(٨١) صبح الأعشى ص٥/ ٣٧٢. وأخبار فطاركة كرسي المشرق، ص١٣٣.

(٨٢) الحوادث الجامعة، ص١٣، وأخبار الحكماء، ص٧٣، ١٠٢ ـ ١٠٣.

(٨٣) تاريخ الأمم والملوك، ص١٠ ـ ٢٠، وظهر الإسلام ص٦٥ ـ ٦٦، ٨١. و«الأعلاق النفيسة، ص٢١٣ والمعارف ص١٢٨.

(٨٤) روفائيل بابو إسحاق، تاريخ نصارى العراق، ص٨٧.

قال المستشرق الإنكليزي لسرنج ما خلاصته:

يبدو للباحث أن للنصارى في حكم الخلفاء المسلمين كانوا يتمتعون بتسامح تام، ويملكون ديارات عديدة، فيها كنائس حسنة البناء. فكان في محلة الروم دير كبير شيد في عهد الخليفة محمد المهدي (٧٧٥ ـ ٧٨٥م) وفي الكرخ على الجانب الغربي من دجلة دير العذارى، ودير درتا ودير القياب، وفي شمالي المدينة دير شموني، وفي غربها ديران، أحدهما دير مديان، الواقع على ضفة نهر كرخايا، وكان يعرف بدير سرجيوس، وثانيهما دير الثعالب، وفي شرقيها ما عدا دير الروم، خمسة أديرة، منها ديران خارج باب الشماسية وهما دير مالس ودير سمالو وجنوب بغداد دير مار جرجس، وغيرها من عشرات الديارات[٨٧].

أما المدارس فقد انتشرت بفضل المسيحيين العراقيين أيما انتشار، فكانت في دير مارفثيون مدرسة واسعة، وقد تقلّد زمام رئاستها ردحاً من الزمن الأديبان الطائرا الصيت عليّ وأخوه عيسى ابنا داود. وكانت للنصارى في الكرخ مدرسة أخرى نشأ فيها أبو محفوظ معروف بن الفيرزان المعروف بالكرخي[٨٨] المتصوّف.

وكانت في درب القراطيس ومحلة دار الروم وبيعة الكرخ المعروفة ببيعة سرجونا[٨٩] ودرب دينار وسوق الثلاثاء[٩٠] وغيرها مكاتب واسعة الأرجاء تضم بين جدرانها مئات من الطلاب. غير أن أكبر مدارس هذه الأنحاء، مدرسة مار

---

(٨٥) راجع كتابنا «المسيحيون في الدولة الإسلامية» وكتابنا «تكريت حاضرة الكنيسة السريانية» وبابو إسحاق «تاريخ نصارى العراق» ص٨٧ ـ ٨٨.

(٨٦) خلاصة الذهب المسبوك، ص١٤٥.

(٨٧) راجع المجدل، ص١١٩.

(٨٨) أخبار فطاركة. كرسي المشرق، ص١٣١ والمجدل ص١٠٦ ـ ١٠٧ و١٩٩، كان درب دينار في شارع الجسر القديم أي: في الطريق المؤدي اليوم إلى جسر المأمون. أما سوق الثلاثاء فكانت تمتد من جامع الحيدرخانة إلى جامع مرجان، وكانت المركز التجاري يوم قدم ابن بطوطة بغداد سنة ٧٢٧هـ/ ١٣٢١م.

ماري المبنية بعيداً عن بغداد في دير قِنّي وقد نبغ فيها أعظم مشاهير العلماء المسيحيين[٩١].

أما في بقية المدن، ففي الموصل استفاضت شهرة مدرسة دير مار جبرائيل المعروف بالدير الأعلى، الواقع على نهر دجلة في جوار قلعة باش طابية (العليا)[٩٢] ومدرسة دير ميخائيل الواقع في شمالي الموصل وقد بلغ عدد رهبانه أكثر من ألف راهب، ودُرّس في صفوفه الفلسفة واللاهوت وسائر العلوم. ومدرسة النبي يونان (يونس) في نينوى، ومدرسة مار إيليا الحيري في غربي الموصل[٩٣]. ومدرسة يوشعياب برقوسري في داخل الموصل القديمة.

قال المؤرخ توما المرجى في كتابه «الرؤساء»: كان في مدينة الموصل ونواحيها، في أوائل القرن التاسع الميلادي ستون مدرسة[٩٤].

وقال المستشرق الفرنسي لابور: ما من أمة على وجه المسكونة جارت الامة المسيحية في بناء المدارس والمعاهد العلمية، فإنها ما فتئت زهاء أحد عشر قرناً تنشر ألوية التمدن والتربية بين سكان آسيا القديمة والشرق الأقصى[٩٥].

مسيحيو العراق في العهد المغولي

في شهر شوال سنة ٦٥٥هـ/ تشرين الأول سنة ١٢٥٧ رحل هولاكو[٩٦] المغولي عن حدود همدان نحو العاصمة بغداد العباسية، وفي منتصف شهر

---

(٨٩) مجلة «المشرق» (١٠: ٤٤٥) وتنويهاً عن درب القراطيس كان داخل بغداد في غربي الكرخ، وكان للنساطرة فيه مدرسة وكنيسة واسعة الأطراف، (المجدل، ص١١٩).

(٩٠) ذخيرة الأذهان، ج١، ص٣٠١.

(٩١) تاريخ الموصل، ج١، ص٩٣، ج٢، ص٤٤.

(٩٢) كتاب الرؤساء، ص١٤٦.

(٩٣) النصرانية في مملكة فارس، ص٣٥١، كلدو وآثور ج٢، ص ز ـ ح.

(٩٤) تاريخ نصارى العراق، ص١١٣.

المحرّم من سنة ٦٥٦هـ (٢٧ كانون الثاني سنة ١٢٥٨م) نزل بنفسه على بابها، وفي اليوم الثاني والعشرين من شباط بدا القتال بعدما نصب الجند المنجنيقات ورتبوا الصرّارات وآلات النفط.

في اليوم السادس والعشرين من محرّم سنة ٦٥٦هـ/ ٥ شباط ١٢٥٨م) اشتد الحصار على بغداد من جميع الجوانب، وفي اليوم الرابع من صفر ٦٥٦هـ ١١ شباط ١٢٥٨ استأذن الخليفة العباسي المستعصم بالله هولاكو بأن يحضر بين يديه، فأذن له وقد خرج معه أولاده وأهله، وفي الرابع عشر من صفر (٢١ شباط) رحل هولاكو من بغداد، وفي أول مرحلة. قتل الخليفة المستعصم وابنه الأوسط مع ستة نفر من الخصيان، وقتل ابنه الكبير ومن معه من الخواص على باب كلواذي، ويموت الخليفة المستعصم وأولاده دالت دولة العباسيين وانطوى بساط ملكهم من بغداد بعد أن حكموا (٥٢٤ سنة هجرية) وقام منهم سبعة وثلاثون خليفة[٩٧].

لم تكن أحوال مسيحيي العراق في عهد المغول على حالة واحدة، فكانت بين المدّ والجزر، تتغير بتغير الحكام، فأثاروا شغباً على الجاثليق مليخا الثاني (ت ١٢٦٥م) زاعمين أنه حبس عنده نسطوريا كان قد أسلم قبل بضع سنوات، فما كان من الرعاع إلا وأحرقوا باب دار الجاثليق ورواقه وتسلقوا الجدار ليدخلوا عليه ويقتلوه، فغادر بغداد وأقام كرسيه في أربيل[٩٨].

وراحت الاعتداءات تكثر على المسيحيين وكنائسهم في أيام المغول والجلائريين والتركمان دوراً بعد دور، فتأخرت العلوم وازدادت المذابح والفضائح والثورات، ولم يبق أثر للنهضة الأدبية التي رأيناها في أيام الدولة

---

(٩٥) تاريخ العراق بين احتلالين ج١، ص٣٧ ـ ٤٠، ١٦٧ ـ ١٨١.

(٩٦) الحوادث الجامعة ص٤٤٧، وتاريخ العراق بين احتلالين، ج١، ص٣٣٥، ومجلة المشرق (١٨: ٦٠٤ ـ ٦٠٦).

(٩٧) كانت حالة المسيحيين بهذه الفترة يرثى لها، فقد تبدد جمعهم وهربوا لاجئين إلى القرى والجبال النائية، خوفاً من القتل والذبح، فهدمت دورهم واستأصلوا كنائسهم فأمر علي باشا =

العباسية، فخمدت الحركة العلمية لدى أدباء العراق المسيحيين[٩٩].

وعمّت الفوضى بدخول تيمورلنك إلى بغداد عام (٧٣٨هـ/ ١٣٣٧م) واستيلاء الجلائريين ما أن حكموا حتى أسقطوا بالذين أسسوا دولة آل قره قويونلي أي (الخروف الأسود)، وتلاها الآق قوينلو (الخروف الأبيض) فكان العراق بهذه الفترة ميداناً للفتن والقلائل وقد أمست مدنه وقراه ميادين النهب والفتك والدمار بتقلب الحكومات وتغيّر الحكام، ولا افتراء أن المسيحيين تجرعوا غصص الآلام وتشتتوا في أنحاء البلدان، فأخبارهم غامضة مبهمة منذ أوائل القرن الرابع عشر للميلاد، ولم يستطيعوا أن يدوّنوها لتزايد الرزايا التي انتابتهم في كل مكان؛ فقتل كثير منهم أو هاجروا، فتهدمت بيعهم وأقفرت دياراتهم وضبطت أملاكهم[١٠٠].

مسيحيو العراق في العهد العثماني

عهد السلطان سليمان القانوني الأول (ت ١٥٦٦م) إلى الصدر الأعظم إبراهيم باشا، قيادة الجيوش الزاحفة إلى العراق التي في أوائل الخريف عام ١٥٣٤م زحفوا إلى بغداد حيث احتلها واستولى عليها دون مقاومة. وأغلق الأبواب منعاً للنهب الذي قد يحدث، ثم دعا السلطان بعدما خيّم الجيش شمالي بغداد فدخلها بأبهة وإجلال.

مكث السلطان سليمان القانوني في دار السلام (بغداد) مدة أربعة أشهر،

= صاحب الموصل بهدم كل الكنائس. وفي ١٣٧٢ نهب الأشقياء دير مارمتى وفي عام ١٣٧٥ خربت بيعه أربيل الكبرى ونحو سنة ١٤٠١ توالت غزوات المغول على أطراف الموصل فقضت على دير بيت عابي وغيره من الديارات. (ذخيرة الأذهان ج٢، ص١١٢، ١١٨ ـ ١١٩) عصر السريان الذهبي ص١٠٢).

(٩٨) للتفصيل بهذه الأحداث راجع: أربعة قرون من تاريخ العراق، ص١٤، ذخيرة الأذهان، ج٢، ص٧٨، ٢٠٠. كوركيس عواد، أثر قديم في شمال العراق. خلاصة تاريخ العراق ص١٩٥، وغيرها.

(٩٩) روفائيل بابو إسحاق، تاريخ نصارى العراق، ص١٢٥ ـ ١٢٦، وتاريخ الدولة العلية العثمانية، ص٩٠.

رتب خلالها الإدارة الداخلية[١٠١] ثم غادرها بعدما أقام عليها أول وال سليمان باشا حاكم ديار بكر السابق، وبقي الولاة يديرون شؤونها حتى حكم فيها بكر صوباشي عام (١٠٢٨هـ/ ١٦١٩م) فشق عصا الطاعة، على الحكومة، واستقلّ برأيه.

ولما تسلّم السلطان مراد الرابع عرش السلطنة عام ١٦٣٢م سيّر جيشاً لكسر شوكة بكر صوباشي، فاستجار الصوباشي بالشاه عباس الأول فأجاره وأرسل إليه عساكر حاصروا بغداد، وقاتلوا حاميتها، وفي سنة ١٦٢٤ دخلوا المدينة، وبعدما استتب الأمر للفرس فيها نكلوا بالأهلين[١٠٢].

وفي سنة ١٦٢٦م فوّض السلطان مراد الرابع إلى حافظ أحمد باشا استرجاع العراق من الفرس، بيد أن العثمانيين لم يفلحوا في قتالهم العنيف الذي دام إلى سنة ١٦٢٩م، فعيّن السلطان مراد الصدر الأعظم خسرو (كسرى) باشا قائداً عاماً وعهد إليه قيادة حملة العراق غير أن هجماته على حصون بغداد لم تجده نفعاً، فاضطر السلطان مراد عام ١٦٣٧م إلى مغادرة عاصمته متوجهاً إلى العراق بجيش هام الذي جثم في سنة ١٦٣٨م إزاء أسوار بغداد، وما انفك يهاجمها حتى تغلغل فيها، وهكذا انتهى حكم الفرس من هذه البلاد (العراق)[١٠٣].

العودة إلى بغداد

استولى العثمانيون على العراق، واطمأنت النفوس إلى حكومة قوية، فانصرفت همم الناس إلى توطيد أركان الأمن، وأخذ النصارى منذ أواخر القرن السادس عشر يغدون إلى بغداد وأنحائها للسكنى والارتزاق وكانوا يومئذ قليلي العدد، أتوا من القرى الشمالية ومن ماردين وديار بكر وأطرافهما، ولم يمض

---

(١٠٠) أربعة قرون ص٢٣ ـ ٢٨ و٦٢. تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص١٢٦ ـ ١٢٧.

(١٠١) تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص١٢٦ ـ ١٢٧.

زمن طويل حتى شاد النساطرة نحو عام ١٦٢٣م كنيسة صغيرة في محلة الميدان باسم الشهيدة مسكنتا[١٠٤]. وبعد مدة وجيزة حذا حذوهم اليعاقبة، وأما الأرمن فلقلة عددهم بقوا بدون كنيسة.

وفي سنة ١٦٢٨م وصل بغداد ثلاثة رهبان من الكبوشيين الفرنسيين قاصدين إيران، وقبل أن يغادروها، فتحوا مصلى في إحدى الدور، وكان يتردد إليه النساطرة واليعاقبة والأرمن والروم[١٠٥].

الكلدان والسريان الكاثوليك:

كان نصارى العراق نساطرة ويعاقبة (سريان أرثوذكس) حتى أواسط القرن السادس عشر، ولكن ورود الإرساليات التبشيرية[١٠٦] بالكاثوليكية إلى الأقوام الشرعية من أيام الحروب الصليبية حيث أن البابا غريغوريوس التاسع أرسل عام ١٢٣٧م الرهبان الدومنيكيين يترأسهم الأب فيليب، ثم قدم الآباء الفرنسيون، وفي سنة ١٥٨٣م بعث البابا غريغوريوس الثالث عشر لاونارد هابيل سفيراً أو زائراً رسولياً إلى طوائف الشرق المختلفة.

ومنذ عام ١٦٢٢م أتى العراق الرهبان الكرمليون، ثم الكبوشيون والدومنيكيون[١٠٧] ونشر هؤلاء المرسلون التعاليم الكاثوليكية بين النساطرة واليعاقبة، كالآتي:

كان المسيحيون في العراق منذ القرن السادس للميلاد من يعتقد بتعاليم

---

(١٠٢) نالت القديسة الشهيرة مسكنتا إكليل الاستشهاد في زمن الملك يزدجر الاول عام (٤٠٠ - ٤٢١م).

(١٠٣) روفائيل بابو إسحاق، تاريخ نصارى العراق، ص١٢٧.

(١٠٤) أتت هذه الإرساليات للتبشير بالمسيحية للمسيحيين حيث كانت سبباً لانقسامهم على بعضهم فخلقوا طائفة الكلدان والسريان الكاثوليك الذين انشقوا عن النساطرة والسريان الأرثوذكس، فكانوا بذلك إرساليات تخريبية رغم الثقافة التي نشروها بحسب أهوائهم.

(١٠٥) ذخيرة الأذهان، ج٢، ص١٦٩ - ١٧٥، ١٩٥ ومجلة لغة العرب مجلد ٣، ص١١ - ١٢.

نسطور ويعقوب البرادعي. وعليه نشأت الكنيسة المشرقية النسطورية والسريانية الأرثوذكسية. وانتسب إليهما جميع مسيحي العراق حتى القرن السادس عشر/ السابع عشر الميلادي حينما قدم ـ كما أشرنا ـ الإرساليات التبشيرية وهي التالي:

الكرمليون

جاء الكرمليون إلى البصرة وبغداد عام ١٦٢٢م يتقدمهم الأب باسيليوس البرتغالي. وفي سنة ١٦٢٨م أقيم أول مطران منهم على بابل وأصفهان، ثم غادروا بغداد والبصرة، لتزايد الاعتداءات عليهم، غير أنهم رجعوا إليهما بعدما تعهدتهم فرنسا بحمايتها، وكان البرتغاليون بعد سنة ١٦٢٢ قد شادوا بيعة في البصرة. وفي عام ١٦٥٢ بنى فيها اغناطيوس النائب الرسولي كنيسة كبيرة باسم العذراء مريم، وكانت في البصرة إذ ذاك أقليات مسيحية. ثم تركت بيعة البرتغاليين، وبقيت بيعة الكرمليين وعيّن رئيسهم في سنة ١٦٧٩م قنصلاً فرنسياً[١٠٨].

وفي سنة ١٧٢١م أقام الأب يوسف ماريه داراً له وأقيم الكرملي نائباً رسولياً في بغداد[١٠٩] بيد أن الكلدان والسريان الكاثوليك لم يجسروا على إيوائه في دورهم خوفاً من الوشاة. فبقي مدة ثماني سنوات يتنقل تارة إلى ديار بكر وأخرى إلى البصرة، أو يقيم في بغداد بعيداً عن الأنظار حتى هرب إلى حلب واستقر فيها.

الكبوشيون

في سنة ١٦٢٦م وافى الآباء الكبوشيون بغداد، وكان ديرهم في محلة، رأس القرية، قال الكاتب الإيطالي أوربانو تشري Urbano cerri «للكبوشيين في

(١٠٦) أربعة قرون ص١١٥، ١٩٩، ٢٧٢ ـ ٢٧٣، ذخيرة الأذهان ج٢، ص١٩٢ ـ ١٩٥.
(١٠٧) أربعة قرون ص١٣٦.

بغداد كنيسة وديراً، وقد أحرزوا نجاحاً عظيماً، وفازوا بإعزاز المسلمين لمهاراتهم في الطب والرياضيات، وكان يتردد إلى كنيستهم من أتباع الكنيسة الكاثوليكية من السريان والأرمن، ويرسلون أولادهم إلى مدرستهم»[١١٠].

وفي سنة ١٦٣٦م حلّت فئة من الآباء الكبوشيين في الموصل، وشرعوا يطببون سكانها فعضدهم الأهلون، غير أنه تركوها سنة ١٧٢٤م. كما كانوا قد غادروا بغداد عام ١٧٠٨م[١١١].

الدومنيكيون

أتى الآباء الدومنيكيون الموصل سنة ١٧٥٠م يتقدمهم الابوان الإيطاليان فرنسيس طورياني وعبد الأحد كوديلنشيني وأخذا يتعلمان لغة البلاد، ويطببان الأهلين. وبعد متاعب جمة وشدائد وافرة شيدت في الموصل كنيستان كاثوليكيتان إحداهما كلدانية والأخرى سريانية[١١٢].

كان عدد الكاثوليك في الموصل سنة ١٧٤٧م، عشر عائلات كلدانية، وعشر عائلات سريانية، وفي قرية تلكيف خمسون ومئة عائلة، يتولى شؤونها كاهنان من دون كنيسة، وكان في قرية باطنايا مئتا عائلة يدير أمورها كاهن واحد وفي قرية القوش مئة عائلة، يسوسها كاهن واحد، وفي دهوك ثلاثون عائلة، وفي زاخوا أربعون عائلة وكان في البصرة ثماني عائلات كاثوليكية[١١٣].

وأما في بغداد فصار عددهم سنة ١٧٣٣م ستاً وثمانين عائلة من الطوائف

---

(١٠٨) بابو إسحاق، تاريخ نصارى العراق، ص١٣١.

(١٠٩) تاريخ الأرمن الكاثوليك، ص٧ ـ ٩ و١١. نشرة الأحد ج٤، ص٦١٨.

(١١٠) مجلة المشرق ١٣، ص٥١٨. وذخيرة الأذهان ج٢، ص٣١٨ ـ ٣٢١ و٤٢٩ وتاريخ الكنائس الشرقية ص٦٤.

(١١١) ذخيرة الأذهان ج٢، ص٢٦١ ـ ٢٦٢، وتاريخ الكنائس الشرقية ص٦٢ و٦٦.

الأربع أي: الكلدانية والسريانية والأرمنية والملكية. وقد سكنت أربع وأربعون أسرة منها في محلة الميدان قرب كنيسة الشهيدة مسكنتا واثنتان وأربعون أسرةفي محلة الشورجة في جوار كنيسة الأباء الكرمليين[١١٤].

وهكذا انتشرت الكاثوليكية في قره قوش وبرطلي وكرمليس وبعشيقة إضافة إلى الموصل وما حولها[١١٥].

قال المؤرخ الإنكليزي ستيفن لونكريك: «أن نصارى العراق في أثناء الحكم التركي العثماني (١٦٣٩ ـ ١٧٠٤) كانوا يعيشون على اختلاف طوائفهم، في ظل نظام يكثرفيه التساهل، على ما كان في الولايات الأخرى. فإن بغداد كانت عالمية إلى حدّ أنها لا تشجع شيوع التعصب على الرغم من أن المذاهب الإسلامية نفسها مفترقة جداً. وأن الطوائف ذوات الأقليات من السكان، كانت تسلك سلوكاً أخلاقياً كما كان الناس قد ألفوهم، نظراً لطول إقامتهم، ولعدم وجود ما يمنع اختلاطهم بباقي السكان، إلا أنه كان من المنتظر أن يكون بينهم ما يفرقهم عن غيرهم، كما كان الأمر في دمشق والقاهرة.

مرت البلاد بأدوار قاسية منذ العام ١٦٣٨م وحتى العام ١٨٣١م فتجرع الأهلون من جرائها غصص الآلام، فما كانت تمضي سنة إلا وخرج الوزير على السلطان أو تمرد عليه أو انقلب الشاه على الحاكم لاسترجاع الأراضي المقدسة، فكانت البلاد تارة بيد قوم، وطوراً بيد قوم آخرين. وأما المسيحيين فكانت مصائبهم أنكى ومحنتهم أعظم، فقد اضطهدوا في الموصل وبغداد نحو سنة ١٧٠٨م. وهجم الأشرار في الموصل على دير الكبوشيين وذبحوا ليلًا عام ١٧٢٢م الأب بطرس. وترك الكرمليون بغداد والبصرة لاشتداد الاعتداءات

---

(١١٢) تاريخ أبرشية بغداد السريانية من قلمنا لا زال مخطوطة في خزانتنا وكذلك مخطوطة الخوري عبد الأحد جرجي عن أبرشية بغداد.

(١١٣) راجع إفرام نقاشة، عناية الرحمان في هداية السريان مطبوع في حلب (١٩١٠) وكتابنا تاريخ أبرشية الموصل للسريان الكاثوليك المطبوع في بغداد عام ١٩٨٥.

(١١٤) بطرس نصري، ذخيرة الأذهان، ج٢، ص٢٤٠.

عليهم[١١٦].

وازدادت نكبات المسيحيين عندما قدم طهماسب الثالث المعروف بنادر شاه إلى شمال العراق فوصل كركوك وحاصرها واستولى عليها، وكانت عساكره الجرارة حيثما مرّت دمرت فنهبت وسَبَت، ثم سار إلى بغداد سنة ١٧٣٢م وسيّر وزيره تركي خان إلى الموصل، فلم يستطع أن يفتحها.

وفي سنة ١٧٤٣م هجم طهماسب نفسه عليها (الموصل) هجمات عنيفة، باءت بالخسران، للهمة الشمّاء التي بذلها الحاج حسين باشا الجليلي في كلتا الحملتين، إذ كان يحثّ على النضال أهالي الموصل المسلمين والمسيحيين ومن التجأ إليها من سكان قره قوش إذ كان قد دعاهم لدخول الموصل بحسب الرسالة التي أرسلها إلى مطران دير مار بهنام وباخديدا المطران يوحنا كارس الخديدي. بينما جنود طهماسب الفرس كسحت قرى كثيرة عامرة وهدمت كل ما وجدت في كرمليس وبرطلي وتلسقف والقوش وتلكيف وغيرها وأخذت تغتال شيوخها وشبابها وتسبي نساءها وأطفالها، وتنهب دورها وكنائسها، وتقتل رهبان دياراتها ولاسيما دير مارايليا (دير سعيد) ودير مار أوراهام، ودير الربان هرمزد، ودير مار متّى ودير يوحنا الديلمي وقد قال أحد المؤرخين المسيحيين. لقد أصبحت بلاد آثور كلها خراب، آوى إليها البوم ونعقت على أطلالها الغربان[١١٧].

وبالرغم من هذه المحن والمذابح، كان عدد الكاثوليك يزداد زيادة مطرّدة في البصرة وبغداد وكركوك والموصل ونواحيها[١١٨]. والنساطرة منذ سنة

---

(١١٥) تاريخ الموصل ج١، ٢٧٣ ـ ٢٩٠، وذخيرة الأذهان ج٢، ص٣١٦ ـ ٣١٧، أربعة قرون ص١٤٤ ـ ١٦٢. عصر السريان الكاثوليك ص١٠٢، أثر قديم في شمال العراق ص٨٢ ـ ٨٤. مجلة النهرين ومجلة كروان مقالة سهيل قاشا حملات طهماسب في المصادر السريانية.

(١١٦) تاريخ نصارى العراق، ص١٣٩.

(١١٧) تاريخ نصارى العراق، ص١٤٠.

١٧٩٨م غادروا سهول بلاد ما بين النهرين وسكنوا شمال العراق[١١٩]. وأما اليعاقبة فمكث أكثرهم في الموصل وفي بعض قراها. ومنذ الربع الأول من القرن الثامن عشر طفق المسيحيون يأتون إلى بغداد والبصرة والموصل وحلب وإيران واستنبول للتجارة والارتزاق، أو هرباً من الاعتداءات فمكث بعضهم مدة في العراق، ثم عاد بعضهم إلى أوطانهم، واستوطن الباقون وتأهلوا فيه، ولم يبق من أعقابهم إلا النزر القليل، بينما معظمهم قد انقرضوا، وأضحوا نسياً منسياً[١٢٠].

ففي تلك الأثناء لم تكن حقوق الأقليات على اختلاف أديانهم متساوية في الضرائب، وحق التملك والحريات الشخصية، فتداخلت الدول الأوروبية، تارة بدافع ديني بحت، وطوراً بدافع دبلوماسي أوجبته سياسة التوازن الدولي، حتى وضعت لهم السلطنة العثمانية، نظاماً خاصاً، يخوّل رؤساء الطوائف غير المسلمة إدارة شؤون رعاياهم، بعد أن يؤيد السلطان انتخابهم بفرمان خاص، ومنحهم حرية العبادة، وصلاحية الفصل في قضايا الأحوال الشخصية، بموجب القوانين الكنسية. إلا أن بيت المال طفق يتقاضى الجزية. من أهل الكتاب أضعافاً مضعفة لقاء تسامح السلطان، فبلغ ما يُجبى منهم في وقت من الأوقات ثلث الدخل العام[١٢١].

استمرت الحال على هذا الحال، تارة ينشر السلاطين المراسيم، وأخرى يعدون بالإصلاح، بينما كانت الدولة تسير إلى الدمار والانهيار، مما حمل طائفة من المفكرين لمناشدة السلطان أن يضع له حدّاً، وتدعو الأمة، إلى إقامة صرح الدولة المتداعي على أساس راسخ، وكان في طليعة هؤلاء المفكرين مصطفى باشا فاضل الذي هرب مع عدد من الأحرار إلى أوروبا فسيّر إلى السلطان عبد

---

(١١٨) مجلة (لغة العرب) ج١، ص٢١، ج٣، ص٢٤٧ ـ ٢٥٢، ٣٦٠ ـ ٣٥٦، ٤٢٤ ـ ٤٢٨، ٦٢٥ ـ ٦٣٢. ومجلة (نشرة الأحد ج١، ص١٢٠ ـ ١٢٧، ٢٠٠ ـ ٢٠٨).

(١١٩) «النصارى في الشرق ص١٢ ـ ١٨، وتركيا بين جارين ص٨ ـ ٩.

العزيز خطاباً مفتوحاً دعاه فيه إلى تجديد شباب الدولة، بدستور يتساوى أمامه المسلمون والمسيحيين في الحقوق وفي الواجبات[١٢٢] ومما قاله في سطوره:

«ليس في هذا الوجود سياستان: مسلمة ومسيحية، العدل واحد، وما السياسة إلا العدل تجري على يد السلطان، أن نظامنا القديم يضنينا إنه أفسد طباع ساستنا وحط نفوسهم فافسدوا من طباع الدولة وحطوا من مقامها..[١٢٣]».

وقال مدحت باشا أبو الدستور العثماني: «إن السبب الوحيد لتذمر المسيحيين في الدولة العثمانية هو فقدانهم الحرية، فمتى منحوها عطفوا مع الدولة وشعروا بأنهم جزء منها»[١٢٤].

المدارس والعلوم في القرن التاسع عشر

على الرغم من مراسيم السلاطين ووعودهم الخلابة لم يطرأ أي تحسن جوهري في أحوال العراق الداخلية، غير أن سكانه اندفعوا إلى اقتباس المعارف على اختلاف أنواعها، وتقدمت النهضة العلمية فيه تقدماً حثيثاً، ولاسيما بعد منتصف القرن التاسع عشر، حينما امتزجت الحضارة الشرقية بالحضارة الغربية.

وممن ساعد على النهوض الأدبي العراقي في أواخر القرن الثامن عشر، وفي مطاوي القرن التاسع عشر، رؤساء الطوائف المسيحية، منهم البطريرك السرياني أغناطيوس ميخائيل جروة (+ ١٨٠٠) والبطريرك الكلداني يوحنا هرمزد (+ ١٨٣٨) بمساعدة الأب الكلداني جبرائيل دنبو (+ ١٨٣٢) والبطريرك

---

(١٢٠) روفائيل بابو إسحاق، تاريخ نصارى العراق، ص١٣٨.

(١٢١) بابو إسحاق، تاريخ نصارى العراق، ص١٤١.

(١٢٢) كتاب «مدحت باشا» ص٧.

(١٢٣) الآداب العربية في القرن التاسع عشر ج١، ص٥ ـ ٦، ٧٤ ـ ٧٥. ج٢، ص٦٢ ـ ٦٣، ومجلة المشرق (٣) ص٩١٣، ومجلة «النجم» ج٢، ص٢٩ ـ ٣٨، ٩٩ ـ ١١٢، ١٤٥ ـ ١٥٣ وذخيرة الأذهان ج٢، ص٤١٨ وأثر قديم في العراق، ص٨٤ ـ ٨٨.

الكلداني يوسف أودو (+ ١٨٧٨) وغيرهما[١٢٥].

ففي بغداد في الأول من شهر آب عام ١٨٧٨م فتحت أبواب مدرسة الاتفاق الشرقي الكاثوليكي، وقد قامت بتأسيسها الطوائف الكاثوليكية الثلاث: الكلدانية والسريانية والأرمنية، وازدهرت ازدهاراً باهراً، وأنجبت تلاميذ امتازوا بعلمهم وأدبهم، وقضت نحبها في أواخر سنة ١٨٩٣م[١٢٦].

وفي خلال السنوات (١٨٩٣ ـ ١٩١٤) تقدمت مدرسة مار يوسف بفضل الآباء الكرمليين، ولاسيما أيام كان مديرها ماري جوزيف دي جيزو (المتوفى سنة ١٨٩٨) وقد خرج منها جمهور من الشبّان الذين تسنّموا المراكز التجارية والوظائف الحكومية.

وفي سنة ١٨٨٠ وافت بغداد راهبات التقدمة، وفتحن أبواب مدرستهن للبنات المسلمات والمسيحيات وسعين كل السعي لتثقيف أخلاقهن، وتعليمهن القراءة والكتابة وتدريبهن على الأشغال البيتية.

وفي تلك الأثناء تقدمت مدارس الموصل المسيحية، ولاسيما مدرسة المرسلين الدومنيكيين، الذين كانواقد وافوا الحدباء سنة ١٧٥٠م وأسسوا فيها مطبعتهم عام ١٨٦٠م. ثم أقبلت إليها عام ١٨٧٣م الراهبات المعروفات بـ«أخوات المحبة» وفتحن المدارس للبنات، واجتهدن في تدريبهن على الفضائل، والتضلع من القراءة والخياطة والتطريز.

وفي سنة ١٨٥٣ وسّع الأرمن الأرثوذكس غرف مدرستهم بمساعي الأستاذ مهران سافاجيان الأستانبولي.

وفي سنة ١٨٩٥ منح مطران بغداد السرياني الكاثوليكي أثناسيوس نوري من تركة المرحوم فتح الله بن نعمة الله عبود، مبلغاً مقداره (١٥٠٠٠) فرنك

---

(١٢٤) السلاسل التاريخية، ص٢٩٠ ـ ٣٠٩و كتاب القلادة النفيسة في فقد الكنيسة (بيروت ١٨٩١) تاريخ الموصل ج٢، ص١٧٠ ـ ١٧٢.

(١٢٥) السلاسل التاريخية، ص١٧٠ ـ ١٧٣.

اشترى بها داراً يعود ريعها السنوي إلى المدرسة الإفرامية الطائفية[١٢٧]، وفي عام ١٨٩٧م وسّع كلدان بغداد قاعات مدرستهم وأدخلوا فيها تدريس العلوم الحديثة.

تلك كانت حالة النهضة العلمية، عند المسيحيين في بغداد والموصل والبصرة وسائر المدن العراقية.

وقد عرف في تلك الفترة (عهد العثمانيين) جمهور من البطاركة ـ الأفاضل خدموا العلم ورفعوا قبابه، ثم صنّفوا وألفوا كتباً وبحوثاً جليلة. ومن أشهرهم: البطريرك يوسف الثاني الكلداني (ت ١٧١٣م) وقد وضع مصنفات عربية تقوية عديدة منها، طب الخطاة، ومصباح النور، وفرج الصديقين)[١٢٨]..

ومنهم أيضاً المفريان باسيليوس إسحاق جبير السرياني (ت١٧٢١) الذي تمكن من العربية والسريانية واللاتينية والايطالية، قصد روما، وتضلّع بالعلوم اللاهوتية ورجع إلى بلاده وصنّف العديد من الكتب منها: مدرك النجاة ومحجة الفوز بالحياة في صدق الكنيسة المصطفاة، وكتاب سماه «العلل لدفع الملل، والمختصر في الإلهيات لمارتوما الأكويني، وترجم كتاب «الاقتداء بالمسيح» وغيرها[١٢٩].

ومن الكهنة الذين اشتهروا إذ ذاك بالعلم والفضيلة، والآداب القس خدر الموصلي الكلداني (ت ١٧٥٥) كان يحسن العربية والآرامية والتركية والإيطالية وقد ألف كتباً شتى منها: معجم كلداني ـ تركي أسماه (معدن الكنوز لكشف الرموز بأربعة مجلدات، ومعجم كلداني ـ عربي، هذا عدا قصائده العربية والكلدانية في مدح العذراء (مريم والكنيسة الكاثوليكية).

---

(١٢٦) ذخيرة الأذهان ج٢، ص٢٣٥ ـ ٢٣٩، ومجلة المشرق ٣، ص٨٨٠ ـ ٨٨١. وعلاقات الكلدان والكرسي الرسولي ص٢١٣.

(١٢٧) ذخيرة الأذهان، ج٢، ص٣١٥ ـ ٣١٦. السلاسل التاريخية ص١٢٠ ـ ١٣١، وتاريخ الموصل ج٢، ص١٥٨ ـ ١٥٩ ومجلة المشرق ١١، ص٢٨٦.

وممن ظهر في تلك الآونة آدم عقراوي الكلداني (ت ١٦٢٢) كان رئيس دير الربان هرمزد، ومن الأدباء المعروفين في أيامه، وسطر مصنفات ورسائل بالكلدانية فاق بها معاصريه. ونبغ في ذلك الحين إسرائيل وكوركيس الألقوشيان الكلدانيان في الشعر الكلداني والعربي. واشتهر أيضاً القس الكلداني يوسف العينكاوي والذي أقيم كاهناً عام ١٧٠٠ وخدم في كركوك وبغداد، وصنف معجماً بالآرامية الفصحى والعامية السوادية الدارجة، ونحواً آرامياً وترجم من العربية إلى الآرامية كتاب (ياقوت الكهنة) و(ميزان الزمان) و(التأملات في آلام المسيح) وكذلك ترجمها إلى التركية.

ومنهم أيضاً المطران إقليميس يوسف داود السرياني الكاثوليكي (ت ١٨٩٠) درس في روما وتخرج منها وعاد إلى وطنه الموصل ووضع مصنفات فريدة في بابها، فهو أول من زوّد البلاد العراقية بكتب مهذّبة على الطريقة المدرسية في الصرف والنحو والعروض والخطابة والتاريخ والجغرافيا والحساب وسائر فنون الأدب. أما مؤلفاته وما نقح وجمع وترجم فجاوزت المائة مجلداً، وقد طبع منها زهاء الخمسين، ومن أنفسها:

١ ـ القصارى في حلّ ثلاث مسائل تاريخية تتعلق ببلاد الشام.

٢ ـ اللمعة الشهية في نحو اللغة السريانية.

٣ ـ نحو اللغة السريانية (باللاتينية).

٤ ـ مختصر تاريخ السريان (بالفرنسية).

٥ ـ تقليد البيعة السريانية في رئاسة الرسول بطرس (باللاتينية).

٦ ـ مقالات شتى طقسية وتهذيبية (باللاتينية والإيطالية).

٧ ـ ومن مصنفاته أيضاً: مختصر تاريخ الطائفة السريانية الكاثوليكية وعلم الهندسة وعلم الجبر.

ومنهم البطريرك الكلداني جرجيس عبد يشوع خياط (ت ١٨٩٩) المولود

في الموصل عام ١٨٢٨ وشغف بالعلم من صغره، أرسله رؤساؤه إلى روما، وسيم كاهناً، وشرع يكتب ويؤلف الكتب المدرسية اللغوية والعلمية، وانتخب سنة ١٨٦٠ مطران على عمادية فديار بكر وسعى لتثقيف الشعب، ورقي إلى بطريركية الطائفة الكلدانية فقام بأعباء رعيته خير قيام. نشر العديد من البحوث والدراسات والكتب في مطبعة الدومنيكان بالموصل وعرّب الكثير من المؤلفات الأجنبية الإيطالية واللاتينية.

وعرف في تلك الآونة نعوم فتح الله سجّار الكلداني (ت ١٩٠٠) تلقى علومه في مدرسة الدومنيكيين وعندما أنهاها عينوه في رئاسة الإشراف على التعليم ومراقبة أعمال الطباعة وترك مؤلفات عديدة ومنها «رواية لطيف وخوشابا» وكتاب «أحسن الأساليب لإنشاء الصكوك والمكاتيب» وغيرها.

وأيضاً هرمز بن انطوان رسام الكلداني (ت١٩٠٠)، ولد في الموصل وقصد لندن ليتلقى العلوم وطبق بجدّ في درس الآثار القديمة حتى أصبح من أئمة زمانه في معرفة التاريخ القديم فرافق الآثاري المشهور أستن لايارد للوقوف على الآثار العراقي، عثر على قصر أشور بانيبال في نينوى، ومن أنفس مؤلفاته: «أشور وأرض نمرود» و«الأراضي الكتابية» و«جنة عدن».

وظهر بهذه الفترة المطران توما أودو الكلداني (ت ١٩١٥) ولد في القوش عام ١٨٥٥م كان من الآباء الذين يشهد لهم بالتقدم في فنون الكتابة السريانية، وقد صنّف معجماً أسماه «كنز اللغة الأرامية» طبعه بالموصل عام ١٨٨٧ وكتاباً في الفقه الكنسي.

وأيضاً المطران أدّي شير المشهور الذي استشهد عام ١٩١٥ والمولود في شقلاوة عام ١٧٨٦، تلقى علومه في معهد مار يوحنا الحبيب بالموصل وسيم كاهناً فمطرانا عام ١٩٠٢ على سعرد. وضع كتاباً ثميناً بتاريخ العراق سمّاه «تاريخ كلدو وأثور» وكتاب: «إكليل مريم» أودعه مدائح البتول مريم لكتبة النساطرة، وعرّب كتاب «شهداء المشرق» في مجلدين ضخمين وبحثا في

مدرسة نصيبين، وكتب مقالات تاريخية عديدة نشرها في المجلات الفرنسية كما ونشر تاريخاً قديماً عربياً للكنيسة وضعه أحد أدباء النساطرة أسماه «تاريخ سعرد» نسبة إلى سعرد التي وجد فيها مخطوطته

هذا وهناك العديد من المؤلفين والكتاب والشعراء نشؤوا بهذه الفترة، وطبعوا الكتب القديمة ونشروا فوائدها بين الناس أمثال اسكندر الزغبي (الحلبي) وتوما تكتك التكليفي وداود كورا والقس دوميانوس كونديرا الراهب الألقوشي (ت ١٨٥٥) وغيرهم[١٣٠].

مسيحيو العراق في عهد الحكم الوطني

أ ـ الحقبة الملكية ١٩٢١ ـ ١٩٥٨

بقي العراق تحت الحكم العثماني زهاء أربعة ـ قرون وكان في هذه الفترة مبدانا للاضطرابات الداخلية والخارجية لأنهم لم يفكروا في توحيد رغبات شعبه ولا في وسائل تهذيبه، بل سعوا لتمزيق شمله وتضعيف القومية العربية وتطبيق سياسة التريك، إلا أن شباب العراق والشام والحجاز شرعوا في النهضة والثورة على الحكم الاستبدادي مطالبين باستقلال العرب حتى قامت الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ ـ ١٩١٨) التي بانتهائها دخل الجيش البريطاني بغداد (في ١١ آذار ١٩١٧) وحرّروا العراق، إلا أن الإدارة بقيت بيد السلطات العسكرية البريطانية التي قامت بإصلاحات عمرانية إلى يوم تتويج الملك فيصل الأول على عرش العراق يوم ٢٣ آب ١٩٢١ وإعلان «المملكة العراقية».

لم يقع في عهد الاحتلال البريطاني ولا عهد الحكم الملكي ما يعكّر صفوة الوحدة العراقية، فقد عاش المسيحيون بين مواطنيهم على اختلاف أديانهم وتباين مذاهبهم، مسالمين متحدين، ولم يتخلفوا عن مباراتهم في سائر

---

(١٢٨) راجع أخبار كل الذين ذكرناهم أعلاه في كتاب «تاريخ نصارى العراق» لروفائيل بابو إسحاق، وكتاب الأب البير أبونا، أدب اللغة الآرامية، وكتابنا «مسيحيو العراق»...

الأمور المادية والمعنوية، بل كانوا ولا يزالون يخدمون الوطن ويرفعون منار المعارف ويمهدون وسائل التهذيب.

إن مسيحيي العراق مبثوثون في أنحائه، وهم يتمتعون بحرية تامة في عقائدهم وعباداتهم يظللهم الأخاء الوطني الذي حافظوا عليه في كل مكان وفي كل زمان.

إن مسيحيي العراق وأهله متحدون ليبنوا مستقبلهم على أساس وطنهم العراق، ويساهموا في النهضة الوطنية التي لاحت تباشيرها من شمال البلد إلى الجنوب ومن شرقه إلى غربه. ولقد ناضل المسيحيون العراقيون عن الحكم الوطني وساندوا النهضة العربية ونادوا برأيهم على رؤوس الإشهاد، فإذا هو رأي لا يشوبه طابع إقليمي أو طائفي. وكفانا شهادة ما قدموه من ثمار نتاجهم العلمي والثقافي إلى جانب مواطنيهم المسلمين حيث تجمعهم الغاية الواحدة هي رفع شأن العراق وإسعاده، ذلك يعمل في دائرته وبحسب قابلياته فالواجب يدعوهم إلى العمل الواحد يداً بيد لبناء وتشييد البلد ليزدهرفي سلم الرقي والتقدم فيه يوماً بعد يوم.

ومن أشهر الأدباء والمؤلفين الذين عرفوا في هذه الفترة المطران الكلداني إيرميا طيمثاوس مقدسي (ت سنة ١٩٢٩م) الألقوشي، ترهب في دير الربان هرمزد عام ١٨٠٤م وأرسله رؤساؤه إلى روما وبجدّه برع في كل أنواع المعارف ونال درجه الملفنة في الفلسفة وعلم الفقه الكنسي (اللاهوت) ثم رجع إلى ديره كاهناً، وطفق يدرّس رهبانه اللاهوت النظري والأدبي والمنطق، وفي عام ١٨٩٢ سيم مطراناً على أبرشية زاخو، ووضع عدة كتب باللغة الكلدانية في المنطق، ونظم قصائد في الدين والأخلاق والتاريخ.

ومنهم المطران بطرس عزيز الكلداني (ت ١٩٣٧) نشأ في الموصل وتلقى علومه الأولية في مدرسة الآباء الدومنيكيين، وأُرسل إلى روما ونبغ في الفلسفة واللاهوت وتعلم عدة لغات شرقية غربية وعاد كاهناً إلى وطنه، فأقيم عام ١٩١٠

مطراناً على سلماس الإيرانية، وانتدب إلى روما وألقى هناك مواعظ ومحاضرات وفي ١٩٢٩ انتخب مطراناً لابرشية زاخو، ووضع عدة رسائل باللغة الآرامية بيد أن أكثر مؤلفاته باللغة العربية منها كتاب المنطق والفلسفة النظرية والطبيعية وكتاب أسرار الكنيسة، وكتاب تقاليد النساطرة واليعاقبة في رئاسة الأحبار الرومانيين، ونشر مقالات كثيرة في مجلة المشرق البيروتية وغيرها من المجلات.

ومنهم البطريرك السرياني أغناطيوس إفرام الثاني رحماني (ت ١٩٢٩) ولد في الموصل عام ١٨٤٩، وتلقى دروسه الأولى في مدرسة الآباء الدومنيكان، أرسل إلى مدرسة انتشار الإيمان في روما، ونال شهادة الملفنة في الفلسفة واللاهوت. وفي سنة ١٨٩٨ نودي به بطريركاً فكان من علماء عصره، غزير المادة، واسع العلم، وافر الذكاء يحسن أكثر من اثنتي عشرة لغة شرقية وغربية، وقد برع في علوم الطقوس الكنسية.

أما مصنفاته وما ترجم ونقح من الكتب فقد تقارب الخمسين أغلبها في الدين واللاهوت والتاريخ، ومن أشهر مؤلفاته العربية:

١ ـ مختصر التواريخ المقدسة.

٢ ـ التواريخ القديمة.

٣ ـ تاريخ القرون الوسطى.

٤ ـ الطقوس البيعية.

٥ ـ سير القديسين.

ومن كتبه غير العربية: معجم سرياني يحتوي على الألفاظ التي أهمل ذكرها في المعاجم الكبيرة ثم شرحها باللاتينية، وكتاب (عهد ربنا) بالسريانية واللاتينية. وقصائد مار إفرام والسريانية واللاتينية) ومناشير بطريركية (بالعربية والفرنسية).

ومنهم الأب انستاس ماري الكرملي (ت ١٩٤٧) نشأ في بغداد وانخرط في سلك تلاميذ مدرسة الآباء الكرمليين، وفي سنة ١٨٨٦ عيّن مدرساً في صفوفها وهو لم يتجاوز السادسة عشرة من عمره، ثم رحل إلى سفرموت في بلجيكا، وأتمّ دراسته اللاهوتية في مونبليه في فرنسا. وفي سنة ١٨٩٤ رقي إلى درجة الكهنوت، وفي خلال الحرب العالمية الأولى نفاه العثمانيون إلى الأنضول. وفي سنة ١٩٢٠ انتخب لعضوية المجمع العربي في دمشق. وفي عام ١٩٣٢ اختاره مجمع فؤاد الأول للغة العربية في مصر ليكون عضواً فيه، وقد منحته الحكومة البريطانية وساماً ولقب النبيل (MBE) ما منحته وسام أوفيسيه دكادمي Officier d'academy.

كتب العلامة الكرملي في أكبر المجلات العربية مقالات تنبئ عن تضلعه من لغة العرب، ووقوفه على فنون الكتابة، هذا فضلًا على سعة اطلاعه وعلو كعبه في اشتقاقاتها. وقد أصدر مجلة (لغة العرب) فكانت في مقدمة المجلات الراقية التي تعنى بالشؤون العلمية واللغوية. أما مؤلفاته فكنز لا يثمن ومعين لا ينضب، ومن أنفس كتبه المطبوعة:

١ ـ نشوء اللغة العربية ونموها واكتهالها.

٢ ـ نخب الذخائر في أحوال الجواهر.

٣ ـ أغلاط اللغويين الأقدمين.

٤ ـ أديان العرب.

٥ ـ النقود العربية وعلم النميات.

٦ ـ تذكره الشعراء.

٧ ـ جمهرة اللغات.

٨ ـ مختصر تاريخ العراق.

٩ ـ المعجم المساعد (خمسة أجزاء) نشر منها جزآن.

هؤلاء وغيرهم كانوا من زعماء النهضة الأدبية العراقية وقفوا حياتهم لتثقيف الشعب وخدموه خدمات جليلة بمصنفاتهم الثمينة ورسائلهم البليغة أمثال الأساتذة الصحفي داود صليوا، وفرنسيس أوغسطين جبران، ورزوق عيسى والدكتور سليمان بك غزاله، والبطريرك إفرام برصوم وغيرهم كثيرون.

الفصل الثاني

مستقبل المسيحية في العراق

توطئة:

إن الموضوع المبسوط على البحث شاق وشائك، صعب معالجته لدقته وحساسيته التي يجب أن تتوفر فيه الحكمة. والانتقاء، ولذا لا بد من جملة طروحات إيضاحية مركزة، ولأنه لا يمكن قراءة مستقبل المسيحية في العراق إلا في ضوء تاريخها وتاريخ أبنائها، لذا فلا بد من الرجوع إلى التاريخ الطويل الذي قطعته مسيحية العراق في دروب الحضارة والنشوء والتكامل والتجلي لكيما ترسم بخطوط عريضة وواضحة المعالم إرث ذلك الزمن القديم فتصل إلى رسم الخطوط ذاتها للمستقبل الجليل الجديد.

إن مسيحية العراق لا يمكن فصلها عن مسيحية البلدان المجاورة، سورية ولبنان، الأردن وفلسطين وغيرها، كما لا يمكن نسيان المسيحيين العراقيين في المهجر والاغتراب منذ قرن وأكثر ولا سيما في الفترة الأخيرة منذ الخمسينات وإلى وقتنا الحاضر، وبالأخص بعد الحروب الثلاثة: الحرب مع إيران، وغزو الكويت وما أنتجه وحرب السقوط الأخيرة.

كذلك لا بد من النظر في مساواة جميع المسيحيين العراقيين ما دام لهم

تاريخ واحد ضمن وطن واحد عاشوا السرّاء والضرّاء مع كل أبناء الرافدين المسلمين وسائر المذاهب والقوميات متسلوون في الحقوق والواجبات أيام الحكم الملكي (الوطني) رغم الفجوات والثغرات التي كانت تظهر في فترات مختلفة فيها الظلم والاعتداء على الأحوال الشخصية اللازم مراعاتها في كل الأوطان بدستور منصف واحد وعدالة شاملة وقانون بنظام إنساني رصين.

أكيد ليس من السهل قراءة المستقبل ـ فلا أنا فوّال ولا فتّاح فال ـ حتى إذا ما ظهرت الصورة واضحة المعالم للمستقبل الآتي، فالمستقبل هو ثمرة الحاضر إذا كانت الشجرة صالحة وإلا فكل شيء باطل سيما إذا كنا نحلم بالتأملات الضبابية دون اختبارات، ومعاناة معيوشة ممزوجة بالألم والأمل.

بدءاً أريد أن أقول أن بحثنا هذا ليس له أي هدف سياسي رغم كل الانعكاسات السياسية التي قد يمكن أن تدور حوله، منه وله، لأن عالمنا الراهن بإيجابياته المجهولة وسلبياته المعلومة ومع ذلك فلا بد من طرح الموضوع من كل الجوانب لأنه بمثابة المفتاح لمغاليق الأيام بصورة وجهات نظر فتكون سطوري إشارات وومضات نورانية راجين أن يمدّ كل المختصين ومن يهمهم الأمر أن يفيدوننا بما لديهم من إيضاحات ومقترحات لأن القضية جوهرية لكل المسيحيين في العراق الحبيب.

(١)

إن مسيحية الأجيال الأولى للكنيسة في العراق كانت على مذهب واحد أو إثنين (النسطورية واليعقوبية) إلا أنها ـ اليوم ـ أصبحت مجموعات مختلفة متباينة قد تتناقض الواحدة مع الأخرى وهذا أمر طبيعي، أقله أربع مجموعات كبيرة: النسطورية واليعقوبية والكاثوليكية والبروتستانتية، فصارت متجزئة متضادة فيما بينها متناحرة في البعيد الماضي غير السحيق، وعلى المدى القريب حيث نجد هذه الأربع تتقاسم فيما بينها وفيها على الشكل التالي:

النسطورية إلى كنيستين القديمة والجديدة.

اليعقوبية (الأرثوذكسية) في الهند والشرق الأوسط.

الكاثوليكية: السريانية والكلدانية.

البروتستانتية: الانجيليون، السبتيون، المشيخيون، اللوثريون، الانكليكان، وعدد كبير من الكنائس الصغيرة مثل: كنيسة الله، كنيسة الإنجيل، كنيسة يسوع، كنيسة المسيح وغيرها، إضافة إلى شهود يهوه والمورمون.

هذا الانشطار بتجسدات مختلفة أصبح لكل قراءته وطروحاته وطموحاته إلى حيث التشتت والتهامش يرفضها الشرقيون الأصيلون ويثيرها الغربيون تحت طائلة الانفتاح والتجدد والتقدمية مع التطور وكلها تصبّ في المستقبل المجهول، حتى زعماء هذه الكنائس الكارتونية ينظرون إلى المسيح نظرة تجزئية وتفسيرية كان لكل عصر ومصر مسيح خاص به ونسوا أن المسيح هو بالأمس واليوم والغد، واحد واحد واحد.

(٢)

بحسب التاريخ ـ وكما أوضحنا في الفصل الأول هنا ـ دخلت المسيحية إلى عراقنا منذ العقود الأولى لظهور المسيحية، وعبرت إلينا من فلسطين باتجاهين أوثلاثة ـ سواء من أورشليم مباشرة ـ أو عن طريق شمال بلاد النهرين (انطاكية) وامتدت إلى العراق بسرعة ومنه إلى أقاصي الشرق (الهند والصين) ثم عرفت أن تتمركز في المدائن وحدياب وتكريت متخذة كراسي لها منذ القرن الرابع على الأرجح فعرفت بمجموعها باسم «كنيسة المشرق». ولدت من الأمم الواحدة «كرسي انطاكية» رغم نقولات المنادين بعدم الاعتراف بهذه الأم الكبرى واستنباط ادعاءات ونقولات تُرد إلى أصحابها لأنها ناتجة عن الكبرياء والتعالي والتنصل عن الأمة السريانية، كسريان أبناء الرافدين وما بين النهرين.

(٣)

لقد كانت المسيحية في العراق، بل في ديار المشرق كلها مسيحية تجسدت مسيحياً مشرقياً، فهي كنيسة واحدة لها خصوصيتها الخاصة ومن الطبيعي أن تتعمق مع الأيام مع بقاء الجوهر واحداً في مسيحية جميع الكنائس الأولى، ومضت إلى ذلك أربعة قرون على الأقل. كنيسة واحدة بتعليم واحد، إلا أن الشيطان لا ينام فبثّ الشقاق والانقسام بين البيت الواحد فكان ما كان، وهو الكائن إلى اليوم.

لقد عرفت التجزئة حتى التناحر بين الإخوة إثر تبني قسم من معلمي مدرسة الرها ومدرسة نصيبين متأثرين بالفكر اليوناني مذهب الطبيعة الواحدة. بينما فضّل الآخرون مذهب الطبيعتين في السيد المسيح واعتبروا المفسّر تيودوروس المصيصي معلمهم الأكبر. وساروا في خط تيودوروس وتيودوروس ونسطور حتى تكرّس الخط في مجامع رسمية، بينما مال القائلون بالطبيعة الواحدة إلى خط المونوفيزية الانطاكية، أفلّه منذ سويرا (سويريوس) ويعقوب البرادعي، فانقسمت مسيحية العراق إلى رئاستين: الكنيسة النسطورية في مدينة المدائن وتوابعها منشقة عن أنطاكية، والكنيسة اليعقوبية ومركزها مدينة تكريت تابعة لانطاكية. وواصلت مسيرتها كنيستين منقسمتين لا سيما منذ مطلع القرن السابع، واستمرت هكذا إلى القرن السادس عشر حينما وصلت إلى الشرق الإرساليات التبشرية (التخريبية) التي أتت لتبشر المسيحيين ببين النهرين بالكاثوليكية حيث انشطرت المسيحية في بلادنا إلى قسمين (رسميا عام ١٥٥٣) واتخذ القسم الذي عقد شركة ـ تامة مع روما اسم «كلدان» بينما تبنى القسم النسطوري اسم «آشوريين» لا سيما منذ أواسط القرن التاسع عشر. وعرف القسم السرياني الغربي بالكاثوليك منذ العام ١٦٦٢، بينما فضل القسم غير الكاثوليكي اسم سريان ارثوذكس (بدلاً من يعاقبة).

(٤)

وكان أن ظهر الإسلام، قبلته واستقبلته برضا تام، لا بل عملت على انتشاره ومن ثمّ رفعت ألوية الحضارة على مدى قرون عديدة في مساحات واسعة من أرضه بين حدود دولته بكل العهود التي مرّت عليها: الراشدي والأموي والعباسي الذي انتهى بسقوط بغداد (١٢٥٨م). وبحق نستطيع القول أن الحضارة العربية هي حضارة سريانية مسيحية.

أجل قبلت المسيحية المشرقية الإسلام الحنيف تخلصا من حكم الأجنبي الوثني (الفرس الزرادشتيين) واحتضنها الإسلام دين أهل الكتاب وعلى ذمة المسلمين، وقد اتسمت معظم سني القرون الأولى بتعايش مقبول، واستفاد المسلمون من قابليات المسيحيين العلمية بحيث قامت حركة ترجمة وعلوم أعطت حضارة زاهرة سوف تغني العالم بأسره، ولم تخلُ هذه الأزمنة على مختلف العهود من ظلال وأشواك:

نذكر هنا ثلاث ملاحظات كبرى:

الأولى: أن المسيحية في العراق خاصة، وفي ما بين النهرين عامة لم تتأثر سلباً بالإسلام، فلم تضمحل، ولم تنقص إلا في بعض مناطق، عل عكس ما حصل لمسيحية شمال إفريقية، وحتى لمسيحية مصر وسورية، إذ اكتسح الإسلام المسيحية هناك بحيث أنهاها وأضعفها كثيراً، بينما تحوّل «الوثنيون» في العراق إلى مسلمين، واحتفظ المسيحيون بدينهم عادة، وتنطبق الظاهرة هذه على كنائس التراث السرياني الأخرى النسطورية واليعقوبية إلى حدّ هذا اليوم.

الثانية، هي انحسار المدّ المسيحي بسبب تمركز الإسلام ديناً ودولة، دفع كنيسة المشرق وحرّكها صوب الشرق بدافع روحانيتها التبشيرية الرسولية والوثابة، فاندفعت وانطلقت بدافع روحها الوثابة إلى أقصى ديار المشرق وصولاً إلى الهند والصين وجنوب شرقي آسيا وإيران ـ اذهبوا إلى أقاصي الأرض ـ

وأفغانستان وتركستان، فبلغت هذه الكنيسة أكثر من عشرين مقاطعة كنسية كبيرة، على شكل مستوطنات مسيحية صغيرة أم كبيرة مثل هرات ومراغة وقندهار، ونحو ٢٥٠ أبرشية يرأسها أسقف أو مطران وألف دير كبير أو صغير للرجال والنساء، منذ فترة ما قبل الإسلام ولا سيما منذ الإسلام وحتى أوائل القرن الخامس عشر، مرجعها جاثليق (بطريرك) كنيسة المشرق، وكرسيه في المدائن ثم في بغداد.

والملاحظة الثالثة، إنه لولا جهود مسيحيي العراق لا سيما في بغداد العباسيين لم يكن للفكر والعلوم والترجمة والنقل أن تعرف الازدهار العظيم الذي عرفته بفضل آل بختيشوع وآل الخمّار وآل الرصافي، وبمارستان جنديسابور، ثم اشتغالات هؤلاء الأطباء في بغداد وبجهود يوحنا بن ماسويه وحنين بن إسحاق ومدرسته ودورها في حركة الترجمة والعلم، ومن أكبر خريجيها. ابنه اسحق وابن أخته حبيش بن الأعسم، ودور كتبة السريان في حقل المنطق والفلسفة والفقه أمثال يحيى بن عدي التكريتي وابن رائطة التكريتي أيضاً، وسوف يتوارث المسيحيون في العراق حتى أيامنا حب المعرفة والعلوم وتتسم كنيستهم بمسحة ثقافية واضحة المنهاج والأهداف، متميزة عن مسيحية الغرب المائلة نحو تمييع المناهج والأهداف، مسوقة نحو العلمانية المادية عكس مسيحيتنا الملتزمة بالروحانيات والقيم الإنسانية، فكلاهما تختلفان، فلاهوت مسيحيتنا المشرقية: ترفع الإنسان نحو العلاء للاتحاد بالله، أما مسيحية الغربيين فتنزل الله إلى الأرض لتشريحه بحسب هواهم، وهذا أمر يطول شرحه؟!

(٥)

بعد سقوط الدولة العباسية نزلت بالمسيحيين المشرقيين نكبة كبيرة وشدائد عصيبة مع تعدد النكبات والمصائب وحملات الاضطهادات المختلفة سيما في العهد المغولي الذي اتبع سياسة العنف الشديد الذي زعزع أركان البلاد والعباد سيما المسيحيين منهم فبدأت الأبرشيات تتقلص وتنتهي سيما البعيدة عن المركز

الجاثليقي وبذلك سرى الضعف في كنيسة المشرق بشقيها اليعقوبي الأرثوذكسي والنسطوري ـ لا بل اضطر الجاثليق نفسه أن يلجأ إلى شمال البلاد بعيداً عن مراكز السلطة المركزية وهكذا ابتعد المفريان عن تكريت إلى الموصل ثم بعدئذ إلى دير الزعفران، بعد أن كانا يجالسان الخليفة في دار الخلافة. ابتعدا إلى الأطراف ولم يعد لهما العلاقة الخاصة مع زعماء البلاد.

وحينما استلمت الدولة العثمانية دفة الحكم في بلادنا، رسخت النظام الإسلامي وبه رسخت فكرة الكنيسة بعنوان «الملّة» على رأسها سلطة دينية لها الحق في تطبيق ما يسمى بقانون الأحوال الشخصية إلى أن الحكم العثماني خاصة كرّس سياسة «الطوائف ـ الملل» ونزعة تعصب وتفرقة، فلجأت كنائس الشرق إلى «حماية» كنائس الغرب بطرق شتى، وتقدمت دول الغرب لحماية مسيحية الشرق، فكان ابتداء فكرة الاستعمار والاغتراب، واعتاد المسيحي الشرقي أن يعتمد كل الاعتماد، وفي كل شيء على الكنيسة ورجالها، ففقد شخصيته المدنية وأصبح اتكالياً لا يفكر في تكوين شخصيته المستقلة، ابناً مطيعاً وتابعاً للكنيسة ورؤسائها حيث اعتبرهم الساهرين على حمايته ومصالحه وتعمل على عيشه معيشة هادئة مقابل أن يدفع لها كل ما يملك من الأصفر الرنّان والأرض وحتى الجهود التي كان يقدمها مجاناً مقابل أيامه الهادئة.

واستمرت الحالة هذه ـ المضطربة ـ طوال فترة الحكم العثماني التي دامت أربعة قرون فضعفت الكنيسة وخسرت أبناءها تحت تأثير الملاحقة والتهديد والوعيد إضافة إلى السلب والنهب والعنف والإرهاب دون استقرار فشنّت عدة حملات مباشرة وغير مباشرة بشكل فتن عارمة كالتي حدثت في حلب عام ١٨٥٠ ولبنان عام ١٨٦٠ وعام ١٨٩٣ و١٨٩٥ وغيرها مما حمل أبناء الكنيسة على النزوح والاغتراب سيما مذابح عام ١٩١٥ التي عمّت مختلف مواطن المسيحيين في بلاد ما بين النهرين، فارتكبت بذلك الدولة العثمانية جرائم لا تغتفر سطرها التاريخ بأبشع الصور وأظلم السطور.

(٦)

انكسرت شوكة الدولة العثمانية، وخسرت الحرب (العالمية الأولى) عام ١٩١٨، فتقاسم الحلفاء بريطانيا وفرنسا وإيطاليا، إرث الرجل العجوز والمريض وفق مصالح سياسية واقتصادية وعسكرية، فنشأ حدود جديدة لبلدان جديدة بقوميات جديدة ومنها الوطن العربي الذي قسموه إلى أقطار متجزئة، وبذلك تجزأت الأمة الواحدة إلى شعوب متخاصمة ضاربين مصالح الأمة عرض الحائط.

وأقرّت معاهدة سيفر (Sevres) في ١٠ آب ١٩٢٠ حق الأرمن في إقامة دولة وطنية بحسب المادة (٨٨)، وللأكراد (المادة ٦٤) وحصانات تامة لحماية الأشوريين ـ الكلدان والأقليات القومية والدينية، الأخرى (المادة ٦٢)، ولكن، كما لم ينصف الحلفاء العرب في إنشاء دولة عربية موحّدة مخالفين وعودهم للشريف حسين بن علي، هكذا جاءت معاهدة لوزان (٢٤ تموز ١٩٢٣) ناكرة الالتزامات المبرمة، فضمّت ارمينية التركية إلى تركيا، وتركت مسألة الموصل لعصبة الأمم بسبب تنازع الأتراك والإنكليز عليها، حتى أقرّ مجلس عصبة الأمم عام ١٩٢٥ ضمّ ولاية الموصل إلى العراق الخاضع للانتداب البريطاني، وجرى تقسيم كردستان في ثلاث دول (تركيا، العراق، سورية)، إضافة إلى أكراد إيران والاتحاد السوفييتي (سابقاً).

(٧)

هكذا ولد العراق الجديد الذي لم يكن يوماً بحدوده الحالية، بل كان أكبر، متبوعاً وليس تابعاً حيث اقتطعت من أرضه مساحات ليست بالصغيرة، ذلك العراق الذي نشأت فيه أول حضارة بشرية عالمية، وعرف أهلوه أعظم الاختراعات الإنسانية والمكتشفات العلمية مع الابتكارات الصناعية والزراعية، وقامت على أراضيه أدوار سياسية وثقافية واقتصادية من أهم ما عرفت البشرية، (السومريون والأكديون والبابليون الأموريون، ثم الأشوريين والكلدانيين وأخيراً

العرب) ورغم كل هذه الاعتبارات البديهية ولد العراق الجديد، ولادة عسيرة إن لم أقل ولادة قيصرية في ظل انتداب بريطاني، وقد مثلت ثورة ١٩٢٠ انتفاضة شعبه الكبرى بكل مكوناته للتخلص من الاحتلال، وبذلك يعتبر أول قطر عربي ينتفض ويتحرر، حيث تقرر مصير العراق في مؤتمر القاهرة (١٢ آذار ١٩٢١) ونودي بالأمير فيصل بن الشريف الحسين ملكاً في ٢٩ حزيران ١٩٢١ والذي نصب ببغداد يوم ٢٣ آب ١٩٢١، وبعد جهود مضنية قُبِل العراق عضواً في عصبة الأمم في ٣ تشرين الأول ١٩٣٢م، وبوفاة الملك فيصل الأول فقد العراق عاملًا كبيراً في تحقيق التوازن الوطني، وقد تمتع المسيحيون بفترة هذا العاهل باحترام وتقدير كبير، فمثلًا كان البطريرك عمانوئيل توما الثاني الكلداني عضواً دائماً في مجلس الأعيان والدكتور حنا خياط السرياني أول وزير للصحة في العراق، والسيد يوسف غنيمة الكلداني وزيراً للمالية عدا الموظفين الكبار في أغلب وظائف الدولة الفتية.

وشهدت فترة حكم ابنه الملك غازي (١٩٣٣ ـ ١٩٣٩) اضطرابات عشائرية وانقلابات عسكرية، فتضعضعت الشؤون الاقتصادية والسياسية ولا سيما أحوال المسيحيين الذين وجهت إليهم التهم المختلفة فشددت حولهم القيود والمراسيم القاسية، إلّا أنها كانت كغمامة صيف ما فتئت أن انقشعت وكشف القناع عن وجوه الحاقدين سيما في فتنة الآشوريين التي افتعلها الذين بنفوسهم مرض.

(٨)

لقد كان حلم جمعية «تركيا الفتاة» ذات السياسة الشوفينية المتعالية، إخضاع جورجيا وأذربيجان وارمينية للحكم التركي العنصري، كما أنها كانت تنظر بعين الريبة إلى الأشوريين الذين في منطقة جبال حكاري وأورمية، بل قد تهدد وجود المسيحيين الذين في أورمية بعد انسحاب القوات الروسية عنها عام ١٩١٧ واضطر العديد منهم إلى النزوح إلى مناطق أخرى.

أما أثوريو حكاري فكانوا يعيشون في ظل حكم شبه مستقل على شكل إمارة أو مملكة شبه مستقلة، دافعوا عنها حتى سنة ١٩١٥ حين نشبت معارك بينهم وبين الأكراد، فتشتت بعضهم، لا سيما في أذربيجان. واشتد الضيق عليهم، حين أعلن السلطان العثماني وأنور باشا الجهاد ضد المسيحيين، فهلك ثلثهم على أقلّ تقدير ثم تمّ تقسيم الامبراطورية العثمانية إذ لم تعد قادرة على حماية حدودها، فتحددت مناطق النفوذ الخاصة، بكل دولة من دول الحلفاء (عام ١٩١٦) وهادن الأثوريون الروس، ثم الانكليز الذين نظموهم عسكرياً وسمّوهم الحليف الصغير، لكنهم سقطوا ضحية غدر عام ١٩١٨ بعد تشكيل الجبهة العراقية وحدات عربية وتركية وتركمانية بينما ظلت الأقليات تحت اللواء البريطاني، فاستخدمهم في الجيش «الليفي» الانكليز حتى ضد المواطنين الآخرين، حتى إذا كانت أحداث ١٩٣٣ المشؤومة، فهلك الكثيرون ضحية غدر آخر.

واعترف الحكم الجمهوري (عام ١٩٥٨) بحقوق الأقليات، وكرست ثورة ١٧ ـ ٣٠ تموز هذه الحقوق، فصدر قرار ١٦ نيسان ١٩٧٢ بمنح الحقوق للناطقين باللغة السريانية على اختلاف لهجاتها، وكان قد صدر قبله بيان ١١ آذار في صالح الأكراد.

(٩)

إحصائيات عامة:

ما إن استقرت الأوضاع في المملكة الفتية حتى أعلن عن تحقيق إحصاء نفوس البلاد عام ١٩٣٥ حسبما جاء في الدليل الرسمي للعراق والصادر تحت عناية وإشراف وزارة الداخلية الذي يذكر أن في العراق ثلاث قوميات: العرب، الأكراد، الترك (المقصود التركمان) يمثل العرب ٧٩ بالمائة، والأكراد ١٦، والفرس (مع أنهم لم يذكروا قبل أسطر) ٢,٧٥، والترك (التركمان) ٢,٢٥،

(ويضيف الدليل: يتكلم الغرب باللغة السامية (أي العربية)، والأكراد باللغة الآرية، والترك بالطورانية، ويسكن الأكراد في المنطقة الجبلية من الشمال الشرقي، والعرب في بقية أنحاء البلاد، والترك في المنطقة الفاصلة بين الأكراد والعرب (ص٤٤) ولا ذكر للمسيحيين، فإلى من ينتمون؟؟ أما النساطرة والأشوريين فلم يذكرهم الدليل الآنف الذكر، بسبب القتال الذي دار بينهم وبين الحكومة قبل ثلاث سنوات من صدور الدليل الرسمي المذكور وإسقاط الجنسية العراقية عن معظمهم، وتسميتهم بالآشوريين، بعد مطالبتهم بحقوق قومية، فتمّ الاستيلاء على كنائسهم وأديرتهم التي كانت خاصة بالكنيسة المشرقية قديماً. وبعد عودة البطريرك مار شمعون إلى العراق في نيسان ١٩٧٠، بعد أربعين سنة من النفي أصدرت وزارة الداخلية، أمراً يفيد «بإعادة الكنائس المستولي عليها وتسليمها إلى الكنيسة المشرقية». وقد تعرض الآشوريين إلى مذابح شرسة، منها مذبحة سميل، التي قادها الفريق بكر صديق الكردي صاحب الانقلاب المعروف في الثلاثينات، وهو أول انقلاب عسكري قام في البلاد العربية.

قال ناجي شوكت (رئيس وزراء سابق وشاهد على ما حدث): «كان الملك فيصل قد غادر العراق إلى لندن في الخامس من حزيران (١٩٣٣)، تلبية لزيارة رسمية، وجهها إليه ملك بريطانيا، وفي اثناء غيابه وقعت حادثة الأشوريين الشهيرة، واضطرته للعودة إلى العراق في الثامن من آب» (عن شوكت ـ سيرة وذكريات ثمانين عاماً، ص٢٣٤) ونقل رئيس الوزراء المذكور أن فيصل الأول قال له بعد قطع زيارته للندن: «أبقيت ولدي غازي وهو شاب لم تصقله التجارب، كما أن الوزراء الذين بقوا في بغداد لم يقدروا الوضع الدولي، فتصرفوا متأثرين بنوازع دينية وقومية، ولم يضبطوا أعصابهم» (المصدر نفسه ص٢٣٤ ـ ٢٣٥).

وحسب الدليل العراقي لعام ١٩٣٦ للسريان الأرثوذكس ٢١ أبرشية، ثلاث منها في العراق، اثنتان مطرانيتان في الموصل ودير مار متّى، وواحدة نيابة بطريركية رسمية ببغداد والبصرة. وعدد كنائسهم ١٧ كنيسة ودير واحد. وحتى

السبعينات كانوا يتوزعون على بغداد والبصرة وكركوك وسنجار وقرى: برطلة، وقره قوش، وبعشيقة وبحزاني وعددهم آنذاك كان زهاء اثني عشر ألفاً. (العاني، الموسوعة العراقية الحديثة).

قلنا، لم يتحدث الدليل العراقي الرسمي عن المسيحيين ولا قوميتهم إذ لا يتحدث عن الأديان والمذاهب فيقول: «يدين أهل العراق بثلاثة أديان هامة هي: الإسلامية والمسيحية واليهودية وهناك طوائف صغيرة تدين بأديان أخرى كاليزيدية والصابئة. والدين الإسلامي أكثر الأديان انتشاراً بين السكان، وهو الدين الرسمي للحكومة يدين بـ ٩٤ بالمائة من مجموع السكان (ص٤٥).

ويظل الجواب ناقصاً، لا يتطرق إلى قومية المسيحيين؟ فهل ينتمي المسيحيون إلى قومية معينة، أم إلى القوميات الثلاث بحسب المناطق؟ صحيح أن القومية شيء والدين شيء آخر، إنما يزداد الأمر تعقيداً عندما يتطرق الدليل إلى (الطوائف العراقية) فنقرأ:

«يتألف الشعب العراقي من عرب وأكراد وتركمان وأقوام أخرى بعضها من أقدم الأمم التي عرفها العراق وبعضها نزح إليه في العصور القريبة وفي الأيام الأخيرة ومن أولئك السريان والكلدان والأشوريين وهذه العناصر والأقوام كلها بالنظر إلى وحدة أصلها تذوب في القومية العراقية وفي ظل الوحدة العراقية، ينعم أصغر العناصر كما ينعم بها أكبرها وأضخمها.

١ ـ في العراق مسلمون ومسيحيون وإسرائيليون ويزيديون وصابئة وعدد قليل من البهائية والمجوس، والحرية الدينية مكفولة بالدستور العراقي ومضمونة بالعقد الاجتماعي الذي احترمه العراقيون منذ أقدم الأزمنة وإلى اليوم، فيقوم الجامع إلى جانب الكنيسة والمعبد ويمتزج صوت المؤذن بالناقوس والتسبيح والترتيل، وشعارهم الدين لله والوطن للجميع، وليس للمسلم أو المسيحي أو اليهودي سمات تميز الواحد عن الآخر، إنما هم أبناء أرومة واحدة وسلالة شعب مختار هو الشعب العراقي.

وفي العراق عدة لغات هي العربية والكردية والسريانية والتركية والأرمنية، ولكن اللغة العربية هي أمّ للجميع ولسان الكل وأبناء العناصر المكوّنة للعراقيين يتعلمونها باعتبارها لغة الوطن الواحد (العراق) ولغة العلوم والسياسة والتجارة، ومع ذلك تحترم لغات العنصرين الكردي والتركماني في المناطق الشمالية كلغتين رسميتين في المحاكم والمدارس، وما تبقى من اللغات العراقية: شائع في أوساط صغيرة وفي المعابد والكنائس وبعض المدارس غير الرسمية.. أما اللغات الأوروبية فهي شائعة في العراق... (ص٧٢٢ من الدليل العراقي الرسمي لسنة ١٩٣٦).

الواضح من هذا الكلام، رغم ارتباك مفاهيمه وتسمياته، ما يأتي:

١ ـ إن العرب والأكراد والتركمان يشكلون «قوميات» العراق، وأن اللغة العربية في مقدمة لغاته، وجميع «العناصر» و«الأقوام» التي في العراق تذوب أو تنصهر في بوتقة «القومية العربية» وأن العراقيين جميعاً أبناء أرومة واحدة وسلالة شعب مختار.

٢ ـ إن السريان والكلدان والأشوريين هم من أقدم الأمم التي عرفها العراق، وأن لغتهم شائعة في أوساط صغيرة (في المعابد وبعض المدارس غير الرسمية) ولدى الناطقين بها.

٣ ـ إن أصغر العناصر وأكبرها وأضخمها تنعم في العراق في ظل الوحدة العراقية سواء بسواء، وإن الحرية الدينية مكفولة بالدستور ومضمونة بالعقد الاجتماعي المتوارثة وأن الشعار المرفوع هو الدين لله والوطن للجميع. (عن مقالة الأب يوسف جلي المنشورة في مجلة بين النهرين، السنة ٢٣ (١٩٩٥) العدد ٩١ ـ ٩٢، ص).

ولا يتبع الدليل الرسمي منهجية دقيقة، إذ يتحدث حالًا عن (رسالة الآباء الكرمليين في العراق)، ثم عن (الطائفة الاسرائيلية) و(السريان الأرثوذكس)

و(السريان الكاثوليك)، (الصابئة)، و(الطائفة الكلدانية)، و(اليزيدية). ولدى تحدثه عن (السريان الأرثوذكس) يقول:

هم إحدى سلائل الأسرة السامية العظيمة التي استوطنت بلاد العراق وبين النهرين وما جاورهما، منذ أقدم العصور القديمة، واعتنقوا المسيحية في فجر النصرانية، وكان لهم امتداد حضارة وأدب ودين في الشرق، واستمر أجيالاً طويلة (كذا)، ثم أخذ بالتقلص مما انتاب البلاد من الأحداث العالمية، وعلى الأخص عقيب انحلال الدولة العباسية. وهم اليوم متفرقون في ما سوى العراق، في تركيا وسورية، وفلسطين ومصر والهند وأمريكا» (ص٧٣٣) ويمكن تعميم هذا القول على المسيحيين الآخرين. إنما ما يلاحظ أنه لا ذكر للآثوريين والمسيحيين الآخرين لدى تفصيل الطوائف.

وهنا يهمنا الاحصائيات التي يقدمها الدليل الرسمي:

١ ـ الكلدان: ٩٨,٨٠٠ ألف نسمة، موزعون في بغداد (٢٠٠٨٥) والموصل (٤٦٩٩) والبصرة والعمارة والكوت (٧٠٠٠) وزاخو ودهوك (١١١٤٦) والعمادية (٥٩٨٥) وكركوك (٩٦٨٥) وعقرة (٢٤٠٠)... وفي أنحاء العالم: ٦٤٠,٠٠٠ نسمة تقريباً (ص٧٤٢ ـ ٧٤٣).

٢ ـ السريان الأرثوذكس: في العراق زهاء اثني عشر ألف نسمة، وفي كل الأقطار نحو ستمائة ألف نسمة (ص٧٣٤).

٣ ـ السريان الكاثوليك: في العراق نحو الخمسة والعشرين ألفاً في الشمال نحو ٢٠ ألف، والباقي موزعون في أواسط العراق وجنوبه (ص٧٣٦).

علماً بأن عدد سكان العراق كان يومذاك (عام ١٩٣٦) أكثر من أربعة ملايين نسمة (ص٤٤).

جاء في تاريخ التعليم في العراق في عهد الاحتلال البريطاني (١٩١٤ ـ ١٩٢١) لعبد الرزاق الهلالي (بغداد ١٩٧٥) أن عدد نفوس العراق عام ١٩١٩

هو ٢,٨٤٩,٢٨٢ نسمة، وعدد المسيحيين ٧٨,٧٩٢ موزعين (٢٠٧٧١ في ولاية بغداد، ٢,٥٥١ في ولاية البصرة، و٥٥,٤٧٠ في ولاية الموصل ـ ص١١ ـ ١٢).

وبحسب كورباج وفارج: عدد مسيحي العراق عام ١٨٩٤ هو ٣١,٧٧٥ نسمة يشكل ٢,١٦ بالمائة من مجموع السكان، وسنة ١٩١٤: ٣٢,٤٩٣ نسمة (٢,١٦ بالمائة) وسنة ١٩٤٧: ١٥٦,٢٥٨ وبالنسبة ٣,٢٤ بالمائة (ص٣١٥ ـ ٣١٦).

ويقدم لنا المؤلفان المذكوران إحصائية شاملة للعراق عامي ١٩٤٧ و١٩٦٥:

١ ـ عام ١٩٤٧: نفوس العراق ٤,٨١٥,٤٦٦، المسيحيون ١٥٦,٨٥٢ موزعون في بغداد ٣٧,٥٩٠، الموصل (نينوى) ودهوك ٧٧,٣٨٧، البصرة ٨,٨٦٨، ميسان ٣,٤٠١، كركوك ٧,٨٠٨، بابل ٨,٠٥١، الأنبار ١٠,٤٨٩ والبقية في المحافظات الأخرى.

٢ ـ وعام ١٩٦٥: عدد نفوس العراق الكلي ٨,٠٤٧,٤١٥، وعدد المسيحيين ٢٤٨,٧٣٧، موزعون في بغداد ١٢٧,١٤٠، نينوى ودهوك ٦٩,٠١٤، ذي قار ١,٨٣٥، البصرة ١٥,٩٢٩، ميسان ٢,٦١٥ كركوك ١٣,٩٦٠، كربلاء ١,٢٠٧، بابل ٨,٧٣١، السليمانية ٢,٤٠٢، الأنبار ٣,٩٥٨، والبقية في المحافظات الأخرى (ص٣٢٤).

٣ ـ قدر عدد المسيحيين العراقيين العام (١٩٧٥) بنصف مليون نسمة، موزعين على النحو التالي: الكلدان الكاثوليك، وهم الأغلبية (٣١٦) ألف نسمة، لديهم بطريرك واحد، تسعة أساقفة، ٩٤٠ كاهناً مائة كنيسة و٣٠ ديراً.

وبلغ الأشوريون النساطرة (٨٢ ألف نسمة) لديهم: بطريركان، أربعة أساقفة، و٣٤ كاهناً، ٣٨ كنيسة، وعشرة أديرة.

السريان الكاثوليك (٤٠,٥٠٠ نسمة) لديهم أسقفان، ٣٥ كاهناً و١٩ كنيسة وستة أديرة.

وعدد السريان الأرثوذكس (٢٩,٧٠٠ نسمة) لديهم أسقفان و١٦ كاهناً و٢٠ كنيسة وأربعة أديرة.

وقدر الأرمن الأرثوذكس بـ (١٩ ألف نسمة) لديهم: أسقف واحد، ستة كهنة، ست كنائس وديران.

واللاتين الكاثوليك (٣٥٠٠ نسمة) لديهم أسقف واحد و١٨ كاهناً وثلاث كنائس وستة أديرة.

والأرمن كاثوليك ٢١٨٠ نسمة، لديهم أسقف واحد وثلاثة كهنة، كنيستان.

وعدد البروتستانت (١٥٠٠ نسمة) لديهم أسقف واحد وكاهن واحد وثلاث كنائس.

والأقباط (١٥٠٠ نسمة) لديهم كاهن واحد وكنيسة واحدة.

وسبتيون (١٥٠٠ نسمة) لديهم كاهن واحد وكنيسة واحدة[1].

غير أن تقرير مديرية الأمن العامة، عدّهم وفقاً لإحصاء (١٩٧٧) بما هو أقل من هذا بكثير وأقل بكثير أيضاً من التصورات الحالية التي قدرتهم بثلاثة أرباع المليون. إذ عدّهم التقرير المذكور بـ(٢٥٣,٤٧٨) نسمة، وأورد عددهم الكلي حسب الاحصاءات السابقة (١٩٤٧، ١٩٧٥، ١٩٦٥) على التوالي (١٤٩,٣٧٧)، (٢٠٤,٢٢٦)، (٢٣٢,٤٠٦) نسمة (مديرية الأمن العامة التوزيع الدينين للسكان العراقيين، ص٢٦).

٤ ـ وتفيدنا إحصائية مجلة «الفكر المسيحي» للعام ١٩٧٧ وقبل التعداد

(١) رشيد خيون، الأديان والمذاهب بالعراق، ص١٩٧ ـ ١٩٨.

السكاني العام بقليل، إن عدد مسيحيي العراق (٥٠٠,٠٠٠) نصف مليون، وموزعون هكذا:

الكلدان ٣١٦,٦٠٠ نسمة، الأثوريون ٨٢,٠٠٠ نسمة، السريان الكاثوليك ٤٠,٠٠٥ نسمة، اللاتين ٣,٥٠٠ نسمة، الأرمن الكاثوليك ٢,١١٨ نسمة، البروتستانت ٢,١٧٥ نسمة، الروم الأرثوذكس ١,٤٥٠ نسمة، الأقباط ١,٥٠٠ نسمة، الروم الكاثوليك ٥٠٠ نسمة، السبتيون ١,٥٠٠؟ (ص٣١٥) ويشكل بذلك المسيحيون ٤ بالمائة من مجموع السكان البالغ عددهم نحو ١٢ مليون نسمة، إنما ليست لدينا إحصائيات رسمية دقيقة.

٥ ـ وتزداد الأرقام قليلًا أو تنقص بحسب تقديرات شتى، لكنها تتلخص في أمور ثلاثة:

١ ـ أن نسبة المسيحيين قد ازدادت منذ أواخر القرن الماضي (التاسع عشر) وحتى التسعينات من القرن العشرين.

٢ ـ إن الحكومات العراقية المتتالية لا تعترف ولا تقرّ بهذه الزيادة إنما تحاول دائماً أن تقلّل نسبتهم لاعتبارات سياسية كما جاء في كتاب عبد الرزاق الحسني «العراق ماضياً وحاضراً» (إن الدولة العراقية لا تعترف بنسبة سكان العراق الحقيقية، (عشرة بالمائة) وذلك لاعتبارات سياسية منها عدد النواب في مجلس البرلمان وعدد الوزراء وغيرها من الوظائف العامة) وما زالت الحكومات المتعاقبة على موقفها.

٣ ـ إن عدد الذين تركوا العراق منذ الثمانينات ولا سيما بعد حرب الخليج الأولى هو كبير، وما تزال موجة الرحيل قائمة مما يشكل خطراً على الحضور المسيحي في بلادنا وتقديرنا الحالي أن في العراق نحو ٨٥٠ ألف مسيحي (٧٠ ـ ٧٥ بالمائة كلدان) وإن عدد الذين تركوا العراق منذ التسعينات إلى حدّ اليوم (سنة ٢٠١٠م) نحو ثلاثمائة ألف نسمة.

من هنا جاء سؤال مزدوج، أصحيح أن المسيحية في العراق ستبقى أم أنها سائرة نحو الانحسار والتلاشي، وما سبب أو أسباب ذلك؟

إننا سنعالج الموضوع، هنا على خلاف ما عالجه المرحوم الأب يوسف حبي في مقالته الآنفة الذكر وكالتالي:

وجود، أو لا وجود:

من خلال السرد السابق نصل إلى نتيجة واحدة لا ثاني لها إما أن يوجد المسيحيون في العراق أو لا يوجدون، والوصول إلى ذلك هو معرفة الأسباب المباشرة وغير المباشرة لسقوط المسيحية في العراق منذ أواسط القرن الماضي، ونوجز ذلك بما توصلنا إليه من خلال تعايشنا وتأملنا فنقول:

١ ـ بدأت المسيحية المشرقية تتدهور منذ وصول الإرساليات التبشيرية، إلى منطقتنا وراحت تدعو إلى الالتحاق بكنيسة روما (الكاثوليكية) التي بدأت تتحكم بمصائرها، وانتخاب رؤسائها وتتدخل في تنظيم طقوسها وتعليمها المشرقي ببث (فكرة اللاهوت الغربي) إن صح التعبير وإدخال الفكر غير الملائم لمعطيات أبنائنا المشرقيين حتى صاروا يعيشون الغربة في كنيستهم.

٢ ـ المعاهد الاكليريكية، التي فُتحت لقبول أبناء المشرق وتدريسهم الطروحات الغربية بفلسفتها ولاهوتها وقيمها، وما خرّجته من الكهنة الذين لم يتلاءموا مع شعبهم المشرقي، فلا هم شرقيون ولا غربيون إنما كالهجين مما جعلهم لا يستطيعون أن يوصلوا الفكر الجديد الذي تلقنوه دون وعي ولأنهم هم لم يهضموه.

٣ ـ بعض من مدراء المعاهد الكهنوتية في روما والعراق خرّجوا عمداً ونكاية بكنيسة العراق كهنة مارقين (بعضاً منهم) لا يصلحون أن يكونوا كهنة رعايا، وأن يتحملوا المسؤولية الكهنوتية، وأغلبهم تركوا الكهنوت

وهربوا خارج البلاد بحجة وأخرى وراء نزواتهم ولا حاجة لذكر الأسماء لأنهم معروفون عند الجميع.

٤ ـ بعد المجمع المسكوني الفاتيكاني الثاني (١٩٦٢ ـ ١٩٦٤) وردت إلى المشرق الأفكار الغربية والممارسات العجيبة على الكنيسة المشرقية، مما ولّد ردّات فعل بحجة التطور والتجدد والانفتاح والتقدم «لكل فعل ردّ فعل يساويه في القوة ويعاكسه في الاتجاه» ومن جملة تلك الأفكار أو الممارسات الهدّامة، ما يلي للمثال لا للحصر:

أ ـ خلع الاكليروس الكاثوليكي الثوب الكهنوتي الذي كان هوية للكاهن الكاثوليكي، وأصبح أغلب الكهنة كالعوام يرتدون الزي العلماني والذي به فقد الاكليروس قيمتهم وكرامتهم بين الناس فسقطوا إلى الحضيض.

ب ـ وهكذا فعل الرهبان والراهبات الذين يرددون كالببغاء، إن الثوب لا يصنع الراهب، وقد نسوا أن الثوب يعطي الهوية الخاصة، كالسلك العسكري والعمالي والصحي وغيرها، سيما الراهبة، الذي خلعت الفوال الحقيقي وتقليص الثوب وتقصيره فأين «العفة» والتجول بالسيارات «أين الفقر»، وإباحة الأوقات ليلًا ونهاراً «أين الطاعة». وما تجره هذه الممارسات من الجدالات العقيمة.

جـ ـ تناول القربان المقدس دون سرّ الاعتراف دون العمل على شرح السرّين سوية لأنهم سرّ واحد...

د ـ توجه الكاهن أثناء إقامة الذبيحة الإلهية نحو الشعب وكشف الأسرار للعوام، والأكثر نكاية تصوير القداس وتسليط الكاميرا على الأقداس سيما وقت الكلام الجوهري، ورفع الأستار التي كانت تحجب قدس الأقداس عن الأنظار التي لا يجوز أن تنظر «ثمن الذي لا يُثمّن».

هـ ـ إسقاط دور الشماس في الخدمة فأصبحت المرآة هي التي تقرأ «الرسالة» مثلًا، وتخدم الأسرار إضافة على ذلك السماح «للجوقات» أن تقف أمام المذبح أو حوله مكشوفات الرؤوس والثياب المكشوفة ضدّ إرادة القديس بولس «لا يحق للمرأة أن تتكلم في الكنيسة وأن تغطي رأسها وبحشمة وقورة».

د ـ الأفكار الجديدة والطروحات الغريبة حول مفهوم الخطيئة والعذاب الأبدي، وبتولية العذراء ومار يوسف، ومعجزات السيد المسيح، وإصدار الكتب المخالفة للعقائد المسيحية إن لم نقل أنها تحاربها وتخالف تماماً الفكر المسيحي المشرقي تماماً.

هذا من جهة،

ومن جهة أيام الحصار الذي فُرض على العراق (١٩٩١ ـ ٢٠٠٣) ظلماً وعدواناً، وما أفرزه من ممارسات غير مسيحية، صدرت من رجال الكنيسة منها على سبيل المثال لا الحصر:

أ ـ تشجيع رجال الكنيسة للهجرة غاية في أنفسهم للهجرة معهم بحجة خدمتهم، وهرباً من الحصار والحرب.

ب ـ عدم توزيع المساعدات المادية والمعنوية والمالية بصورة صحيحة لمستحقيها، ولو حدث ذلك لما كان قد هاجر الناس بهذه الكثرة، إنما ذهبت إلى بيوت الاخوان والأقارب والأصدقاء والمعارف من الذين لا يحتاجونها، وطرد الفقراء والمعوزين الحقيقيين مما أدّى إلى تدخل السلطات الرسمية التي سحبت المسؤولية عن يد الاكليروس.

جـ ـ موقف العلماء المسلمين سيما خطباء الجوامع الذين كانوا يحرضون بالتهديد والوعيد المسيحيين كأنهم عملاء أصحاب الحصار وأنهم متعاونين معهم بتهمة رابطة الدين متجاهلين أن لا رابطة دين بين المسيحيين الشرقيين والغربيين لا طباعاً ولا هدفاً ولا جنساً.

هذه كانت الأسباب غير المباشرة التي بَدَرَت ـ وما زالت قائمة ـ من الكنيسة ورجالها أما الأسباب المباشرة فنقول:

أولاً: الهجرة بسبب الوضع الاقتصادي المتردّي

إن ما مرّ بالعراق من ظروف الحرب والحصار والتصحّر كانت السبب المباشر في التردي الاقتصادي العام وأدى ذلك إلى التضخم الذي لعب بالعملة العراقية حيث أخفض القيمة الشرائية مئات المرات حتى أصبح الدولار الأمريكي الواحد يعادل ثلاثة آلاف دينار عراقي، سيما بعدما أصدرت السلطة العراقية العملة الورقية العديمة الرصيد الذهبي، فانخفضت الرواتب والأجور وارتفعت الأسعار ارتفاعاً منقطع النظير فأصبح العامل لا يستطيع شراء الخبز اليومي والموظف براتب منخفض لا يكفي معيشة أسبوع فساءت الحالة المعيشية اليومية، مما حملت العوائل والأفراد إلى الهجرة طلباً للارتزاق اليومي والأسبوعي والشهري بسبب انكسار العمود الفقري للدولة في اقتصادها وربما تكون هذه الحالة السبب الرئيس في هجرة المسيحيين إلى الخارج للبحث عن دولة، بديلة لوقت من العمر يذهب إليه للعمل وتأمين مستقبله ثم يعود بعد أن تتحسن أحواله المادية، مع الأخذ بنظر الاعتبار أن العراقي لا يرضى ولا يقبل بأي عمل، وإنما ينظر دائماً إلى الحصول على عمل ذي فائدة كبيرة تضمن مستقبله.

ثانياً: الهجرة بسبب الحروب والمجاعات

بغض النظر عن أسباب حرب الخليج والحصار الظالم الذي سبب جوعاً وموتاً جماعياً، والتي هي ليست موضوعنا في هذا الكتاب، وإنما موضوعنا الأصلي هو ما حدث فعلًا من خَلَل وعُقد في نفسية وشخصية المسيحيين والمسلمين والذي أدّى إلى هجرتهم وتركهم لبلادهم بسبب ما خلّفته هذه الحرب من دمار للشعب العراقي العظيم. لقد عشنا جميعاً مع كافة العراقيين فترة القصف المتوحش الذي قامت به قوات التحالف غير الشريف على المدن العراقية الآمنة.

إن هذه التصرفات الوحشية أدّت إلى تشتيت المسيحيين والمسلمين وإرغامهم على التفكير بالهجرة وترك منازلهم، إنها عملية تهجير قسرية، عملية هرب من موت محقق قد يحدث في أي لحظة. وهذا غيض من فيض لوصف معاناة الشعب في كل أرجاء العراق الأبي، وما حملته الشاشات التلفازية آنذاك دليل كاف على المعاناة.

ثالثاً: الهجرة بسبب المضايقات العقائدية

إن الإسلام دين سمح ونظمه تنص على عدم الاعتداء على غير المسلمين ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوٓا إِنَّا نَصَٰرَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ والتاريخ العربي يسجل لنا حوادث عديدة تنبع وترتكز على المعاني السامية في احترام عباد الله من غير المسلمين ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ﴾. لهذا نقول، لم يتعرض المسيحيون لاضطهاد من قبل الدين الإسلامي راجع كتابنا «المسيحيون في الدولة الإسلامية» وكتابنا «نصارى العراق في عهد بني أمية» وإنما يتعرض البشر بصورة عامة إلى اضطهادات متنوعة من بعضهم، وفي كل شعب وأمة وطائفة في العالم يوجد أناس متزنون ومتعلمون ومثقفون دينياً، ويوجد أيضاً أناس على النقيض، من أجل هذا نجد أن بعض المسيحيين تعرضوا إلى مضايقات من بعض الذين ادّعوا أنهم مسلمين، وانعكست تصرفاتهم سلباً على الإسلام. هذه المضايقات هي ليست اضطهاد لأنها ليست منظمة وليست هادفة وليست في تخطيط الحكومة، إنما هي سلوكاً فردياً لا أثر له على المجتمع بأكمله.

ويروي لنا التاريخ الحديث أن أكبر اضطهاد تلقاه المسيحيون الشرق أوسطيون في القرن الماضي هو الحملة الشرسة التي نفذها الأكراد بتوجيه من الأتراك في حق مسيحي جنوب شرقي تركيا أثناء الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ ـ ١٩١٨) وقد سجل لنا التاريخ حوادث القتل الجماعي المجازر والحصار الذي أدى إلى قتل عدد كبير من المسيحيين وتهجير عدد آخر منهم

بحيث لم يتبق منهم سوى ٢٪ من عددهم الأصلي (راجع كتابنا تاريخ ما أهمله التاريخ ـ دماء بريئة).

رابعاً: الهجرة بسبب البحث عن حياة أفضل

هذا النوع من الهجرة يشمل العائلات غير المتأثرة بالحروب أو المضايقات الفردية والعائلية والعقائدية أو بالحالة الاقتصادية وغيرها من الأسباب التي ذكرناها آنفاً. وهذه الفئة من العوائل الثرية، ميسورة وتعيش في بلدها الأصلي باحترام وتقدير ولكنها اختارت الهجرة لأنها تبحث عن حياة (هي في نظرها) أفضل بكثير من الحياة في الوطن الأم. ومثل هذه العوائل لا تكره الوطن مطلقاً ولكنها تتمنّى أن يصبح وطنها الأم مثل باقي دول العالم الكبرى والمتقدمة في العلوم والتكنولوجيا الراقية.

ومن الجدير بالذكر أن العائلات تستطيع أن تهاجر بسهولة، وذلك لأنّ الدول الكبرى ترغب وتشجّع انسياب الأموال من دول العالم النامي إليها، فتقدم التسهيلات المطلوبة لهم. وهذه العوائل الغنيّة لا يمكن أن تختار بلداً من بلدان العالم الثالث للهجرة إليه، وإنما فقط دول العالم الكبرى والمتقدمة مثل السويد وكندا وأمريكا وأستراليا.

وأمثلة عن مظاهر الحياة التي يبحث عنها هذا النوع من المهاجرين:

١ ـ أسواق فخمة وضخمة: يتوفر فيها كل ما يتمناه الإنسان على الأرض.

٢ ـ درجة عالية من الاحترام للإنسان كفرد وعدم المساس بشخصيته.

٣ ـ درجة عالية من النظام في كل مرافق الحياة الاجتماعية.

٤ ـ درجة عالية من الخدمات الصحية والطبية التي يحتاجها الإنسان.

٥ ـ السهولة والراحة في إيجاد ما يتمناه الإنسان في حياته.

الفصل الثالث

الهجرة نعمة أم نقمة

مقدمة:

كثيرون هم المشتركون في تصعيد الهجرة، ومنهم آباء لنا وجدود، أصدقاء وإخوة، محبون وأعداء ومنتفعون، وثمة آخرون من لا ندري بهم، إنهم قوى خفية تعمل لإجلاء المسيحيين من الشرق الأوسط وبكل الطرق: الحروب، المجاعات، الركود الاقتصادي، الإرهاب والفتن وما إلى ذلك من وسائل التهجير المسيحيين وتفريغ المنطقة من المسيحية الحقيقية. ولن ننسى أيضاً وجود أوضاع قديمة، محبطة هي وليدة سنين وحالات وسياسات يصعب تحديدها بدقة. فأنا لن أرمي مهاجراً بحجر، ولن أبارك يداً ساعدت على الهجرة، إنه توخّي موضوعية وواقعية ومعاناة.

وأملي أن يلقي كل منّا في «سلبيات» الحالة، خيطاً، ولو دقيقاً قد تكون إضافته إلى النسيج العنكبوتي أو الأخطبوطي من صنعه هو، وليس من صنع

(١) إعتمدنا بكلامنا هنا على مقالة المرحوم الأب الدكتور يوسف حبي بذات العنوان «الهجرة نعمة أم نقمة» والمنشورة في مجلد «بين النهرين» العدد ١٠١ ـ ١٠٢ بغداد (١٩٩٨) حيث إقتبسنا بعض الفقرات وبتصرف.

الآخرين وحسب، كما وأملي أكبر أن يتخذ كل منا موقفاً واضحاً، محدداً، وبنّاء من الهجرة فيأتي ولو بشيء يسير، لأننا جميعاً نستطيع الكثير، وأملي خاصة أن لا تصبح الهجرة حالة طبيعية ومقبولة.

حديث الهجرة:

١ ـ موضوع الهجرة صار حوار الجميع فهو في قلب كل منا، لذا فهو يخصّنا جميعاً، ولأننا متنوّعون ومختلفون، فلا عجب أن تأتي التشخيصات والأحكام متغايرة، فما نتمناه هو أن نتفق على الأساسيات.

٢ ـ إنني أركز على «الهجرة في العراق» قبل السقوط وبعده ولو أنه يمكن تعميم ذلك على الهجرة لأنها واحدة، مع اعتبار خصوصية كل فترة لوحدها فهذه أمور واردة ومقبولة.

٣ ـ ليس الحديث هنا عن هجرة المسيحيين وحسب، بل عن هجرة العراقي أياً كان، مع تخصيص فقرة للمسيحي بسبب الاطلاع المباشر، والتماس القريب اللذين يتيحان لي مزيداً من عمق رؤية وإحقاق حكم سليم.

٤ ـ لن أتناول موضوع الهجرة من جميع وجوهها، بل سيكون التركيز على الجوانب الإنسانية بشكل تام، تاركاً لمتخصصي الاقتصاد معالجة الموضوع بتفاصيل أخرى، هم أدرى بها، فقضايا كهذه لا يمكن أن نستوفي كلياً، علماً أننا سنتكلم عن كل المهاجرين العراقيين دون تمييز لا سيما المسيحيين.

ظاهرة الهجرة الاجتماعية:

١ ـ أول مظهر مثير للانتباه في السنين الأخيرة هو موجة الهجرة، إنها موجة عارمة، تشتد في مناطق وأزمنة، دون غيرها، ولذلك أسباب، ولا بدّ من محاولة إيجاد تعليلات معقولة لها بمنطق سليم.

٢ ـ إن هذه الظاهرة قد اشتدت بشكل مثير في العراق من بعد سقوط النظام واحتلال العراق من قبل أمريكا وبريطانيا وحلفاؤهما الأشرار؛ بحيث باتت بشكل ملحوظ ومخيف حديث الجميع، وأدّت ـ وتؤدي ـ إلى نتائج وخيمة، للأفراد والعائلات والبلد والمنطقة والمجتمع الدولي أيضاً، وتأتي خطورة هذه الموجة العارمة الحادة في تحوّلها إلى ما يشبه «الصرعة» تنتاب المجموع وتقحمه على اتخاذ مسار فيه من العدوى المخيفة، وكأنّ إنساننا أمسى مكرها أو مخدراً.

٣ ـ الهجرة حصيلة، تحديات وضغوط تعمل على اقتلاع الفرد من مجتمعه، والمجاميع من أصولها، والأقليات من أراضيها، والإنسان التقليدي من بيئته الطبيعية، والذهنية والتقاليد من أطرها وهذه بحدّ ذاتها أخطر ظاهرة تجابه العراق والشرق الأوسط بل وبلدان العالم الثالث.

٤ ـ محصّلة التقاطي وتأملاتي: إن الهجرة لم تعد ظاهرة وحسب، بل هي «عملية» محكمة، ركيزتها دراسات أو برمجة، ووسائل تقنية علمية وقوى بشرية وأموال طائلة، وهذا ما هو يخيف.

ولا بد عندئذ من التساؤل:

منذ متى كانت الهجرة؟ وكيف؟ وإلى أين؟ ولماذا؟

أ ـ منذ القديم، إنما الازدياد بل التفاقم منذ الستينات، وظهورها كموجة مستعرة ومتزايدة منذ العدوان على العراق، وتزامن الحصار المفروض عليه منذ آب ١٩٩٠ ولحد السقوط ١٢٠٣ وإلى حدّ اليوم، ولا بد من التنبيه أن مع كل يوم يستمر فيه الإرهاب، تتفاقم الحالة، ويبعث الوضع بالتالي على اتخاذ الهجرة منقذاً كملجأ وحيد وحلّ صحيح.

ب ـ أما كيف، فبشتّى الوسائل الطبيعية والتي بلغ بعضها ما يشبه الأسطورة، فعن طريق الأردن، وبعد السقوط انفتحت كل المنافذ المجاورة (سوريا،

تركيا، الكويت، إيران) مع ما فيها من أتعاب، وتكاليف باهظة وانتظار قاتل، وما في ذلك كله من دعايات ملفّقة واستغلال وسمسرة ونصب، بل مخاطر الموت.

جـ ـ وإلى أين؟ فإلى كل مكان، فأرض الله واسعة، حتى أن أناسنا أصبحوا خبراء ببلدان وأماكن لم يكونوا قد سمعوا بأسمائها من قبل، أو يعرفوا موقعها على الخارطة: «ولم يكن ليخطر على بال أحد أن أحدنا يقصدها يوماً، فكيف به يسكنها ويتخذها موطناً له؟» ويظل التفضيل للولايات المتحدة الأمريكية، وكندا ثم أستراليا والسويد، فبلدان أوروبية أخرى ولبنان...

د ـ ولماذا؟ لأنّ تحوّلاً كبيراً تحقق في العالم، تخلّف عن ركبه بلدنا لأسباب، وربما لأنّ هناك مخططات خفية تلعب دوراً للتحكم بمصير شعبنا والمنطقة. ويمكننا تعميم الكثير من هذا كله على إنسان بلدان شرق أوسطية وغيرها من بلدان «العالم الثالث»

أمثلة من واقعنا اليومي:

١ ـ كان أرمل وشاب، له ثلاثة أطفال، ٨، ١١، ١٣ سنة، يعمل في دار يسكنه كخادم عند صاحب الدار الكبيرة ـ جرفه السيل، فسافر... إلى أين؟ إلى أمريكا، هل له سند أو أحد؟ لا، على الله... لماذا؟ الكلّ يسافرون.

٢ ـ كل شيء متوفر له... بيت كبير، معمل شغّال، مال وفير، ولكن إنه المرأة زوجته، أختها قد سافرت.. هل تبقى وحدها؟ وتقرأ عليه كل يوم الحكاية نفسها.. باع كل شيء بأبخس الأثمان، وسافر.. سيصل لأن له أموالاً طائلة.

٣ ـ كانت شعلة، نار، سخية، معطاء، ذكية، ولكن ما إن قيل لها سيأتي

من ينتظرك في عمّان لتكوني زوجة له ويأخذك إلى السويد، حتى تركت كل شيء وسافرت... «أنتِ» قالت ماذا أفعل؟ أهلي، مستقبلي.. وجرت من مقلتيها دمعة سخينة.

٤ ـ قضى في الأسر بإيران ١٤ عاماً، ولما عاد لم يلق له عملًا ولا رجاء، فتشبث بأول خشبة، نجاة، وسافر.. إلى المجهول، قال لي عشية سفره: سأكون حيث قيّض لي الله أن استقر.

٥ ـ التقيته.. فهو صديق قديم.. وفاجأني يوماً «سوف نسافر قريباً» قلت له: «أنت»؟ «نعم، حالي حال الآخرين... ستبقون أنتم وحدكم، إذ لم يبق من مجال للعيش في المنطقة... مع أنه صاحب مبادئ، وقد كان من أشدّ المدافعين عن ضرورة البقاء، والعمل في البلد والمنطقة...

مثل هكذا لقاءات وحوارات جرت لي مع العراقيين في لبنان في العام ١٩٩٢ وما بعد إلى حدّ اليوم.

وبعد تأمل عميق واستقراء الحوارات وجدت الذين يتمكنون من الهجرة حالياً:

الأول: شخص متخم تسعفه أمواله فيشتري السمة (الفيزا) أيضاً ويصل، ولو عبر بلدان وقنوات شتى.

الثاني: شخص يسنده في الخارج أهل مقرّبون متعاطفون فيصل حتى لو انتظر سنوات.

الثالث: إنسان ليس له ما يتركه في البلاد: أموالًا أو علاقات، وهو عادة من شريحة الشباب وما عدا هؤلاء فضرب من الجنون أو الجهل من يقوم بالمجازفة.

أحكام الهجرة:

من الأمور غير المستحبة، لكنها شائعة بشكل كبير، إصدار الأحكام بسرع إن لم نقل جزافاً، ويمكننا تعميم هذا على معظم الأمور، والأمثلة لا تحصى. وهي تزاد كلما اتخذت إحدى الظواهر شكل موجة عارمة، لأنها عندئذ تُلفت الانتباه، فتأتي الأحكام سريعة، سطحية، وفيها من الخطورة.

والأحكام التي تتناول الهجرة هي أيضاً كغيرها من وجهات نظر متعددة، سلبية أو إيجابية.

فمنهم من يعدّ الهجرة أمراً مشروعاً، بل أفضل ما حصل في هذه السنين الأخيرة، إذ لولاها لأصبح الكلّ ضحية وضع لا يحتمل، بل لهلكوا بلا مبرّر، ومنهم من يعدّ الهجرة، على العكس تماماً أمراً مرفوضاً، بل جريمة لا تغتفر، ويتعللون بتعليلات شتى، تمضي من الأسباب الدينية إلى الوطنية، الصرفة، مروراً بتعليلات أخرى عديدة.

وفي كلتا الحالتين تصدر الأحكام متسرعة، سطحية، منقوصة، فالغرب، بل أي بلد آخر، عدا بلادنا، جنّة أو أقلّه أفضل بكثير، أو على العكس، فبلاد الغرب كلها تسيّب وإباحية وضياع وإجرام، وكل ساعة في بلادنا وبين أهالينا تفوق كل السنين التي يمكن أن يقضيها المرء خارج بلده وشعبه، والمهاجر يبقى «غريباً» في غير بلده مهما استقر وكوّن ذاته وترفه.. وتكثر أحكام متطرّفة مثل هذه، ورأيي بأن المسألة أشدّ تعقيداً، وأن الأسباب كثيرة وليست كلها سواء.

أسباب عامة:

من المفيد جداً أن نستقرئ، أوّلاً الأسباب العامة التي تؤدي بالناس إلى الهجرة، فنتساءل:

لماذا يهاجر الناس؟

إنه سؤال مشروع، أظن ينبغي طرحه على أنفسنا.

لن يكون الجواب سهلاً، ولا إجماع للكل على جواب واحد.

أذكر أني بعد أن قدمت إلى لبنان (تشرين الأول ١٩٩٢) كنت ألتقي بعض الشباب العراقيين مسلمين ومسيحيين طلباً للهجرة ينتظروا قرارات الأمم المتحدة وغيرها من الجهات الرسمية وشبه الرسمية، ولا سيما بعد أن نلتُ درجة الكهنوت (تموز ١٩٩٤) راحت علاقاتي وزياراتي تكبر وتشتد مع العوائل العراقية التي مضى على قسم منها السنة والسنتين، والأربع والخمس وكل لقاء يخبرونهم بأحدوثة جديدة، أو قوانين وأنظمة جديدة وكان الأفراد الذين يجرعون مرارة الأيام وقسوة الأحداث أوراق في مهب ريح المأساة البشرية المظلمة القاتلة.

وصارت علاقتي أمتن وأعمق حينما خوّلني رسمياً المطران ميشال قصارجي مطران الطائفة الكلدانية رعاية شؤون العراقيين (الكلدان) بخدمتهم روحياً وكنسياً وراحوا يكشفون لي عن أسباب هجرتهم وغاياتهم فيها وما الذي حملهم على ترك وطنهم العراق فكان أن خرجت ببعض النتائج منها للذكر وليس للحصر:

سألتهم كما سألهم غيري: لماذا هاجرتم من العراق البلد الأمّ ولماذا تهاجرون بعيداً شرقاً أو غرباً؟ لماذا تريدون أن تهاجروا دون معرفة خاتمة الأحداث وجديد الوقائع، فكانت أجوبتهم مترادفة بنماذج، وأقتسمها إلى أجوبة فيها المؤلم والمحزن، والمضحك المفرح كما في أمور عديدة سابقة أو لاحقة.

قال أحدهم لا استقرار في البلد، ولن يكون، لا اليوم ولا غداً، فالحالة لا تطاق منذ سنوات، سيما الآن حيث التأزم في ازدياد ومعلوم أنه بدون استقرار وسلام خاصة بعد الاحتلال، لا راحة ولا تقدم سيما الإرهاب على قدم وساق.

قال الثاني: الاضطهاد الديني السافر علانية عن طريق الخطب في الجوامع والمساجد قولهم: «لا تشتروا أملاك النصارى ولا بيوتهم لأنهم سيتركونها لكم

مجاناً إذ سنطردهم خارجاً شاؤوا أم أبوا، عدا التهديد والوعيد وبسطوا أمامي عدداً من أوراق التهديد للأطباء والمفكرين...

قال ثالث: العراق بلد غني لا سيما بالنفط، وكذلك بالمياه الوفيرة، والأراضي الصالحة للزراعة، كما بالمواقع الأثرية والدينية والسياحية، كما بموقعه الاستراتيجي المتميز، لذا سيظل عراقنا مستهدفاً على الدوام سيما ما دامت اسرائيل حية وأمريكا وبريطانيا وجيرانه لا يحبونه لهم أطماع فيه.

وأفاد رابع: العقلية الدينية في العراق اليوم مستحكمة فيه، منغلقة النظرة والأبعاد، فلا تقدّم اجتماعي أو علمي يرجى طالما «الأصوليون» و«الوهابيون» مسيطرون في المنطقة بشكل كبير.

والخامس قال: إن تهجير المسيحيين برنامج قديم، ولا بد من تنفيذه، سيما كنيسة العراق حيث هي قوية ملتزمة ومفكرة وإيمان صادق نقي فلا بد من إسقاط المسيحية هذه والقضاء على تراثها ومفكريها.

والسادس ردّد: تفجير الكنائس وخطف الكهنة وقتل البعض منهم وفي مقدمتهم «المطران» أدخل الرُعبَ في نفوس المسيحيين فلا بد من الهرب بعيداً لأن لا حيلة لنا بالمقاومة ولا بالمحافظة على مقدساتنا ونفوسنا، فالأولى الهجرة وبعيداً بعيداً.

والسابع يقول: العراق كالثوم مأكول مذموم، كل جيرانه يحسدونه ويتآمرون عليه وها هم اليوم يكشفون القناع عن وجوههم المشؤومة ويرسلون المرتزقة للتفجير والتفخيخ والخطف والترهيب.

والثامن: شعب العراق ذكيّ الفكر، كريم القلب، ذو أخلاق عالية وقيم ثمينة، مضياف، وهي صفات قلما تجتمع كلها في شعب آخر، لهذا يرغب أعداءه بالقضاء عليه كشعب دون سفك دم بالتهجير والاضطهاد.

والتاسع صرخ: لا سلام ولا وفاق بين المسلمين والمسيحيين فهم ما زالوا

يربطوننا نحن المسيحيين بالحروب الصليبية ويعبروننا عملاء للأوروبيين وهم حماتنا ويستعملوننا كأدوات ضد المسلمين.

والعاشر وهو الأخير وليس الآخر قال: الهجرة لنا أحسن لنا حفاظاً على بناتنا وإيماننا، وصيانة على تراثنا نعيش بحريتنا على مزاجنا وكما نريد، أستطيع أن أستنشق هواء الحرية في العيش والعمل والحياة.

هذه بأجمعها وغيرها الكثير أجوبة لا تُغني ولا تفقر ـ فيها من الحجج الواهية متجاهلين أو متناسين العراق، وعراقنا بعراقيتنا الوطن الأم الإنساني والشهم والشريف ممكن أن يكون ضيم لكل أبنائه يحميهم ويدافع عنهم ويهب لهم الهوية الحقيقية العراق للعراقيين مسلمين ومسيحيين عرباً وكرداً وسائر أبنائه البررة.

نجمل القول لما سبق:

١ ـ في بلد خارج من حروب عديدة وأزمات اقتصادية شديدة، متخلف اجتماعياً، يُلقي المرء المسؤولية على الأب والرئيس، على المسؤول والمدير، على رجل الدين والكنيسة... إلخ وننسى أموراً بديهية جداً، إن هؤلاء هم منّا، إنهم جزء لا يتجزّأ من مجتمعنا، بل هم جميعاً نتاج الأرض والبلد والشعب والأوضاع.

٢ ـ كان المفروض بمجتمعنا، بعراقنا، أن يكون متقدماً جماعياً بالمسؤولية، مشتركاً على كل الأصعدة، لأنه كان قد تخطى عتبة التخلف على التقدم بنفسية هادئة مفتوحة على العالم.

٣ ـ إن الوضع الذي نحن فيه لا نُحسد عليه، وضع الفوضى والغوغائية، وضع الاضطراب واللامسؤولية التي كلها اجتمعت لتدفع بالمواطنين إلى الهجرة سيما للذين لا ظهير لهم كالمسيحيين والأقليات الأخرى، لذا حريّ بالمنظمات العالمية الإنسانية والمؤسسات الدولية وفي مقدمتها:

الأمم المتحدة ومجلس الأمن، واليونسكو واليونسيف وغيرها أن تتخذ مواقف موضوعية، وإيجابية من الأقطار والشعوب جميعاً، وأن لا تصبح ضحية قوى وضغوط تنافي العدالة والمساواة.

نتائج ظاهرة الهجرة:

لظاهرة الهجرة نتائج سلبية وإيجابية، وأهم نتائج هذه الظاهرة الإيجابية ما يلي:

١ ـ في معمعة الظاهرة الإيجابية تظهر وبوضوح البطولة، حقاً كظهور الذهب بين كومة «الزبل» يلمع بين رماد التنور، وفعلًا فالباقون بالوطن والمصرّون على البقاء، عن وعي وقناعة ومبادئ راسخة، برغم كل الظروف القاسية وشدة المحنة، هم أبطال حقيقيون بدون أن يعني هذا أن «كل» الذين هاجروا هم جبناء، ولا «كل» الباقين هم أبطال، لأن بعض الذين هاجروا لهم أسبابهم الموجبة، وبعض الباقين «لم يتمكنوا» من الهجرة، فحالهم كحال غيرهم ممّن واتته الفرصة.

٢ ـ قد أولدت الهجرة بشكل طبيعي ظاهرة «الانتشار»، وهذا يعني من جهة «الانفتاح إلى الآخرين» ولكليهما محاسن أيضاً. ولا بدّ أن تؤخذ هذه الظاهرة بنظر الاعتبار، ويحسب لها ألف حساب، وفيها من الإيجابيات الشيء الكثير، ومما يلفت النظر ـ بحسب الهجرات القديمة ـ قبل السقوط ـ في الخمسينات وحتى الثمانينيات، إن الاتساع والانتشار هذا هو عمودي وأفقي فهو يرتقي بالإنسان العراقي المهاجر إلى ذرى مجتمع بل عالم غير واقعه، كما أنه يبسط أمامه مساحات شاسعة ويمدّ أمامه الآفاق، عليه أن يجابهها بل ويتحداها لكي يحقق ذاته المستقلة كما يفهمها.

٣ ـ ومعلوم أن ظاهرة الهجرة ـ سيما القديمة ـ تقتضي روح المساعدة وبسط

اليد وكرم النفس، وبذلك تجتد التضامن الفردي والجماعي سيما العائلي. وقد حصل الكثير من هذا إبان هجرة السنوات الأخيرة ـ سيما أيام الحصار وبوسع كل فرد أو عائلة سرد قصص يبلغ بعضها حد الأساطير، فيها من التساند والتعاضد والمناصرة والمشاركة ما يحملنا إلى القول: إن العالم ما زال بخير، بعكس القصص السلبية الأخرة التي تجعلنا نمقت أنفسنا ونكره الدنيا.

٤ ـ تعمل الهجرة وعملت على التخلص من عقد اجتماعية عديدة، أولاها العصبية القبلية العشائرية، والعائلة الشرقية، والأصولية الدينية وغيرها، إذ لا بد للمهاجر، إن شاء أن ينسجم أو «يتحد ويتأقلم، إن لم نقل يذوب وينصهر» في بيئة طبيعية، أن «يقبل» الآخر ويتحد معه ويتعاون، وإلا بقي «غريباً» حتى لو منحوه الجنسية: وتظل مشكلة «التأقلم»، بل «المثاقفة» قائمة، وهذه من أصعب الأمور، إذ كيف التوفيق بين الأصالة والخصوصيات من جهة، وبين الجديد والغيري؟ وهل «للعولمة» أن تكون هي البديل؟ أسئلة كبيرة تظل بحاجة إلى أجوبة، ولا يتسع المجال هنا لتنازلها والاستفاضة أو الإسهاب للوصول إلى جواب يروي الغليل. . .

أما النتائج السلبية لظاهرة الهجرة فقد تكمن في:

١ ـ الهجرة نفسها، لن نبالغ إن قلنا أن الهجرة من أشدّ الظواهر السلبية التي يمكن أن يُبتلى بها بلد أو مجتمع. ومتى عمّت، وكانت عن أسباب حقيقية تدعو إلى التذمر، وحين يعتبرها ذووها ملاذاً وخلاصاً، فإنها عندئذ شرّ بلية ونقمة كما حصل بين العامين ١٩٩٠ ـ ٢٠١٠ وما زالت الموجة تسري، وسارية المفعول.

٢ ـ ومما تسببه الهجرة نزيف الأدمغة المميّزة، فيفقد البلد أهم طاقاته البشرية المبدعة، ويفقد في أسمى صعيد حضاري ذروة قواه الخلاقة، وبشكل يصعب التعويض عنه، بل يستحيل. ومعلوم أن العراق قد فقد ألوف

الأساتذة والأطباء والمهندسين والعلماء والمفكرين والفنانين خلال السنوات الأخيرة، سيما الشعراء والكتّاب، لا سيما تلك التي تخرّجت من الجامعات العراقية والأجنبية، وتلاميذ الدراسات العليا منذ سنوات قد تبلغ الخمسة والعشرين ألف وأكثر إضافة إلى العسكريين من ذوي الرتب العالية، والعلماء في شتى ميادين العلم والمعرفة.

٣ ـ وكثيراً ما تسبّب الهجرة ضعف الطاقة الشبابية ـ وهي الطاقة الكبرى ـ كما حصل للعراق في السنوات العشر الأخيرة ـ وما زال الخطر ساري المفعول ـ فهو الشاب بالدرجة الأولى من يهاجر إن لم نقل يسافر ـ والعكس صحيح ـ بدون تردد وتلكؤ، بل كله اندفاع وحماس للمغادرة، لأن ارتباطه بالأرض والمجتمع ـ الوطن ـ ما يزال ضعيفاً، لأدنى حجة أو لأتفه سبب ـ أحياناً ـ ينقطع حبل وصله، إن لم نقل الحبل السري بأمّه.

والشاب ليس كالبالغ، أو من له عائلة وعمل مثمر ومصالح، ولما كان مستقبل أي أمّة ـ وشعب وبلد يقوم على الشباب، فلا أمل من ثمة بلد يفقد كل يوم طاقة شبابية، أي يفقد حيوية شبابه وطموحاتهم، بل على العكس حينما يحتشد شبابه بالتذمر وبنفس ناقمة، بحيث لا يترك أي مجال لاحتمال عودة هذه الشريحة المسلوخة عن جسده وضميره وروحه، حتى لو استتبت الأوضاع وتحسنت الأمور بأمنه واقتصاده.

٤ ـ وكنتيجة حتمية لهذه الظاهرة، نلقانا إزاء بقاء فتيات بل نساء كثيرات بدون رجال وزواج وأمل وعمل. وليس من السهل احتضان الفتاة المتعبة في ظروف حرجة، وبامكانات فقيرة، وربما أيضاً بعدم التنبه لهذه الظاهرة الخطيرة، إذ بسهولة يفسد المجتمع بفساد الفتاة والمرأة، وتتفكك العائلة، وهي السند الأعظم لمجتمعنا العراقي بشكل خاص، وعلى حساب ماذا؟

٥ ـ ازدياد عدد النازحين يوماً بعد يوم (الهجرة الداخلية) من منطقة إلى منطقة

ومن محافظة إلى أخرى، وهكذا الهجرة خارج القطر، ولا حاجة، لنا إلى إحصائيات، فقد تناولها آخرون، وليست كلها دقيقة دائماً، إنما معلوم بما فيه الكفاية أنه بعد أحداث (١٩٩٠ ـ ١٩٩١) فاق عدد المهاجرين من العراق مئات الألوف، منهم نحو (٢٠٠) ألف مسيحي، وما يزال النزف مستمراً خاصة، بعد سقوط النظام فقد بلغ عدد المهاجرين العراقيين الخمسة ملايين بينهم (٣٥٠) الف مسيحي، ولولا الغلاء والقيود لتضاعف هذا العدد.

٦ ـ ومما ينجم عن الهجرة ومسبباتها: تحكم العقلية المادية في المجتمع، فلا يدور الكلام إلا على المال والعيش المادي، وتنسحب القيم والعلم والفضيلة، إلى مسافات بعيدة عن التفكير والطروحات الميدانية، وهو «تزحيف» لتفكيرنا الشرقي، فيه من الميل إلى الروحانيات إلى تفكير غربي فيه نزعة، وضعية ومادية ويقود هذا إلى موجة إلحادية، كنتيجة حتمية لفلسفات براغماتية حيّة، وجودية، تجريبية، وهذه كلها شائعة في بلاد الغرب.

٧ ـ وبكل سهولة تفشى عقلية تتّسم بالإحباط والتشكي، تغذيها نزعة تشاؤمية شرقية سائدة في مجتمعاتنا سرعان ما تتحوّل إلى حالات يأس قاتل، وما قيمة الإنسان والحياة إن سادها اليأس والانكسار وينعكس هذا كله على العائلة والمجتمع بسلبيات لم تعهدها من ذي قبل؟

٨ ـ ولا بد للهجرة أن تؤذي، بشكل أو بآخر، «طبيعة» إنساننا وتكوينه الخاص، من حيث الانتماء، أو اللغة، أو الإرث الحضاري، أو التقاليد والعادات... صحيح إنني ألدّ أعداء الهجرة، وملتصق بوطني العراق إلى حدّ العشق والفناء بحب العراق وتراثه وشعبه لما فيه من خصائص وغنىً، منذ تركته لأجل الخدمة والرسالة، التغرّب ينشئ عاطفة مشبوبة إن كان بالغاً حتى أصبحت كل كتاباتي وقصائدي تتغنّى بالعراق وحضارته وصار لدي شبه شعار أردده في كل وقت ومكان:

«العراق نور لا ينطفئ»

ومعين لا ينضب،

وحضارة لا تندثر،

أما إذا الغربة أو الهجرة قصدها شاب يافع أو مراهق، أو طفل صغير فإنها ترى فتوراً تنازلياً، وقد ينعدم الحب للوطن والشعب والتراث، ومن المؤكد أن أي شعور بالانتماء سيضعف بعد جيلين أو ثلاثة، وربما يحصل هناك ذوبان أو انصهار، وينتهي كل شيء، أما فورة الحس الوطني أو القومي، أو حتى الانتماء اللغوي والحضاري والتراثي، فهو موجة مؤقتة، حسب تقديري، ليس غير، فقط وقت السفر، إن لم نتدارك الأمور، كما سنرى بعد قليل.

٩ ـ وقد يتساءل أحدنا: وهل بوسع هذه الأسباب أن تضعف إيماننا ومبادئنا؟ وأقول ـ وبكل تأكيد ـ نعم، ليس لأننا قليلو الإيمان وضعيفو المبادئ، إنما الإنسان أيضاً لحم ودم، قطعة من بنيان متلاحم، قد يهوى ويسقط، فلا بد له أن يتأثر بالأجواء التي يعيش فيها، وإن هو صمد فسيكون معذباً حتى ينحلّ وينهار... وليس الجميع أبطالًا وقديسين.

١٠ـ وقد تأتي الهجرة من أناس يتنكرون لأوطانهم ويرفضون الانتساب إليه بدافع ما، ولا يهمهم أن ابتعدوا عنه، لا بل هم يحرضون على تركه وحده، ربما تشفياً أو تكبراً أو عناداً. ومثل هؤلاء إن هاجروا أو بقوا فلا نفع منهم، بل قد يضرون ببقائهم، فليرحلوا بشرّهم، وإن بقوا لا نفع لهم ومنهم.

كل هذه الأسباب وغيرها تؤدي حتماً إلى «تفريغ» البلد والمنطقة من عناصر قوية، ذكية نافعة، ويظن البعض أن وراء ذلك مخططاً، أقول بل مخططات، ولوبي خطير التأثير عن قوى الشرّ العالمية: الصهيونية العالمية بقيادة اسرائيل، والماسونية، والأصولية الإسلامية، وعدم قراءة التاريخ بصورة دقيقة لدرس العِبَر والدروس.

هجرة المسيحيين:

إن هجرة المسيحيين من العراق مهما كانت صغيرة فإنها تؤثر مباشرة في البلد والمنطقة إذ كأنهما يفرغان من المسيحية، وفي هذا خطورة كبرى للأسباب التالية:

١ ـ تناقص عدد المسيحيين في العراق وفي بلدان الشرق الأوسط إلى حد نسبة تقارب شبه الانعدام كلياً.

٢ ـ إن هجرة كهذه تسبب تخلخلاً في توازن القوىٰ، فالنسب السابقة التي كان المسيحيون عليها كان صمّام أمان في أمور شتى.

٣ ـ للحضور المسيحي، دور كبير، تاريخياً، حضارياً، دينياً، خلقياً وواقعياً، وانعدامه أو ضعفه سيلحق أزمة بوضع المنطقة والبلاد وربما بالعالم بأسره.

٤ ـ لشهادة العيش المشترك لا بد من الحفاظ على المسيحية في هذه البلاد التي هي مهد المسيحية والديانات الأخرى.

صحيح أن الهجرة لا تشمل المسيحيين وحدهم، وأن عدد المسلمين المهاجرين ليس بقليل، إنما فارق النسب ملحوظ ومؤثر سلباً على المسيحيين، وستكون كارثة سواء للمسيحية، كما للإسلام عينه، وللعالم كلّه، إن فرغت هذه الديار من مسيحييها، وهم أصيلون فيها وعريقون بعراقة العراق.

ماذا يريد الشباب؟

للشباب طموحاتهم، الخاصة، طلباتهم الدقيقة، آمالهم المستقبلية، قد يحتار المرء أن يعلم ماذا يريدون من الوطن. ومنذ سنوات، وسنوات وأنا أتأمل في جميع غايات الشباب ـ ذكوراً وإناثاً ـ وماذا يريدون من الحياة والوطن؟

سؤال حيوي ومهم طرحته على مئات الشباب إن لم أبالغ وأقول الآلاف.

معظم الشباب من كلا الجنسين أهابوا بمصداقية مع نفوسهم وضميرهم، فكانت الأجوبة متنوعة. فيها الكثير مما نحتاج أن نتعلمه نحن «الكبار» إنهم يعبّرون عن رأيهم ورأي الكثيرين ممن التقيتهم هنا (في لبنان) وهناك (في العراق) لذا يجدر بنا أن نحلل بعمق وضمير حيّ، فنقرأ من خلالها «علامات الأزمنة» والرجاء أن نحمل معهم بشرى الخلاص.

ـ إنهم يتمنون الكثير من المجتمع ككل، من الأنظمة والحكّام، من رجال الدين كافة (مسلمين ومسيحيين) من الكنيسة ورؤساؤها من الأهل والكبار والأصدقاء، ومن كل إنسان مسؤول، صُنّاع القرار، من المنظمات والمؤسسات الدولية، من الضمير الإنساني الحرّ والحرّ، فيقولون:

١ ـ يجب تفهّم الشباب، فهم «الجيل الصعب والمتألم» وبالتالي المتأزم، فهم ولدوا في عهد الأزمات الشديدة المعاشية والاقتصادية، مصيرهم مجهول، فيجب احتواءهم، وفتح باب القلب قبل البيت أمامهم لكي يدخلوا ويجدوا من يريدهم ويحبهم، ويفسح المجال لهم، يأخذ بيدهم ويطمئنهم من الأيام المجهولة الساعات.

٢ ـ استقطاب طاقات الشباب والاستفادة من قدراتهم وإمكاناتهم الهائلة وقابلياتهم المتنوعة، فالإنسان (الشاب) منجم طاقات، تتفجّر بخاصة من خلال الشباب، شباب العمر والفكر والقلب، إنهم براكين موقوتة تحتاج إلى من يفجّرها.

٣ ـ توفير الراحة والاستقرار والسلام في البلاد، إذ أن الشباب هم أولاد النزاعات والحروب سيما في قطرنا العراق (حروب الشمال وإيران والخليج والسقوط...) لقد طحنتهم الحروب من جهة، وأذهلهم التقدم التقني من الناحية الأخرى، فباتوا مشتتين، بل في ضياع. وما أقسى القلق والتيه والضياع والانتصار لساعات الشرود.

٤ ـ منح الشباب الثقة، وتفهّم احتياجاتهم ومشاكلهم وتطلّعاتهم إذ بدون

الثقة، لا انسجام، ولا إمكانيات عمل واللاعمل لن يكوّن سوى أشباح وأموات.

٥ ـ إعطاء الشباب دورهم الفاعل في الحياة، فهم الطاقة العظمى وإشراكهم حتى في المسؤوليات كسب عظيم على كل الأصعدة، بفضل حكمة الشيوخ، وتحدّي الشباب للمستحيل، تصنع معجزات عجيبة.

٦ ـ دعم الشباب ومبادراتهم بشتّى السبل، إذ لا أتعس من زرع الخيبة في قلوب الشباب وشلّ عزيمتهم الوثّابة لمجرد حرمانهم من الوسائل التي تمكنهم من تكوين الذات والعمل المبدع.

٧ ـ عدم تحميل الشباب أعباء لا يرغب الكبار في حملها هم أنفسهم، بل ليكن مثال الكبار قدوة لهم أكبر وحافزاً على شحذ القريحة، وتصعيد الهمّة، والتحليق عالياً.

٨ ـ قبول التجديد سمة الحياة والشباب، والتخلّي عن روح التقليد الجامد، والدعوة إلى الحركة ـ والحيوية والنشاط باستمرار، فالشاب لا يرتضي بالسكون والرتابة، والتطور مطلب بل هدف كبير.

٩ ـ إزالة الخلافات والانقسامات القائمة في المجتمع وبين المذاهب الفكرية والأديان والكنائس، فهي سبب عثرة وشك للشباب، والتأكيد على التنوع والتعددية في الوحدة، ومن خلال التركيز على المشترك ـ حصيلة الجوهر والأساسي.

١٠ـ تبادل الخبرات على الأصعدة والمستويات كافة، بين سائر الشرائح والمجتمعات والمؤسسات، وتصعيد التضامن والتعاون بين الأفراد والمجتمعات والدول.

١١ـ فسح مجالات أوسع للحرية والمبادرات، فالشباب طاقة عظمى في وسعها أن تتفجّر ابداعات، إن نزلت الآمال والأحلام إلى حيّز الواقع

والعمل، وعدم عرقلة حريات الشباب بحجة النظام والخبرة والعقل، إذ لا بد للإبداع من جديد وهو وليد حرية وتحرر ومغامرة.

١٢ـ إشراك الشباب في التخطيط والعمل، وليس فقط في التنفيذ، وكأنهم أدوات جامدة وخدم أسياد.

١٣ـ مساعدة الشاب لاكتشاف دعوته الحقيقية، في الحياة، ومساندته لعيش رسالته وتمكينه من الشهادة للقيم والجمال والكمال.

١٤ـ إزالة كل ما يعمل على التفريق بين شاب وشاب وإنسان وإنسان، أياً كان نوع التفريق والتمايز، عدا القابلية والاقتدار والإبداع.

١٥ـ إيجاد فرص عمل للشباب، إذ لا يكفي التنديد بالهجرة، والألوف عاطلون عن العمل، ومن الطبيعي أن ينجرفوا، لأن الشاب الذي لا يعمل، يفسد أو يموت.

١٦ـ التركيز على العائلة، فهي الركيزة الأساسي، فيها يترعرع الطفل والشاب، ومنها يأخذ ما هو أساسي ولا خوف عليه بعد ذلك، إن نشأ بناؤه على صخرة قيم وأخلاق عالية.

١٧ـ تجسيد البعد الجماعي في الحياة، على كل المستويات، بدون أنانيات وانفراد وتعصب.

١٨ـ تخصيص الوقت الكافي للشباب، للاستماع إليهم لمحاورتهم، ولاتخاذ القرارات بمشاركتهم، وليس بدونهم فهم مشاركون معاونون حقيقيين.

وقد أكّد الكثيرون على دور الكنيسة، إذ أن معظم من سألتهم من الشباب مسيحيون فقالوا:

١ ـ الكنيسة أمّ ومعلمة، ولكن الأم التي لا تعلّم أولادها ماذا تكون؟ أين هي هذه الأم، وهذه المعلمة، يجب أن تكون قريبة منهم وإليهم، وأن تحتضن أولادها بروح محبة ووحدة، وتعمل على تفهّم حاجاتهم وتطلعاتهم. أن تفتح أبوابهم لهم للعمل، وتقبل آراءهم، وتفسح المجال

لهم، وتشجع مبادراتهم، وتنشئ مجالات عمل وفرصاً فلا يتسترون، وتساندهم في المطالبة بحقوقهم المشروعة، وعليها أن تكون القدوة لهم، فتطالب بالعدالة، وتناشد الجميع بالتضامن والعمل المشترك، وتتوحد بدل أن تظل منقسمة ضعيفة، وأن ترسم الهدف بوضوح، وتصنع خطط عمل علمية طويلة الأمد، فتنفح الجميع أملاً.

٢ ـ وقال ثاني عكس ما أورد الأول أعلاه:

هذا الكلام طوبائي مثالي لا يتنفذ مطلقاً، بل العكس صحيح، ماذا نقول برجال الكنيسة الذين يجمعون الحسنات والهبات والصدقات باسم أطفال العراق من الداخل والخارج والأطفال وعوائلهم لا يستلمون أي شيء منها ولا فلس أو دينار أو دولار. أو ماذا نقول عن رجال الكنيسة الذين يوزعون المساعدات إلى غير محتاجيها؟ وما إلى ذلك من صور معتمة تدين الكنيسة ورجالها؟

٣ ـ وأضاف ثالث: أنا سوف أقص لك حادثتين من واقع الحال المؤلم: كنت في زيارة لكاهن صباحاً، وكان يتناول فطوره على مائدة عامرة بما عليها من لَبَنات الصحة، ومن جملتها، علبة حليب من المساعدات مكتوب عليها بالانكليزية حليب لأطفال عمرهم بين الثلاثة والستة أشهر، وبعد فطوره الهني سألته: كم عمرك يا أبونا، فقال مندهشاً ما هذا السؤال الغريب منذ الصباح، قلت: طرأ على بالي، قال مبتسماً: خمسون عاماً، قلت: لكن الحليب الذي شربته مخصص للأطفال. قال مازحاً: إنه من المساعدات، قلت لماذا لا توزعوه ما دام لكم منه الخزين، قال: وزعنا ما وزعنا وهذا الباقي بعد في المخزن كثير كثير.

والحادثة الثانية كنا في رحلة، وكانت بعض البنات معهن المعلبات من كل الأجناس فسألتهم من أين هذا قالوا من عمتنا الراهبة، فلدينا منها الكثير، علماً أنهم ليسوا بحاجة إليها!!

وأضافت ثالثة بقولها: إن الراهبات في الدير الفلاني ـ لم تذكر اسم الدير وبإصرار ـ أنه يفطرون بطعام الأطفال «السيرلاك والحليب للأطفال، ولا يريدون توزيعه خوفاً من الحرمان منه فهنّ أولى به...

وعبّر أحدهم عن أمنيته بقوله: أتمنى أن ألقى الكنيسة أمّا لي، شابة لا عجوزاً قد حنا الدهر ظهرها، تنهض بكل جدّ واجتهاد برسالتها السامية، على الأقل تطبق أعمال الرحمة التي أوصى بها مؤسسها: تعزية الحزانى، عيادة المرضى، إشباع الجياع، سقي العطاش وما إلى آخر القائمة، لا أن تتهرب منها وتتنصّل عن عملها...

وقالت أخرى: أننا بحاجة إلى كنيسة البشر، لا إلى كنيسة الحجر، تواكب أفكار العصر المتألم وليس المتهوّر، بيتاً يدخله الجميع باطمئنان وليس قلعة للعرض والافتخار، بيت لقاء الله مع الإنسان، والإنسان مع إخوته البشر.

وهكذا تتوارد الأجوبة مختلفة، مترادفة ومختلفة مظلمة ومنوّرة، عشرات بعشرات، تنتقل بين التفاؤل والتشاؤم، حقاً لأن السؤال صعب والجواب عليه أصعب، لأن الحياة كلها تترتّب على هذا السؤال: ماذا يريد الشباب، ماذا يريد الشابات؟ ماذا يريد الكهنة؟ ماذا يريد الراهبات؟ ماذا تريد الأرض من المطر؟ ماذا يريد طفل من صدر أمه؟ ماذا يريد النحل من رحيق الزهر، والليل من النجوم والقمر؟ والحطب من النار؟ والسراج من الزيت؟ ثم ماذا وماذا وماذا؟؟؟

هي أحلام، ربما، ولكن من لا يحلم؟

وها أنا أضم صوتي إلى صوت شعبي وأضيف إلى ما قاله الشباب والشابات: إنني أتمنى على بلدنا أن ينفتح على الآخرين، بدون تلكؤ وتوجس، أن نقوم بصناعة السياحة لأن أرضنا منبع الحضارات وجنة عدن، وعلى كنيستنا أن تشكل هيئة عليا تضم شخصيات في الداخل والخارج لرفع المعاناة وتحقيق الكثير لشعبنا وبلدنا.. فالطريق طويل طويل والمأساة ثقيلة ومؤلمة، والجرح

عميق ما زال ينزف وينزف لأننا عائشين بين المراوغين والمتآمرين، لا هم يدخلون ولا يدعون للداخلين أن يدخلوا. . .

ماذا نفعل شعباً وحكومة وكنيسة؟

خير الكلام ما قلّ ودلّ. يجب على كل الجهود أن تتظافر وتتوحد كيانات الأمة شعباً وحكومة وكنيسة، عراق واحد لأمة واحدة كما كان منذ آلاف السنين يعضد بعضهم بعضاً، حضارة واحدة، مسلمين ومسيحيين، صابئة ويزيديين، عرب وأكراد وتركمان كلنا عراقيين ننتسب إلى العراق العظيم العظيم.

لا بد من العمل على تحديد الهوية، ووجوب لقياها دونما اغتراب وتغريب وضرورة نفح رسالتنا بالحياة. والعمل على إعلان شهادة الحياة والبشرى فينا، إذ لعلها فرصة الله لنا، لأنها نعمة ممزوجة بالألم، تماماً مثل مخاض المرأة الأمّ، كما تفرح بالمخاض رغم آلامه، فتفرح بالوليد الجديد، وتنسى الألم في العتيد الآتي، فلا بد من إيجاد فرصة لخدمة إنساننا العراقي في رسالتنا الجديدة. لذا أسمح لنفسي بهذه الإشارات كعلامات للإنسان الجديد المزمع أن يولد وسط هذا العالم المتألم فأشير إلى:

١ ـ عمل المستحيل لئلا يتحول إنساننا إلى إنسان مستهلَك ومستهلِك، فقد كان إنساننا دوماً مبدعاً ومعطاء، وله اليوم أن يحمل رسالة الإيمان والمحبة والرجاء.

٢ ـ العمل ولو يسيراً لتغيير التباكي والتشكي إلى واعدين وعاملين على السير إلى النهاية، وليس متفرجين إلى النهاية دون رجاء فنتقلب إلى الإنسان الجديد، اخلعوا الإنسان القديم والبسوا الإنسان الجديد.

٣ ـ لنعمل بكل مصداقية ولو يسيراً للتخفيف عن معاناة شعب بأكمله، ولنرفع الشعار: «ثقوا. . . لا تخافوا. . . إني غلبت العالم».

٤ ـ لنكن صرخة واحدة مدوّية في وجه الجميع، ألا أوقفوا هذا النزيف «الهجرة» ولا تشجعوها بأي شكل كان، ولأي سبب، المحب وحده يتألم لألم من يحب، ومن يحب بلده وشعبه ولا يتألم فإنه ممثل، مجامل، وكاذب. إني أكتب هذا بحرقة قلب، وأعيب إلى من «يسكت» عن الحق، فهو شيطان أخرس، ولا بد من ضمّ أصواتنا إلى من يندد بالظلم.

٥ ـ علينا جميعاً أن نعمل على تحسين الأوضاع: مادياً واقتصادياً واجتماعياً وثقافياً، وإنقاذ إنساننا من هوّة الهلاك، فلا تكفي الحلول الآنية، كالمساعدة بيسير من المال أو الطعام، بل إيجاد فرص حيوية ورعاية الفتاة صمام الحياة فهي ضمان لمجتمع أفضل سليم.

٦ ـ التخلي الكامل عن المحسوبيات والمنسوبيات الخاصة والعمل على تظافر الجهود والقوى والامكانات لجعل هذه القضية «الهجرة» في مقدمة القضايا الوطنية بإيجاد حلول نافعة، فلا يكفي الكلام على منابر المؤتمرات ولا بعقد الندوات وتسويد المقالات بل شدّ الأحزمة على صدارة القضية، دولياً وكنسياً بتكثيف اللقاءات والندوات والمؤتمرات والبحوث والخروج بورقة عمل واقعية متكاملة.

ولا بدّ لتحقيق هذا من وضوح القراءة وعمق التشخيص، وأساسي هو وضوح الهدف، وأسأل الجميع: لماذا نمنع الهجرة؟ أو لماذا نشجع الهجرة؟

هذين السؤالين هما الأكثر شيوعاً هذه الأيام، وليس من جواب إلّا باقتراحات أربعة:

الأول: العمل الحثيث على إرساء علاقات سليمة صحيحة وقوية بين أفراد المجتمع الذين في الداخل والذين هم في المهاجر، واعتبارهم «مواطنين» حقيقيين، لا أعداء، ولا من الدرجة الثانية أو الثالثة ولا مغتربين، بل مواطنين في الخارج سيما المسيحيين منهم، ومن الضروري مدّ جسور متينة إليهم من

خلال علاقات حقيقية، لأننا وإياهم واحد، ونحن ضعفاء بدونهم، وهم مقطوعون من الجذور بدوننا. ولا بد من إسداء الشكر للذين يرسلون مساعدات لذويهم والمحتاجين وتحويل بعض منها لمشاريع تنموية وثقافية ذات نفع عام.

الثاني: رفع الصوت عالياً ضد أي محاولة لطمس الحقيقة، وتشويه الأمور، والتعتيم على الواقع الصعب الذي يعيشه شعبنا وبلدنا، وتحبس الجميع بواجبهم الإنساني في رفع اي ظلم ولا عدالة ومحاولة استغلال وإذلال، والتذكير بالدين العظيم الذي يدينون به لبلادنا، مهد الحضارة وبداية التاريخ.

الثالث: أدعو جميع المفكرين والفنانين وذوي الإرادة الطيبة إلى التماسك والتلاحم في الداخل لتحقيق الكثير، وإلا فشلت المحاولات، وتبعثرت القوى، وانكسر أقوى الأقوياء، فهو واجب على كل مواطن شريف.

والرابع: لا بد من نفح الرجاء في القلوب لكي نتمكن من مواصلة مسيرتنا وسعينا وإلا سقطنا في الطريق. الله وحده هو الذي يسبغ علينا نعمه وآلاءه، فيجب أن نكون عوناً للآخرين، وما نفع كلمتنا إن لم نصبح خبزاً للجائعين، بسمة ـ للبائسين، موطناً للمهاجرين.

الفصل الرابع

مواطن الهجرة...!

أيام الحرب العراقية الإيرانية (١٩٨٠ ـ ١٩٨٨) بدأت هجرة العراقيين إلى الخارج وخاصة المسيحيون منهم وذلك هرباً من الجور والظلم الصداميين والخوف من المعارك الوحشية، ومدة الخدمة العسكرية التي طالت مع البعض سنين وسنين، وكبرت الهجرة، وكثر عدد المهاجرين إلى أطراف الدنيا شرقاً وغرباً.

وأثناء الحصار الذي فرضه العالم حول العراق (١٩٩٠ ـ ٢٠٠٣) طفح الكيل واستمرت الهجرة سيما المسيحيون الذين وصلوا إلى آفاق الدنيا بواسطة من سبقهم وصار لهم مستوطنات في أوروبا وكندا، في أستراليا والسويد، في أمريكا الولايات المتحدة ونيوزلاندا وغيرها من أقطار الدنيا...

وبعد سقوط نظام صدام (٩ نيسان ٢٠٠٣) وإلى هذا اليوم بلغ السيل الزُّبى عندما شرع العراقيون يهربون ويهربون بعدما فقدوا الثقة بشعارات الديمقراطية الأمريكية وسوالف التحرير فضلًا عن سلوك القادة الجدد، سيما حينما ارتفعت مقاييس السرقات للمسؤولين الكبار، فكان للعراق لصّ واحد قد يصحّ أن ننعته بلص بغداد فأصبح للعراق آلاف السرّاق، كان المثل يقول «علي بابا والأربعين حرامي» صار «بوش وآلاف الحرامية» فازداد عدد المهاجرين مسلمين ومسيحيين

وغيرهم من أصحاب المذاهب والملل يهربون من العراق كهروب الإنسان من الحية، وما زالوا ـ يهاجرون إلى كل قطر وفي كل ساعة. ووصلوا إلى: الأردن، وسوريا، ولبنان، ومنها إلى مصر، وفرنسا وبريطانيا وألمانيا والسويد والدانمارك وكل أقطار أوروبا، وأيضاً استوطنوا الولايات المتحدة وبريطانيا وكندا، بل توزعوا في أرجاء الدنيا.

ولست هنا بمعرض دراسة الأسباب والحجج التي سبق وتحدثنا عنها بإسهاب والمنظور السليم.

إنما نحن هنا أن نتكلم عن مواطن الهجرة من كل النواحي التي من المفيد أن تذكر بأن الهجرة ضياع سنوّضحها في الصفحات القادمة من حقائق المهاجرين أنفسهم الذين ما زالوا يتصلوا بنا هاتفياً أو بريدياً موضحين عن حياتهم هناك وماذا يعانون من الظواهر الجديدة التي يمرون بها:

هل الغرب والعالم الجديد مسيحي؟

الذي لا يعرف ماذا يعني الغرب (أوروبا) والعالم الجديد (أمريكا وكندا) والذي لا يفقه بالسياسة العالمية لهذه الدول يخطئ إذا اعتقد أن الغرب مسيحي وكذا العالم الجديد، وأن دول العالم الغربي هي دول مسيحية، والذي لا يقرأ ويتابع لا يستطيع معرفة حقائق الوضع والحياة في تلك البلاد، وإنما يستمد معلوماته عمّا يسمعه من الناس البسطاء الذين يطلقون الدعايات دون أن يدركوا تأثيرها على مجتمعنا في الشرق الأوسط.

إن مجلة Good News (أي الأخبار السّارة) وهي مجلة دينية مسيحية تصدر عن مؤمنين مسيحيين ذوي سلطات كنسية رسمية في بريطانيا والصادرة في لندن عام ١٩٨٧، نشرت على صفحاتها حقائق الأمور وأوضحت للعالم أن نسبة المسيحيين في بريطانيا تبلغ ١١٪ وأن ٨٩٪ من البريطانيين لا يؤمنون بالله وبالدين السماوي وإنما يؤمنون بالدولة العلمانية. فكم هم اليوم؟!

إن العربي المسيحي ـ لا أظن ـ إنه يهاجر إلى الغرب ولا إلى أية دولة في العالم بسبب الدين الذي تعتنقه تلك الدولة، وهنالك الكثير من دول العالم التي لا تعتنق الأديان السماوية، ولكنها تستقبل مهاجرين وتقبل أنواع اللجوء الإنساني والسياسي إلى بلادها، والمسيحي العربي والشرقي الذي يرغب في الهجرة يتصرف مثل الغريق في البحر الذي يحاول النجاة بأية وسيلة، فهو يتجه إلى أية دولة تقبله لاجئاً وبأي نوع من اللجوء. ليس المهم دين الدولة، التي تقبله وإنما المهم أن يجد دولة تقبل به. وفي اعتقادي أن المسيحي العربي والشرقي يتمنى أن تقبله دولة عربية مسلمة يجد فيها عملاً ورزقاً لعائلته ويفضلها على اية دولة أجنبية غير عربية لأنه يعلم جيداً إنه سيضمن للأمن والأمان والتربية واللغة والقرب من الوطن لأولاده وبناته ومستقبلهم. ولا بد من القول بأنّ أكثر المسيحيين تركو وطنهم الأصلي وهاجروا إلى دول إسلامية قبلتهم مهاجرين ونازحين، ومنحتهم حق اللجوء الإنساني، واعتبرتهم من أهل البلد الأصليين، ومنحتهم كافة الحقوق التي يتمتع بها المواطن.

نعم، يوجد مسيحيون في الغرب من جنسيات متعددة، ولكنهم لا يستطيعون عمل شيء وهم أنفسهم معرّضون إلى الضياع في ظل ما يسمّى بالحرية والديمقراطية، وبقية الشكليات التي أراد منها أعداء الأديان السماوية أن تبرز وتعمل في المجتمع المتمسك بالدين السماوي لتخريبه وأبعاده عن الله جلّ جلاله الذي نعبده (مسيحيين ومسلمين) إنه من المهم جداً أن يعرف العرب المسيحيون والمسلمون حقائق الأمور في البلاد الغربية، فلا يجوز لعربي مثقف أن يعتقد بأنّ حروب العالم التي تؤججها بعض الدول المصنّعة، للسلاح هي صادرة عن دول مسيحية. ولو كانت هنالك دول مسيحية حقيقية لمنعت وقوع الحروب وأغلقت المصانع التي تنتجها وزرعت المحبة التي تؤمن بها في نفوس شعوب العالم. فالدين المسيحي بريئ من تلك الدول التي تشجع الحروب، وبريئ من كل شعب يجلب الحرب ومن كل فرد يعمل على خلق فتنة والعربي

المثقف والمتعلّم، والسياسي المدرك للسياسة العالمية يعرف حقاً أن سياسة الدول الكبرى ترمي إلى مصالحها فقط بعيداً عن الدين المسيحي وتعاليمه التي تدعو إلى السلام والمحبة.

ولا اعتقد أن نسبة المسيحيين الحقيقيين في أمريكا هي أفضل من نسبتهم في بريطانيا، وسبب كل هذا معروف حيث بدأ بنشوء الدولة العلمانية التي صادرت حقوق الإنسان والإنسانية في الدين، واستبدلتها عنوة بشرائع علمانية تعمل ضد الدين السماوي، اسمتها قوانين الحرية والديمقراطية. فانتشر الفساد وأصبح حقاً من حقوق الإنسان، وانتشرت المخدرات التي شوّهت العائلة التي تعتبر أهم وحدة بنائية في الكنيسة المسيحية وفي كل مجتمع يعتنق ديناً يعبد الله. وانطلقت جحافل الشيطان تؤسس مجتمعات فاسدة هدفها قتل الأديان والعادات والتقاليد السماوية متخذة أقنعة بيضاء كتبوا عليها (كنيسة مسيحية) لا أجد فيهم سوى تحقيق لنبوه السيد المسيح الذي قال (ياتونكم بثياب الحملان ولكنهم ذئاب خاطفة).

فلو كان الغرب مسيحياً لأمرت حكوماته بتدريس الدين المسيحي في المدارس الحكومية الرسمية، وعندها لما رأينا عائلات المسيحيين الحقيقيين من سكان البلد الأصلي، ومن المهاجرين يسعون إلى إلحاق أولادهم وبناتهم في المدارس الأهلية الخاصة، كمدارس الراهبات والمدارس التابعة للكنائس المسيحية الحقيقية.

ولو كان الغرب مسيحياً لما سمحت حكوماته بتأسيس وتكوين كنائس خبيثة باطلة تعمل على تخريب وتزوير حقائق الدين المسيحي.

ولو كان الغرب مسيحياً لما سمحت حكوماته بإنتاج أفلام سينمائية تحمل صفة الدين المسيحي ولكنها تزوّر الحقائق وتضعف وتشوّش تفكير المجتمع.

ولو كان الغرب مسيحياً لما سمحت حكوماته بإنتاج وتصدير الأفلام الخلاعية والإباحية بالمئات إن لم نقل بالألوف سنوياً.

فلو كان الغرب مسيحياً، لما عرضت ٧٠٪ من كنائسه وأديرته المشيدة للبيع ـ لتصبح بارات وملاهي ـ بسبب عدم وجود مصلّين.

ولو كان الغرب مسيحياً لما انتشرت عادات الفساد بكل أنواعه في مجتمعهم.

ولو كان الغرب مسيحياً لما وصلت نسبة الطلاق ٦٥٪ (بين كل ثلاث حالات زواج توجد حالتي طلاق).

ولو كان الغرب مسيحياً لما وجدت دوائر مدنية علمانية للزواج خروجاً على تعاليم الكنيسة.

ولو كان الغرب مسيحياً لما شرّعت حكوماته الزواج المثلي (الذكر مع الذكر) و(الأنثى مع الأنثى) وهذا حتى مجتمع البهائم يرفضه، واليوم يدرسون حق إعطاء التبني لهكذا زواجات.

ولو كان الغرب مسيحياً لما اعتبروا الفتاة التي بلغت سنّ الرشد وبعد هي عذراء شيئاً معيباً، إنما عليها أن تسلّم نفسها لتختبر العملية الجنسية قبل أن تتعقد (زواج تجريبي).

وهذا الذي ذكرناه أعلاه ينطبق على بلدان كندا والولايات المتحدة الأمريكية اللتان تعجّان كما في الغرب بالمعتقدات الغريبة وعبّاد الشيطان، وأصبح من حق كل إنسان أن يؤسس على ذوقه كنيسة ما عليه إلا أن يسجلها بالمجلس البلدي بمئة تابع فقط...

وهكذا بعد أن نجحوا في الغرب في قتل الدين المسيحي في نفوس نسبة كبيرة في مجتمعهم، نراهم اليوم يحاولون تكرار ما فعلوه في بلادهم على بقية دول العالم. فأطلقوا صيحات الحرية وحقوق الإنسان وأدخلوها في صفوف العالم الثالث المستهدف من مسلمين ومسيحيين، وأصبح من حقوق المرأة أن تلبس الملابس السافرة التي حرّمها الله في شرائعه وأطلقوا عبارات إتهام باطلة

(مثل ارهابيين) على بعض المسلمين محاولين عبثاً تشويه سمعة الإسلام.

من أجل هذا كله علينا نحن العرب (مسيحيين ومسلمين) الانتباه والحيطة والحذر الشديدين، وعدم الوقوع في شرك أعداء المسيحية والإسلام ومخططاتهم التخريبية لمجتمعنا العربي المشرقي ولعاداتنا وتقاليدنا الأصيلة وحضارتنا الجليلة، سيما من دعاة الصهيونية العالمية والماسونية المجرمة. . .

الهجرة والمهاجرون

الهجرة، تعني من غادر وطنه الأصلي، وهاجر إلى بلد آخر، وإذا وضعنا هذه الكلمات تحت مجهر اللغة، نجد أن كل كلمة منها تحتاج إلى كتابة فصول كاملة عنها من أجل شرحها وافياً وإدراك معانيها بعمق الإدراك. كليمات قليلة، ولكنها تعني الكثير الكثير.

هجر وطنه ليعيش في وطن بديل.

من هذا التعريف البسيط ندرك معاني الهجرة والسفر وما يعنيه الإنسان من تفكير وتحضير ودراسة وتخطيط وعمل ومخاطرة وتغيير ومبادرة. فيه قتل للوقت ولفترة من عمر الإنسان، وقتل لمرحلة اجتماعية ثمينة من حياة الإنسان. فيه التغيير في العواطف والأحاسيس والشعور بالطمأنينة، فيه الشعور بالضياع.

«هل تتذكر موقفاً تحمل فيه حقيقة السفر ومعك زوجتك وأولادك، وفي جيبك بضع أوراق من الدولارات؟ تتأمل مع نفسك وأنتم على بوابة وطنك مستعد للمغادرة؟؟ تسأل نفسك منذ اللحظة الأولى: ماذا أنا فاعل؟؟ هل أنا على الطريق الصحيح؟؟ تتضرع إلى ربك سائلًا إياه أن يجعل من هذه الخطوة ومن هذا السفر خيراً لك ولعائلتك ولمستقبلك».

وفي الملاحظات التالية يمكن وصف الهجرة بتفاصيل أكثر:

أولاً: فقدان كل شيء، فقدان الوطن، فقدان المدينة التي ولدت وعشت

بها، فقدان الشارع والجسر والمحلّة، فقدان البيت الذي عشتَ فيه وتركت بصماتك عليه في كل مكان، فقدان الشجرة التي غرستها في تلك الحديقة الجميلة الغنّاء التي سقيتها بيدك. فقدان الأهل والأحباء والأصدقاء. فقدان الجيران والطبيبين، فقدان الماء العذب الذي تعودت عليه (ماء دجلة، ماء الفرات) وفي هذا كله فقدان الذات...

كنت بالأمس فلاناً (إلى اسم معروف بين الناس، لكَ سمعة بناها آباؤك وأجدادك وعشيرتك عبر الأحقاب لكَ صفات حسنة أصبحتْ معروفة لدى الكثيرين في وطنك) وأصبحت الآن «رقماً» في سجل المهاجرين الذين ليس لهم من يعرفهم، ويحتاجون أن يعيشوا من جديد ويبدأون حياتهم من جديد لكي يتكون لهم كيان من جديد. وهذا «فلان» الجديد سيبقى (أصله غريب، وهو مهاجر وليس له جذور والثقة فيه دائماً ضعيفة).

ثانياً: الوطن: ما أحلاك يا وطن. الذي يفهم معنى الوطن يستطيع أن يتذوق حلاوته، ويتغنىّ به، ويحسّ بأن الوطن يسري في دماء الإنسان. ومن يراق سمك السالمون الأحمر على شاشة التلفزيون وهو يقذف بنفسه إلى الأرض ليسبح عكس اتجاه تيار النهر، يعرف معنىٰ الوطن وكم هو عزيز الوطن، ويشعر بحلاوته، ومهما حاول الإنسان أن يصف الوطن بكلمات جميلة فإنه يكتشف أن الوطن أغلى وأسمى وأرفع وأجلّ.

إنه ليس أرضاً وأنهاراً ومدناً وشوارع ومحلات ومقاهي وكنائس وجوامع وبشر وحفلات فحسب، لكنه شيء في داخل الضمير والوجدان والأخلاق والمشاعر والعواطف والأحاسيس الإنسانية، إنه يسري في العروق سريان الدم، إنه يسيطر على التفكير الإنساني، إنه كل شيء. ترى لماذا نهجرك يا وطن.

ثالثاً: أما البلاد الأخرى البديلة عن الوطن فقد تكون جميلة جداً لأن الله سبحانه وتعالى منحها الجمال كما منح بلادنا (الله خلق العالم وزينة بالجمال،

بالطبيعة الخلابة، بالكروم، بالأنهار، بالبحار، بالجبال العالية، بالثلوج الناصعة البياض، بالبحيرات الجميلة، بالحدائق الملونة، بالطبيعة الخضراء، بالهواء البليل، ما أجمل الله الخالق الذي صنع كل شيء). فلا يوجد فضل لأي إنسان في كونه أن الطبيعة خلابة. والسؤال الذي يطرح نفسه هنا (ماذا ينقص وطني؟؟؟ جمال؟ أنهار؟ بحيرات؟ حدائق؟؟ جبال؟؟ ثلوج؟؟ هواء؟؟ طبيعة خضراء؟؟) والجواب واضح وصريح، كل شيء موجود في بلدي وحلاوته أطيب من كل البلاد. ترى لماذا أهاجر؟!!

رابعاً: أما العيش والحياة في بلادنا، فهل مات أحد متأثراً بالجوع في بلدي؟؟ الخيرات التي وهبها الله لنا كثيرة. الأنهار التي منحها الله لنا فياضه. الأراضي التي نملكها تكفينا ولأولادنا وحفدتنا وإلى أبد الآبدين المصادر الطبيعية كثيرة أكثر من حاجاتنا. وبعض دول العالم تحتاج أن نساعدها من خيراتنا. ترى لماذا نهاجر؟!!

خامساً: والهجرة انصهار في مجتمع جديد (ضياع) هل فكرتَ في المستقبل؟ بكل تأكيد سيكون الجواب نعم. وعلمتَ أن الاغتراب هو انصهار في بوتقة غريبة. إنها مطحنة قوية عملاقة تطحن كل شيء، تطحن العقول والأفكار والعادات والتقاليد والأخلاق الخاصة والأديان السماوية والضمير والوجدان وكل شيء. وإنتاج دقيق جديد من نوعه مصنوع بأيدي خفية لا نعلم أهدافها، وقد يقول بعض الناس أن العائلة الشرقية التي تعيش في الغرب تستطيع أن تصنع من أولادها ما تشاء، وتعوّدهم على العادات الشرقية، وتشكلهم مثل الطينة بيد الفخاري. وتحافظ عليها من العادات السيئة والفساد. إن هذا الكلام جميل جداً. وأن العائلة التي تستطيع القيام بهذا هي عائلة مجاهدة مكافحة قوية، بإيمانها بالعادات والتقاليد والأخلاق الحميدة الشرقية. وهنا يجينا أحد المقيمين في الغرب قائلاً: ما نسبة العائلات التي تستطيع ذلك؟ إنها نسبة ضئيلة جداً. والجواب الثاني هو هل يمكن لهؤلاء الأبناء والذين تمت المحافظة عليهم من

المحافظة على أولادهم وبناتهم؟ وبمعنىً آخر ما هو مصير الجيل الثاني؟ وما هو مصير الحفدة (الأحفاد) لقد أصبح الدولار سيد كل شيء في الولايات المتحدة والباوند الاسترليني أيضاً في بريطانيا. وبمعنىً آخر فإن الأموال قد طغت على كل شيء. وقد سمعنا الفادي يسوع يقول: «لا أحد يقدر أن يخدم سيدين. الله والمال» فالأموال وأساليب تحصيلها ومحبتها. وعادات الفساد والمخدرات، وما يسمى بحقوق الإنسان قد فتكت بالكثير من العائلات المسيحية العراقية والشرقية المغتربة. ومن المآسي التي يواجهها المهاجر في حياته في المهجر حالات عديدة من الضياع أهمها:

الحالة الأولى (الطلاق):

ازدادت نسبة الطلاق بين العائلات العربية الشرقية، المهاجرة إلى بلاد أجنبية، وعلى الرغم من أن الطلاق غير مسموح به في القوانين والشريعة المسيحية، فإننا نلاحظ بأن الذي شجع المسيحيين العرب والشرقيين والعراقيين المهاجرين على ممارسة الطلاق. بحرية أكبر وزيادة نسبته بينهم هو الأنظمة والقوانين العلمانية التي سيطرت على المجتمعات الغربية بشكل عام.

الحالة الثانية (الروابط العائلية)

لقد فترت العلاقات العائلية الشرقية في بلاد المهجر بين الزوج والزوجة وبين الآباء والأولاد وبين الأبناء وبين الإخوة والأخوات وبين الأهل والأقارب المسيحيين العرب والشرقيين. وعلى الرغم من أن هذه الروابط تكون قوية ومتينة ومتماسكة في المجتمع الشرقي العربي المسيحي، فإننا نجد أن نسبة من المهاجرين ومع كل آسف ينقادون إلى الضياع والانصهار في المجتمع الجديد الذي يبيح كل شيء فيكون الطلاق وأسهل الطرق لمشاكلهم، ومن أبسط الأمثلة الغريبة، على عاداتنا وتقاليدنا في الشرق نجد أن ربّ الأسرة في الدول المتقدمة علمياً وعسكرياً، والمتخلفة اجتماعيا، يطلب من أولاده وبناته الذين وصلوا سن السادسة عشرة أن يغادروا البيت ويعتمدوا على أنفسهم في العيش. وهذا

التصرف يعمل على انحلال الأسرة وإتساع الفجوة بين أفرادها، ومن أهداف الماسونية والصهيونية انحلال الأسرة، وبانحلالها ينحلّ المجتمع.

الحالة الثالثة (الانتماء الكنسي)

لدى غالبية المجتمع المسيحي الغربي نجد بأن العادات والتقاليد والتعاليم الدينية، غير مهمة، ولا يبالون بها ولا يحترمونها. فالعماد مثلاً الذي يعتبر من أقدس الشرائع لدى المسيحين والذي يمارسه ١٠٠٪ من المسيحيين في الشرق الأوسط (ومنها العراق طبعاً) نجد أن نسبة من يطبقه في الغرب ضئيلة. وهكذا الشرائع الأخرى كسرّ الزواج الكنسي مثلاً.

ومن الغريب أن تطلع علينا إحدى المجلات الدينية المسيحية في بريطانيا والتي تنتقد المسيحيين البريطانيين لعدم تمسكهم، والتزامهم بالعادات والتقاليد المسيحية وقولها إن نسبة المسيحين في بريطانيا تبلغ ١١٪ فقط، وأن ٨٩٪ منهم لا يؤمنون بالأديان السماوية. أما المسيحيون المؤمنون (١١٪) فإنهم مقسمون إلى (٧٪) لا يمارسون العبادة والصلاة والصوم و(٤٪) هم الملتزمون في كل أشكال العبادة. والآن: هل تقبل بهذا أيها المغترب والمهاجر؟؟ يا ابن دجلة والفرات، يا ابن الحضارات العريقة، يا ابن الأديان السماوية: هل منحك الغرب شمائل أفضل من سمات وطنك الأصيل التي كنت تحملها في المشرق الزاهر؟؟؟

نماذج وأمثلة

أرى من اللزام وللتوضيح بالأمر الواقع أن أسرد بعض النماذج لمعيشة العراقيين في الغرب وما يعانونه من مصاعب معاشية حقيقية وليس من نسج الخيال كما قد يتصوره البعض حيث قد سمعتها ودوّنتها بلحظة سردها لي من قبل أصحابها فأقول للذكر لا للحصر:

١ ـ لا حق للوالد معاقبة ابنه لأن له حقوقاً شخصية:

في العام ١٩٩٣ (صيفاً) واحد من أهالي بلدة القوش القادم من الولايات المتحدة بعد أن سكن فيها عشرين سنة قائلاً لي: استمع إلى قصتي الغريبة العجيبة.

قصدت أمريكا وأنا متزوج حديثاً، وهناك رزقني الله ولدين وبنتين وربيتهم تربية شرقية القوشية بحسب تربيتي وكانت معي والدتي التي كانت الملاك الحارس لأولادي والإشراف على تربيتهم، ،ذات يوم وكان الأولاد قد كبروا في القامة والمعرفة إذ بجرس الباب يرن، ففتحت الباب وإذا بشاب أمريكي يبادرني بقوله: هل فلانة في البيت.

استغربت السؤال وتعجبت لأن «فلانة» هي ابنتي وكانت قد بلغت السابعة عشرة من عمرها.

قلت: نعم، ماذا تريد منها؟

قال: هي صديقتي وأرغب بنزهة معها اليوم.

وهنا غلا الدم في رأسي وانتابتني موجة من الغيرة الالقوشية فرفعت يدي وضربته صفعة قوية على وجهه أسقطته الأرض، قائلاً: عمىٰ بعينك أنت صديق ابنتي وهي صاحبتك وأنا لا أدري، لعنك الله، ثم ركلته بقدمي وأقفلت الباب ودخلت إلى الدار.

وفيما أنا في الحوار مع ابنتي وأمها، وإذا بشرطي يناديني ويقودني إلى المخفر القريب في حيّنا. وما أن دخلت، إلا والمسؤول يسألني: هل أنت فلان والد فلانة؟

قلت: نعم.

قال: كم عمرها؟

قلت: سبعة عشر عاماً.

قال: أي إنها قد بلغت الرشد، فليس لك أي حق في أن تمنعها من الخروج مع صاحبها الذي صفعته وركلته.

قلت: نعم، أنا شرقي، وهذا ما نستهجنه وهو قلّة أخلاق يمسّ الشرف والسمعة.

ضحك بسخرية وقال: هذا في الشرق المتخلّف. أنت اليوم في أمريكا بلد الحرية والحقوق ولهذا يعاقبك بالقانون.

قلت: كيف؟

قال: أما السجن وأما الغرامة.

قلت: كم مدة السجن وكم الغرامة؟

قال: السجن مدة عشرة أيام، والغرامة بمائة دولار.

فدفعت المئة دولار، وعدت إلى الدار غاضباً. وما كان مني إلا عرضت البيت للبيع مع المخزن الذي كنت قد فتحته بعرق الجبين. وما كان إلا شهر من الزمان أو أكثر بقليل، حتى بعت الدار والمخزن وحزمت حقائبي وعدت ومعي (أولادي وزوجتي ووالدتي) إلى العراق بلد الشهامة والشرف وحينما هبطنا في مطار بغداد حتى قبلت الأرض وأرغمت أولادي على تقبيلها قائلًا لهم، هذه أرضكم وفيها ستموتون وتدفنون بكرامة...

٢ ــ ابن سائق العائلة:

والثاني ربّ أسرة من تلكيف قال بحرقة قلب وحياء وجه، وبغصّة عميقة قال صاحبه لأنه هو لم يستطع الكلام قال: فلان، هاجر قبل عشرين سنة، شاباً يافعاً ومعه زوجته وهناك في أمريكا رزقه الله وأصبح صاحب أموال بتجارة رائجة رابحة، فبنى له داراً (فيلّا) وأسواق عديدة.

ومرت الأيام سريعة فأنجبت له زوجته ثلاثة أولاد ولدين وبنت واحدة . . .

وذات يوم تزّف زوجته له البشرى أنها حامل فشكر الرب على نعمته، وراح ينتظر موعد الولادة بصبر شديد وذات يوم دق التلفون في مخزنه وصوته يحمل له البشرى أن زوجتك في المستشفى تنتظر ساعة الانجاب، فأغلق مخزنه وتوجه نحو المستشفى بفرحة كبيرة، وما أن دخل المستشفى قصد حيث زوجته ترقد، فحمد الله على سلامتها وقبلها وسأل عن الطفل ليحمله على ذراعيه، فأشارت زوجته إلى مولود مضجع إلى جانبها.

وإذا به يتفاجأ، ماذا يرى، طفلًا أسود البشرة بلون القير، وشفاه غليظة كشفاه الجمل، وعينان كومضة شمعة في عتمة الليل، فرجع إلى الوراء قائلًا ما هذا، هل هذا ولدي، يا فلانة، من أين هذا المولود؟

قالت زوجته بكل قوة، هذا ليس ابنك، إنما هو من سائقنا الزنجي فلان، فقد عاشرته وأنجبت منه لأنني أحبه.

فما كان منه إلا وحلف اليمين الثقيلة أن لا تعودي إلى الدار فأنت لست زوجتي ولا هذا ابني إذهبي حيث تشائين، يا زانية.

ومنذئذ يعيش لوحده وزوجته اختفت إلى ما شاء الزنجي أن يرافقها. . .

واردف هذا ما جنيته من غربتي وهجرتي، فيا ليت ما هاجرت وبقيت أعيش بكسرة الخبز اليابس وشربة ماء بحياة الهدوء والسلام والنعمة. . كل شيء انتهى إلى غير رجعة. .

٣ ــ ابنه تطلقه زوجته، وزوجته تطلقه:

كان يعيش برغد ورفاهية مع عائلته بالموصل، أيامه تجري بهدوء وسلام، ساهراً على أولاده حتى تخرجوا من الكليات، وقسماً منهم تزوجوا وانفردوا بعوائلهم، ولم يبق لديه إلا ابنه الصغير، وشاءت الأقدار أن يتزوج من إحدى

قريباته التي تسكن مع والدتها وأخواتها في أمريكا. وتم الزواج بسلام تام، إلا إنه لم تمرّ بضعة أشهر إلا وطلبت وبإلحاح زيارة والدتها التي اشتاقت إليها فسافرت بعناية الله.

مرت شهور بل سنة والزوجة لم تعد، حتى مخابراتها انقطعت عن زوجها طالبة منه السفر إليها مما اضطر بالأخير أن يلبي الطلب، وسافر على أمل اللقاء مع زوجته، وهناك يتفاجأ بأن زوجته لا ترغب بالسكنى معه، بل صارحته إنها تحب شخصاً آخر وعليه أن يقرر.

حاول الزوج المسكين أن يقنعها بكل الوسائل فكان إصرارها على رأيها يشتد ويقوى، فأرسل إلى والدته لتكون عوناً له، فأرسلها أبوه لملاحقة القضية.

سافرت الأمّ ومر شهور ولا خبر، فسافر الأب مضطراً بعد أن نال إجازة شهر ليعلم جلية الأمر، وهناك تكون المفاجأة الكبرى حينما وصل وسأل عن زوجته، فقيل له إنها ليست هنا فهلّم معنا إلى البحر لأنها على الشاطئ فسار وقلبه يخفق خوفاً وحياء، وحينما وصل وجد زوجته (أم الولد) مرتدية (المايوه) ومعها شخص يحضنها كأنه زوجها، وهكذا كان، فرمت عليه الطلاق وبقيت مع الزوج الجديد قائلة: دعني أعيش أيامي بحريتي يكفي لي السجن، أعطني حريتي التي هضمتها عليّ. فقال لها يا امرأة ما هذا الأمر، ماذا تقولين لأولادك، قالت خذهم معك وادفنهم في سجنك، أنا بعد لا أريد أن أقضي أيامي الأخيرة معك..

هذا أكتبه هنا لأنني أعرف القصة كما وقعت وجرت.. هذه حضارة أمريكا بالحرية والإنسانية.

٤ ـ يسوع جدّك

ذات يوم قائظ، وقفت لي سيارة وأنا على الأوتستراد يقودها شاب لبناني يافع يبلغ الثلاثين من عمره. ودار بيننا هذا الحديث:

قال: أنا، أبونا، لبناني قضيت في فرنسا أكثر من عشرين عام، حيث قصدتها مع عائلتي طفلاً.

قلت: ولماذا تركتها والناس اليوم يتكالبون على الهجرة.

قال: أقص لك قصة أغرب من الخيال. عشت في فرنسا وصار لي أصدقاء من أيام الدراسة والعمل، وذات يوم قدم لزيارتي أحد أصدقائي بعد أن كوّنت عائلة بزوجة لبنانية صالحة، وأولاد أطهار.

دخل الزائر، وقبل أن يجلس، وقف أما صورة يسوع كانت معلقة على الجدار وكنت اعتزّ بها كثيراً، وبعد تأمل عميق وطويل، التفت إليّ وقال:

ـ فلان، هل هذا هو جدّك، إنه لبناني صميم.

قلت مقاطعاً وبقوة، ماذا تقول، هل حقاً تعتقد أن صاحب الصورة هو جدّي اللبناني.

قال: نعم، لماذا أنت غاضب، إذا هو ليس جدك، هو أبوك أو عمّك، انظر إلى لحيته وشواربه. يشبه اللبنانيين القدماء.

قلت: دعك من هذه السفاسف، هذا يسوع الرب ابن الله الحي، ألم ترَ صورة يسوع بعمرك.

قال: ومن يكن يسوع، أنا لا أعرف شخصاً بهذا الاسم.

قلت: جازاك الله، هل أنت لست مسيحياً؟

قال: لا. أنا لا دين لي، لا أؤمن بإيمان العجائز، أنا حرّ، وديني خاص بي.

قلت: هل حقاً، هذا أنت بلا دين وبلا معرفة.

قلت: نعم، أنا بحريتي، أعيش كما أريد..

وهنا غضبت غضباً شديداً وقلت: أترك بيتي، أنا لست صديقك ولا أنت

صديقي. وبعد فترة اتفقت مع زوجتي أن نترك فرنسا حفاظاً على أولادي وإيمانهم، لنعيش في لبنان كيفما كان من المعيشة وليس في فرنسا الملحدة، وعدت والعود أحمد، أشكر الله على كل نعمه وبركاته.

٥ ـ تركها أولادها، ويلاحقها شهود يهوه:

كانت تعيش ضمن عائلة مسيحية مؤمنة ملتزمة، وكانت ترغب أن تكون راهبة ضمن دير معين، إلا أن الرب لم يتح لها فرصة الانضمام، بقيت مواظبة على كنيستها تمارس فيها واجباتها الدينية وشاء القدر أن تسافر إلى كندا، وهناك التقت مع أحد العراقيين أرمل، عمره من عمرها، وله ولدين، بنت وشاب، عمرهما بين ١٣ و١٥ سنة فتزوجته وتبنّت ولديه وعاشت معهم عدة سنين بالراحة والهناء وهي تمارس حياتها الكنيسة ـ كالسابق من أيامها.

فإذا القدر الظالم ينتصب أمامها، فسلب منها ولديها بحجة حقوقهما التي يسمح عمرها بالحرية في العيش لوحدهما. ومن بعدهما شرع أعضاء من جمعية «شهود يهوه» يلاحقونها لإقناعها باعتناق مبادئها الهدامة وهي ترفض بإصرار إنها لن تعتنقها بل ستحاربها بكل قوة.

قالت لي في إحدى مخابراتها: يا ليت لم أسافر إلى هذه البلاد، بلاد الإنفلات والإلحاد، لا أخلاق، لا إيمان، حضارة هوائية، كن على ثقة أي فرصة، ستسنح لي بالعودة، سأعود إلى أرضي الطيبة ووطني الخالد، وطن الحضارات والمكرمات.

٦ ـ عائلة مشتتة:

قدمت عائلة عراقية مسيحية وسكنت في جونية، لبنان، مهاجرة من البصرة تتكون من أمّ أرملة عمرها بالستينات وولدين شابين وفتاتين شابتين أيضاً وكان لها ولدين أحدهم مهاجر إلى اليونان والآخر في ألمانيا... ومرت ثلاث سنوات أو أكثر وإذا بأحد اشابين يقصد النروج، وبعد فترة تقضي الأم وتلبي

نداء ربها فتدفن في لبنان، وبعد فترة قصيرة يلبي طلب البنتين وأخوهما للهجرة ولكن بغرابة ملحوظة:

الابن في كندا بإحدى المدن التي تبعد عن أخته الأولى بسبع ساعات طيران، والأخت الأخرى بعيدة عن أخيها وأختها بمدينة ثالثة تبعد عن الآخريين بمسافة خمس ساعات بالقطار، وهكذا ستقضي العائلة أيامها الواحدة مع الأخرى ومع الإخوة الثلاثة الذين كل في بلد، متى سيجتمعون كعائلة واحدة في بلد واحد، متى سيتعارف أولادهم مع الآخرين، إنه لأمر غريب في هذه الهجرة الإنسانية، وكم يتمتع الأوروبيون بالإنسانية، والإنسانية بريئة عنهم، سوى المصالح والاستغلال.

٧ ـ تركت زوجها وتشرّدت بناتها

عائلة عراقية من القوش (شمال العراق) كلدانية تتكون من سبعة أفراد قدمت إلى لبنان بعد السقوط (سقوط نظام صدام) بعام وسكنت في سدّ البوشرية (بيروت)، مرّ عام وبعض عام سافروا إلى استراليا، مهاجرين إليها باستقرار وأمان ولم يمضِ بضعة، أشهر إلا والمرأة تترك زوجها وأولادها ومضت إلى حال سبيلها بعيداً بعيداً، وبعد فترة قصيرة اختفت البنات الثلاث في غياهب المجهول، وهكذا تفتت تلك العائلة التي كانت في العراق متدينة، متماسكة، ملتزمة، مباركة ومسيحية، بفعل الهجرة تبخرت تلك الصفات وانتهت العائلة بفعل الحرية والديمقراطية والحضارة الغربية.

٨ ـ لا ذكر لله في المجتمع الأمريكي:

عائلة أخرى من تل اسقف تركت العراق وقدمت إلى لبنان وسكنت أيضاً في سدّ البوشرية، ومرّ على سكناها قرابة السنتين ومن ثم هاجرت إلى أمريكا (الولايات المتحدة) ولم يمضِ على هجرته مع أفراد عائلته الخمسة إلا واستلمت مخابرة هاتفية منه وبعد تبادل التحيات والتمنيات سألته كيف هي حياتك بأمريكا

قال لي متألماً ومتحسراً: يا أبونا يا ليت لم أهاجر إلى هذا البلد الغريب عني وعن تراثي حيث ندمت كثيراً إذ وجدت انتشار المادية وعدم الإيمان حيث لا يستطيع المرء أن يظهر إيمانه بالله والتوكل عليه أو الحديث في الكنيسة، وقديسيها وتعاليمها إذ يستهزئون به ويعتبرونه من المتخلفين، وبالمناسبة عاقب مدير المدرسة ولدي بحجة إنه يتكلم مع التلاميذ بتعاليم الدين والكنيسة وإنه يكثر في كلامه كلمة الله الرب، حتى أن العراقيين المهاجرين إلى هنا منذ مدة هم كذلك لا يؤمنون كما ينبغي خاصة الأجيال الجديدة الذين فقدوا كل المقومات العائلية والكنسية. والعراقية الأولى، فأتمنى أن أعود، وأنا مستعد للعودة إذا ما وفّروا لي نقود العودة.

قلت له: لقد نصحتك كثيراً بعدم الهجرة.

قال: نعم، ويا ليت لم أهاجر، فأنا هنا أشعر كأنني لست إنساناً سوياً.

قلت: ما عليك إلّا بالتمسك بالعادات والتراث والتعاليم التي نشأت عليها ولقنها باستمرار لأولادك وحاول بثبات الإيمان وقوة الإرادة أن تنشر لما حولك من الأصدقاء والمعارف للمواظبة على الصلاة والعمل الصالح ومساعدة الكاهن في رسالته لإعادة بريق الحياة العراقية في المهجر والله يرافقكم وينجيكم من المجهول. . .

٩ ـ مسيحية الهوى:

عائلة ثالثة أيضاً تركت العراق إلى لبنان، ومنه إلى أمريكا بحسب الموعد والشرط، كانت تتكون من الوالدين وثلاث بنات وولد واحد، كانت متزنة، مسيحية ملتزمة وممارسة للحياة الإيمانية، بأخلاقها وسلوكها. . . وعندما حان موعد السفر هاجرت، تاركة وراءها طيبتها ورقتها وعمقها بالتزاماتها ومواظبتها على الصلاة والعبادة.

لم يمضِ على هجرتها ستة أشهر وتلقيت هاتفاً من إحدى بناتها ـ ثم

تكلمت مع جميعهم فرداً فرداً، وكانت شكاواهم واحدة وبألم مرير وحسرات مفارقة البلد والأهل والكنيسة.

قالت إحداهن: يا أبونا، هل أوصى السيد المسيح بالصوم، وهل هذا مذكور في الإنجيل المقدس؟؟

قلت: نعم، حينما سأل الفريسيون يسوع لماذا تلاميذك لا يصومون، وتلاميذ يوحنا يصومون؟ قال لهم، هل أهل العرس يصومون، ما دام العريس بينهم؟ ولكن متى ما ارتفع عنهم العريس عندئذ يصومون. ويسوع قصد بذلك نفسه الذي كان العريس بين التلاميذ، ولكنه حينما ارتفع إلى السماء وتأسست الكنيسة عندئذ شرعوا بالصيام ومن ثم قننت الكنيسة نظام الأصوام.

قالت: يا أبونا، المسيحيون هنا لا يقبلون ذلك ولا يصومون، وكذلك الكاهن الموجود هنا يؤيد أفكارهم وهو لا يصوم.

وقالت الثانية: أبونا هل يجوز التناول المقدس دون سر الاعتراف؟

قالت: أكيداً لا، ولكن الكنيسة ببعض الأحوال تسمح بتناول القربان المقدس دون الاعتراف، على أن يعترف بالخطايا بأقرب فرصة، وإلا يصبح التناول المقدس عادة روتينية دون الاهتمام بالاعتراف وهذا أمر مخالف لعرف الكنيسة وتقليدها.

قالت: وهل هذا مذكور في الإنجيل؟

قلت: نعم، مار بولس يقول: ويل لمن يأخذ جسد الرب دون استحقاق، وقال يسوع: من غفرتم لهم خطاياهم تُغفر لهم في السماء وهناك الكثير من الشواهد والإنجيلية وآباء الكنيسة على ممارسة السرّين الاعتراف والتناول.

وهنا تناولت الهاتف والدتهم وقالت: يا أبونا، نحن هنا والحمد لله نعيش بخير وبركة، ونعمة وسكينة، ولكن ما يقضّ مضجعنا هذه الجمعيات الدينية

المتعددة الألوان والآراء: شهود يهوه، ، المورمون، عبّاد الشيطان، يلاحقوننا، إلا إننا بنعمة الله مؤمنون.

قلت: واظبوا على الصلاة وممارسة الإيمان والتزموا الحيطة والحذر، أصمدوا في التعاليم، لا يغلبنكم الشيطان، فإن الشيطان لا ينام، كما يقول مار بولس، ابتعدوا عن التعاليم الجديدة، واعبدوا الله بقلب صادق مفعم بالإيمان والمحبة والرجاء.

وبعدها تحدثت إلى ولدها الكبير واوصيت له بكل الوصايا النافعة التي تذكي الحياة وترفع مقوّماتها وتقويها. وودعتهم بسلام الرب.

١٠ ـ الكاهن والكلب:

حكى لي أحدهم ـ وهو من أصدقائي الكهنة ـ قال: ذات سنة كلفني سيادة المطران أن أسافر إلى فرنسا لأخدم مكان كاهن الرعية هناك لسفره بفرصته الصيفية. وفي اليوم المحدد سافرت، ووصلت الحي بحسب العنوان الذي استلمته من المطران.

قصدت ـ وكان الوقت صباحاً ـ الكنيسة فوجدتها مقفلة وعدت انتظر عند أحدهم إلى الظهر، فقصدتها فإذا هي مقفلة أيضاً وعدت إدراجي حتى العصر، فقصدتها ثالثة، فوجدت بابها الكبير مفتوحاً فدخلت إلا إنني فوجئت بأنه لا أحد في الكنيسة فجلست على كرسي بساحتها انتظر الكاهن الموعود به.

مضى وقت غير قصير، وإذا برجل طويل حليق الوجه ـ يرتدي بنطلوناً أزرق عليه آثار وسخ العمل، ممزق الطرفين، يقود بيده كلباً غريب الشكل، وفي فمه غليوناً معقوف الطرف، تقدم مني وكنت بكامل الزيّ الكهنوتي، ومدّ يده قائلاً: أنت الكاهن الذي تتولى أمور الكنيسة عني مدة غيابي؟

قلت: نعم.

قال: أهلاً وسهلاً، هيا معي لتسليم الأدوات الخاصة ثم أسلّم لك مفتاح

الكنيسة والغرفة التي تسكنها، فسار أمامي ودخل الكنيسة ومعه كلبه يجري أمامه والغليون مستمر في فمه وأنا وراءه استمع إلى شروحاته ومستغرب من سلوكه الشاذ ومن أقواله التي لا معنى فيها.

وبعدما انتهى من شروحاته وتوضيحاته، تأملت سلوكه وهيأته وحكّمتُ الضمير فقلت له وبإصرار، أنا اعتذر، وأرفض البقاء هنا لأخدم مكانك، فأنت لست كاهناً ولا ملتزماً بشيء من روحانية الكهنوت، فالله معك ويهديك إلى سواء السبيل، وخرجت ولم أعد إليه إلا أنني تفاجأت بأغرب حينما قصدت الكنيسة صباحاً لأقيم الذبيحة الإلهية.

حينما تقدمت إلى الكنيسة ـ كنيسة ثانية غير التي قصدتها أولاً ـ وجدت ما يندى له الجبين فتى وفتاة في وضع مخالف للطبيعة حتى إنني ركلتها برجلي إذا كانا نائمين على باب الكنيسة مباشرة.

فامتعضت كثيراً وعدت أدراجي كئيباً، وعزمت العودة وأنا ألعن فرنسا ومجتمعها وحضارتها. هذا هو الغرب الملحد اللاأخلاقي، أمّ الإباحية والعلمانية الملحدة. وعدت إلى بلدي بلد الإيمان.

١١ ـ صورة حية:

عائلة مسيحية أخرى تركت العراق (الموصل) وقدمت إلى لبنان وسكنت في سدّ البوشرية، فكانت تتألف من والدين وخمس بنات البالغات منهن ثلاث واثنتين صغيرتين. عائلة متدينة ملتزمة بكل الواجبات والفروض المسيحية، قانعة بمعيشتها البسيطة، ولها قناعة نابعة عن الإيمان القوي بالمحبة والرجاء. لم تغب مرة عن حضورها القداس أيام الآحاد والأعياد، تعمل للمعيشة بكفاف الأيام، تمارس أعمال الرحمة مع كل جيرانها ومعارفها، كريمة بما يجود الله به للآخرين.

مكثت في لبنان ثلاث سنوات، ولما حان وقت سفرها إلى أستراليا ودّعت

أفرادها مؤكداً على الصمود والثبات في صمودها أمام كل التحارب، يتحدون الشرير من أين أتىٰ، راسخين في عاداتهم وتقاليدهم ملتزمين بإيمانهم وتراثهم.

مرّ شهرين أو ثلاثة، وذات صباح رنّ الهاتف في غرفتي وتحدثت فإذا صوت والد العائلة ففرحت بالكلام معه وطمأنني بثباته والتزامه هو وأهل داره بل الوصايا التي نشأ عليها وهكذا فرحت بالجميع حينما حدثوني.

وآخر من تحدثت كانت الأم ـ التي ربّت، وأحسنت التربية ـ

قالت: يا أبونا، كأنك كنت تسكن هنا في أستراليا، فكل ما تكلمت عنها وعن مجتمعها هو صحيح بصحيح، الناس فاسدون، لا إيمان لهم ولا محبة، كذّابون منافقون، أنانيون، همّهم المال من أين أتى، لا يميزون بين الحلال والحرام، المسيحية بينهم فاترة، لا صلاة (وردیات) ولا زياحات، ولا زيارات، كهنتهم مثلهم لا هم لهم سوى بطونهم وجيوبهم... يا ليت نعود إلى لبنان ولكن لا بد من العودة يوماً من الأيام.

قلت: صبراً، عليك بالمحافظة على عائلتك، كوني أما ومعلمة كما الكنيسة هي أمّ ومعلمة، دبّري أمورهم، شجيعهم على المواظبة والممارسة للإيمان والتمسك بالحياة الكريمة.

هذه صورة حية سُقْتها هنا كدليل وبرهان لكلامنا عن الغرب المادي المستغل للفرص والعالم الجديد (أمريكا) بمؤامراتها وعلمنتها التي تبشر بها وتقودها، وعن الديمقراطية الكاذبة بحريتها الفوضوية التي يقودها الغوغائيون تجار الحروب، وقادة المجاعات. أساطين الإلحاد والهجمية، وهذا ما فعلوه بالعراق الآمن وشعبه المسالم، فما أن دخلوه حتى كسروا صورته وهشموها وجعلوه محرقة لا ينطفئ أوارها، وزعوا فيه بذرة التفرقة والتمييز العنصري والقومي والديني فانتصبت كل أطواد الموت والدمار بالخطف والسلب والنهب والقتل على الهوية والمذهب.

الفصل الخامس

المسيحيون العراقيون
ودورهم في بناء العراق الحديث

مقدمة

المسيحيون، ضحية التاريخ، وصورة الواقع في كل عصر وكل مَصْر. فقد حملوا في أعناقهم ذنوب الآخرين، فكانوا كبش الفداء بمحرقة حقد الشعوب.

عاش المسيحيون العراقيون مع إخوانهم المسلمين فترة الحكم العثماني (١٥٣٤ ـ ١٩١٨) محتملين صعوبات العهد وشقائه وعراقيل الحياة الاجتماعية والاقتصادية في تخلّف مدقع، محرومين من كل سُبل التطور والتقدم، منغمسين في حمأة الظلم والفساد، بعيدين عن ميادين الفكر والنهضة وذلك بسبب النظرة الشوفينية الفوقية. فكان العراقيون جميعاً والحالة هذه مضطهدين ينتشر بينهم الجهل والفقر والمرض.

ومع كل الضغوطات، فإن بعضاً من المسيحيين استطاعوا أن يبرزوا على المسرح الاجتماعي والثقافي والاقتصادي، واظهروا كفاءة عالية من الحرص على النهوض، فساهموا عميقاً في حركة اليقظة العربية، سيما في النطاق الفكري وعلى قدم المساواة مع إخوانهم العرب المسلمين والمسيحيين في لبنان والشام.

قبل أي معالجة للموضوع، لا بد من ملاحظات مهمة يجب الأخذ بها قبل

الولوج فيه سيما بهذا الزمن الصعب الذي يمرّ بالعراق الحبيب، والعراقيون جميعاً يكتون بنار الاحتلال الغاشم والأصولية العنيفة، علماً إنهم مدعوون اليوم لافتتاح صفحات تاريخ جديد في مطلع الألف الثالث.

لا شك، إنني أعالج موضوعاً حساساً، ولكني أجده ولازم لأن أخوضه وأنا بعيد عن أرض وطني في الاغتراب ـ والغربة قاتلة ـ والموضوع هذا، لا بد من إدراك جوانبه ودواخله من قبل أبناء العراق جميعاً دون تمييز قومياً ودينياً ومذهبياً. فالأمر يخصّ الجميع خصوصية خاصة، إذ هو ـ إن مخ التعبير ـ خلق عراق جديد في كل الميادين السياسية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية.

من الأمور المهمة الواجب إدراكها والتأكد عليها هو أن المسيحيين في العراق ليسوا أقلية بما تعنيه الكلمة، لأن هذه (الأقلية) كانت يوم دخول الجيوش الإسلامية لفتح العراق تسعة ملايين نسمة، ماذا بقي منهم؟ ولماذا؟. ثم أن هذه الأقلية لعبت دوراً مهماً وصادقاً في حضارة الدولة الإسلامية في العهدين الأموي والعباسي ـ وخاصة العباسي ـ وكتب الحضارة مع جميع مصادرها ومراجعها تؤكد هذا الدور الجليل الذي لعبه المسيحيون في حضارة العراق على كافة الأصعدة الحياتية، وجميع ميادين نشاطها الحضاري، ولست هنا بمعرض الاستعراض ودراسة هذه الفترة فشهادات المؤرخين تؤكد هذا الدور الحضاري العظيم.

ما أجده ضرورياً ومهمّا هنا هو التأكيد على دراسة فترة مائتي سنة الماضيات، لِما لهذه الفترة من مكانة في نهضة العراق الحديث، وما أنجزه المسيحيون بالذات في هذين القرنين (١٨٠٠ ـ ٢٠٠٠).

المسيحيون العراقيون اليوم، هم، هم، كأجدادهم الأولين في حبهم وموالاتهم لأرضهم العزيزة، وعزمهم على بناء العراق ورفع رايته على جميع أرضه يظلل جميع أبنائه كأمة واحدة، هي الأمة العراقية، فالمسلم السنّي والشيعي عراقي، والمسيحي الأشوري والكلداني والسرياني عراقي، والكردي

والتركماني عراقي، اليزيدي والصابئي عراقي، فهيا إذن، وقد حان الوقت لرفع شعار «الأمة العراقية الواحدة والمتوحدة، في عراق واحد متوّحد» فقد آن الآوان للانصهار في وطن واحد عزيز حبيب.

المسيحيون العراقيون معروفون بوطنيتهم الخالصة والصادقة على مدّ التاريخ. لهذا كان ثقلهم التاريخي والحضاري، ومكانتهم الواسعة والعالية في العراق الحديث والمعاصر، ووجودهم الحيّ واجب ولازم عبر مؤسساتهم الدينية والاجتماعية بأديرتهم، وكنائسهم، ومدارسهم، ومطرانياتهم، وخورنياتهم، وخاصة في الموصل الحدباء، وبغداد الزوراء، والبصرة الفيحاء.

فالموصل بما يحيط بها من مدن وقرى: باخديدا، كرمليس برطلي، تكليف، تل أسقف، باطنايا، وباقوفا، والقوش، وغيرها الكثير المبثوثة في شمال العراق كنجوم السماء. فمنذ عشرين قرناً وهم يعطون بسخاء من روحهم وأفكارهم، واقتصادهم وكل ما يعتزون به لخدمة وطنهم العراق ونهضته مجاراة للعالم الناهض والمتقدم، يسقونه بدمائهم وعرق جبينهم يدافعون عنه في كل سبيل سلماً وحرباً.

لم أكن أفكر يوماً أن أكون بموقفي هذا، أن اكتب مدافعاً عن المسيحيين العراقيين، لأنني كنت أعتبرهم واحداً مع الشعب العراقي المتوّحد فكراً وثقافة وآمالاً. لا يميزهم، ولا يفرقهم أية قوة، وأيّ دخيل. إلّا إنه اليوم حدث ما لم يكن متوقعاً، فأجد من الضرورة الكلام ورصد الأحداث.

كلنا يعلم أن الشعب العراقي بكافة قومياته وعناصره ومذاهبه وتياراته واحداً، قد تجانس وتناغم، فقد مرّت عليه ذات الأحداث وذات الأيام، حلوّها ومرّها، عتيّها وخفيفها، وعملوا يداً واحدة لتقدمه، ونهوضه باسم العراق وللعراق، ومن العراق.

اليوم هناك موجات عاتية، ورياح عاصفة، تحاول قلع العراق والعراقيين وخاصة المسيحيين من أصولهم التاريخية وجذورهم الحضارية، فيجب الانتباه

والحذر، كل الحذر، من الأصابع الخفية التي تعمل بالظلام، والخونة الذين يعملون وراء الكواليس.

أجل، من يقرع الأجراس لاستئصال المسيحيين؟

من يقرع النواقيس لتقرير المصير؟

من يؤذّن بالناس للقتل والسلب والخطف والتهجير؟

آلاف السنين مرّت على وجود المسيحيين في العراق. فهم سكانه الأصليين الأصيلين، منذ وجود أجدادهم البابليين والكلدانيين والآشوريين والعرب المسيحيين المتمثلين بقبائل تغلب وأياد ومضر وربيعة وسُليم وطي.

فلا بد من وقفة تأمل،

لا بد من وقفة تميز وتحميص وتحقيق.

اليوم كنائسهم تفجّر، وأديرتهم تدمّر، ومتاجرهم تخرّب، ويتعرضون لشتى الاعتداءات الإرهابية بين التهديد والوعيد، والطرد والتشريد. يتعرضون كل يوم على الشتم والاستهزاء بمقدساتهم: الصليب والمسيح والإنجيل... لماذا؟ ماذا جرى في العراق وللعراقيين الذين لم يعرفوا يوماً العنصرية والطائفية والمذهبية. أكيد هم من وراء الحدود القريبة والبعيدة، يرغبون في تشويه وجه العراق الصافي النجيب، ووجوه العراقيين الشريفة ذوو الغيرة والشهامة، وقطع أيادي المواطنين المسلمين والمسيحيين المتحابكة دوماً للحق والحقيقة.

إذن، لا بد من التعريف بأولوياتنا الأمنية والوطنية قبل كل شيء. فنحن عراقيون قبل أي مرجعية «قومية أو دينية وسأبقى مدافعاً عن حقوق كل العراقيين بكافة انتماءاتهم الدينية والعرقية والمذهبية، من أجل استعادة مجد العراق وازدهاره، وعودته ثانية فيصب قدراته الحضارية في العلم والمعرفة في بحر الحضارة العالمية عبر رافديه دجلة والفرات المعطائين أنهار الجنة الأرضية والفردوس المفقود من خلال الوطن الواحد والشعب الواحد.

روّاد النهضة:

من أجل الصور لهذه اليقظة والنهضة هو ظهور رجالات سياسية وثقافية واجتماعية عملوا سوية يداً بيد مع أخوانهم العرب المسلمين، سيما تلك المواقف الوطنية التي أمتازوا بها تذكر وتشكر، فلا بد من الوقوف على جملة الحقائق المهمة التي تكاد أن تكون مجهولة عند المثقفين العرب، حتى عن العراقيين أنفسهم علاوة على الغبن والجفاء والتعتيم الذي قاسوه ويقاسونه من التاريخ، عندما يشار إلى غيرهم من مصر ولبنان وبلاد الشام. وهم أعلام نهضويون مرموقون قدموا خدمات كبيرة لنهضة العراق ولم يزل تأثيرها البالغ في الحياة العراقية والعربية الحديثة. ومن المؤسف حقاً أن يقدّر ويثمن هؤلاء في بلدان أوروبية، ولا يعرفهم العرب أبداً وهم أبناء الرافدين الأقحاح.

أولاً ـ المؤسسون الأوائل:

كان العراق دوماً السبّاق إلى طلب الحضارة والتقدم سيما لابنائه المسيحيين الذين برز منهم الشخصيات النهضوية في قيادة الحركة في القرن التاسع عشر. هؤلاء القادة، يكاد يكون تاريخهم مستتر خفي عن المصادر والمراجع بفعل التعتيم الذي مورس ضدّهم، وعليه لا بد من وقفة عند هؤلاء الرواد المسيحيين الأوائل وقفة إجلال وإكبار.

١ ـ القس إلياس بن حنا الموصلي (القرن السابع عشر)

قام برحلة أمريكا بين (١٦٦٠ و١٦٨٣) وكتب عنها وصفاً دقيقاً نشرته مجلة المشرق عام ١٩٠٦ تحت عنوان: «رحلة أول شرقي إلى أمريكا» وتتضمن معلومات فريدة عن تلك البلاد لإنها أتت كتسجيلات يومية في نيتنا نشرها ثانية.

٢ ـ يوسف عتيشا الموصلي:

عالم كبير باللغات الشرقية. ولد بالموصل عام ١٥٩٩، وتوفي في ألمانيا عام ١٦٨٠ حيث رحل إليها والتحق بمعهد الاستشراق التابع لجامعة فيتنبرغ،

بعد أن كان قد درس اللغات الشرقية السامية، القديمة وتاريخها في فلسطين. وتقديراً لجهوده حفرت الجامعة صورته على قطعة خشبية اعتزازاً به.

٣ ـ خضر إلياس هرمز (١٦٧٩ ـ ١٧٥٥)

رحالة عراقي، ولد في الموصل، سافر إلى روما وزار الفاتيكان عام ١٧٢٥، وعاش فيها حتى وفاته بها، وكتب رسالته «رحلة من الموصل إلى روما سنة ١٧١٩» ويعتبر من أوائل المتكثللين من الكنيسة النسطورية حيث يذكر اضطهاده من أجل ذلك.

٤ ـ المطران اقليميس يوسف داود (١٨٢٩ ـ ١٨٩٠)

رائد نهضوي حقيقي. يعدّ من المتيزين العراقيين في ثقافة العصر. تلقى علومه في روما. وعاد إلى مسقط رأسه الموصل عالماً كبيراً، وبرز فيها كمعلم ومربي. فاتقن عدة لغات تقرب العشرين. وكان بحراً في اللغة العربية. وهو أول من طبع كتباً مدرسية في نحو وصرف العربية، وعلم الحساب والجغرافية، والتاريخ المدني والكنسي، إضافة إلى نحو اللغة السريانية واشتقاقاتها وغيرها من العلوم. وقد خرج من حياته بحصيلة من الكتب بلغت ٨٥ مؤلفاً في مختلف المعارف والآداب وقد انتخب عضواً عاملًا في الجمعية الآسيوية الملكية البريطانية عام ١٨٩٠، ويعدّ من رواد النهضة الفكرية العربية الحديثة بسبب غزارة إنتاجه العلمي والثقافي وبلغات عديدة.

٥ ـ البطريرك جرجس خياط (١٨٢٨ ـ ١٨٩٩)

ولد في الموصل، واصل علومه في روما، وسيم كاهناً عام ١٨٥٣ وعاد إلى وطنه عام ١٨٦٠، وسيم مطراناً على العمادية عام ١٨٦٠، وانتخب بطريركاً عام ١٨٩٤. اهتم بالتأليف والنشر والتعليم بما أصدره من كتب مدرسية بالعربية والسريانية، واعتنى كثيراً بفتح المدارس الخاصة بطائفته الكلدانية الواسعة الأرجاء والكثيرة العدد.

٦ ـ البطريرك أفرام رحماني (١٨٤٩ ـ ١٩٢٩)

ولد بالموصل، قصد روما عام ١٨٦٣، ودرس في جامعة بروبغندة، وحصل على الإجازة في الفلسفة واللاهوت، وسيم كاهناً، وعاد إلى طنه، ليصرف جهوداً وافرة في النشر والتأليف، وأصدر مجلته «الآثار الشرقية» بدير الشرفة/ لبنان بعد أن اعتلى كرسي بطريركية انطاكية عام ١٨٩٨، فنشر العشرات من البحوث والمقالات التاريخية والتراثية، في ميادين الليتورجيا والآثار واللغات. كان يتهافت العلماء في أوروبا لحضور محاضراته أثناء وجوده في تلك البلاد، وكانت حصيلة حياته أربعين كتاباً باللغات العربية والفرنسية والسريانية.

ثانياً ـ رجال نهضة العراق الحديث

عندما نشأت الدولة العراقية، عام ١٩٢١، راح العراقيون جميعاً يتكاتفون لنقلة نوعية في التقدم والبناء، لخلق عراق متميّز كما كان متميزاً بحضارته الأولى أيام البابليين والآشوريين والكلدان، فراح أحفادهم من المسيحيين يتسابقون في نهضة نوعية متكاملة، يدفعهم في ذلك حماسهم الوطني وحبهم العميق للعراق العظيم، سيما بتلك المواقف الوطنية الصادقة وعلى سبيل المثال لا الحصر:

١ ـ الصحفي داود صليوا (١٨٥٢ ـ ١٩٢١)

أصدر جريدة (صدى بابل) سنة ١٩٠٩، وشنّ حملاته القلمية على العثمانيين ولا سيما (حزب الاتحاد والترقي) وطالب بحقوق العرب. ولمواقفة الوطنية سجن أكثر من مرّة في العهد العثماني، وبعد الحرب العالمية الأولى، نفي إلى القيصرية بأمر والي بغداد جاويد باشا ثم أطلق سراحه ولكنه بقي على منهجه الوطني المكافح حتى وفاته.

٢ ـ ثابت عبد النور:

مناصل شهير انخرط في شبابه بصفوف جمعية العهد العربية لمقارعة الظلم

العثماني. وراح يعمل بحماس متميز للمطالبة بحقوق العرب واستقلالهم. فسجن وكابد الكثير من الاضطهاد إلى حين قام الحكم الوطني. فتعيّن سفيراً للعراق في السعودية وحاز على الأوسمة الكثيرة تقديراً لجهوده الوطنية ومواقفه السياسية الفاعلة.

٣ ـ البطريرك عمانوئيل توما (١٩٠٠ ـ ١٩٤٧)

ولد في القوش. درس في اكليريكية غزير للآباء اليسوعيين في لبنان. اشتهر إبان الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ ـ ١٩١٨) بالميراث الجزيلة تجاه الفقراء والمحتاجين. مما يذكر عنه، عندما احتل الجيش البريطاني العراق ودخل الموصل، أرسل في طلبه القائد ليجمان البريطاني وأظهر له رغبة الحكومة البريطانية بإنشاء دولة للمسيحيين في شمال العراق فرفض رفضاً تاماً مصرّاً على قيام الدولة العراقية بابنائها جميعاً مسلمين ومسيحيين مما حمل القائد على نفيه إلى الهند، إلا أن العرب المسلمين عندما علموا بالأمر ارجعوه معززاً مكرماً إلى مقره كزعيم وطني. وكان أن تعيّن عضواً دائماً في مجلس الأعيان العراقي.

٤ ـ الخوري يوسف خياط (١٩٠٣ ـ ١٩٤٧)

ولد في الموصل. لفرط ذكائه ورسوخ قدمه في المجتمع، أجمع الموصليون على انتخابه عضواً في مجلس النواب العراقي، وله فيه مواقف خطيرة، تجلّت فيها عبقريته ومحبته الوطنية، ومرافعته عن حقوق الدولة العراقية الفتية. سافر مرتين إلى لندن للدفاع عنها كعضو في الوفد المفاوض مع بريطانيا إضافة إلى كونه مستشاراً للملك فيصل الأول.

٥ ـ المطران جرجس قندلا (١٨٨٩ ـ ١٩٨٠)

ولد في الموصل، وتخرج من معهد مار يوحنا الحبيب، وسيم كاهناً عام ١٩١٣، واستلم إدارة مدرسة مار توما، ومن مواقفه الوطنية عندما أثيرت مشكلة

الموصل بين العراق وتركيا. كان المدير جرجس يكتب كل يوم صباحاً على اللوح في جميع صفوف المدرسة هذا الشعار الوطني «الموصل رأس العراق، ولا يمكن قطع الرأس عن الجسم أبدا» واستمر هكذا إلى حين انتهاء المشكلة عام ١٩٢٦. إضافة إلى كونه شاعراً وطنياً من أهم قصائده «رثاء الملك فيصل» و«رثاء الملكة عالية».

ثالثاً ـ الرجال السياسيون:

تنفس المسيحيون العراقيون الصعداء عند قيام الحكم الوطني بتنصيب الأمير فيصل بن الحسين ملكاً على العراق يوم ٢٣ آب ١٩٢١، فانخرط بعضاً من المسيحيين في الحياة السياسية الجديدة خدمة لوطنهم وشعبهم لعراق موّحد أرضاً وشعباً، وضحوا لأجله بالنفس والنفيس في سبيل استقلاله وسيادته، فانخرط العديد منهم في الحياة الحزبية وشاركوا في تأسيس بعض الأحزاب ومن أبرزهم:

السيد داود يوسفائي (١٨٥٤ ـ ١٩٢٣)؛ الدكتور حنا خياط (١٨٨٤ ـ ١٩٥٩) تولى أول وزارة للصحة في العراق عام ١٩٢١. الدكتور حنا زيوني (١٨٧٠ ـ ١٩٤٨). السيد يوسف عبد الأحد (؟ ـ ١٩٣٢)، يوسف سركيس (١٨٨٤ ـ ١٩٧٨) يوسف حبيب أوفي (١٨٧٥ ـ ١٩٦٥) الدكتور وديع جبوري (١٨٠٣ ـ ١٩٦٧) يوسف سلمان يوسف (فهد) مؤسس الحزب الشيوعي في العراق رزوق انطوان شماس (١٩١٤ ـ ١٩٨٦) يوسف رسام (١٨٩١ ـ ١٩٥٩) طارق عزيز حنا وزير خارجية العراق ونائب رئيس الوزراء، داود الصائغ، نجيب الصائغ، جرجس فتح الله المحامي، كامل قزانجي ١٩٠٧ ـ ١٩٥٩) توفيق السمعاني، المحامي نوئيل رسام، الشاعر يوسف الصائغ، وجبرائيل اسحق، والدكتور كامل دلالي وغيرهم كثيرون.

رابعاً ـ الآثاريون والمنقبون:

العراق حقل واسع من الآثار الحضارية القديمة لأقدم حضارات العالم، فهو المنجم الأول بغزارة عادياته وكثرتها، فصار قِبلة للعالم، مثيراً للتنقيب في أرجائه، فاتجهت نحوه بعثات آثار الاركيولوجين منذ القرن التاسع عشر للعمل فيه والكشف عن أولى حضارات الإنسان التي قامت على ضفاف الرافدين. وصارت الاركيولوجيا العراقية من أهم علوم ذلك العصر التي كشفت بما استخرجه المنقبون عن خفايا البشرية وأسرار لم يكن العالم يدري بها إلا ما هو مثبت في التوراة والكتب الدينية القديمة.

وبرز بهذا الميدان من المختصين العراقيين المسيحيين، وصاروا روّاداً للاركيولوجيا العراقية:

١ ـ **الدكتور هرمز نمرود رسام (١٨٢٦ ـ ١٩٠١) من أشهر المنقبين الآثاريين**، وهو الذي كشف عن كنوز آشورية في كل من نينوى وخرساباد والنمرود. ولم تزل صورته معلقة في أهم قاعة بالمتحف البريطاني.

٢ ـ **الأستاذ فؤاد سفر (١٩١٠ ـ ١٩٧٩)** آثاري، من رواد العمل الآثاري. ولد في الموصل، تخرج من المعهد الشرقي في جامعة شيكاغو، تعلّم الخط المسماري. مارس الحفر والتنقيب في مواقع أثرية عديدة وأخصها مدينة الحضر.

٣ ـ **الدكتور بهنام أبو الصوف**، ولد بالموصل. اختار دراسة الآثار، حصل على الدكتوراه من جامعة كمبردج، تقلّد منصب مدير آثار المنطقة الشمالية في العراق. له أكثر من خمسين كتاباً وبحثاً ومقاله في علم الآثار والتنقيبات.

وهناك العديد من الآثاريين في العراق من المسيحيين ومنهم: **عبد الكريم بني، بشير فرنسيس، حكمت حنا الأسود، متي بابا، عبد السلام سمعان**، وغيرهم...

خامساً ـ اللغويون:

برز الكثير من المسيحيين العراقيين في ميدان اللغات الشرقية والغربية، ومنها الأكدية القديمة والحديثة، والسريانية والعربية والفرنسية واللاتينية والإيطالية والإنكليزية ووضعوا فيها كتباً عديدة في الأدب والنحو والصرف والمعاجم ومن أبرزهم:

الأب انستاس الكرملي (١٨٦٦ ـ ١٩٤٧) الذي تضلّع باللغة العربية إلى جانب اللاتينية واليونانية والفرنسية. وكان عضواً في عدة مجامع للغة العربية. كتب ونشر أكثر من ثلاثة آلاف مقالة وبحث في علم اللغة.

المطران اقليميس يوسف داود الذي اشتهر بإتقانه اللغة السريانية ويعد كتابه «اللمعة الشهية» من أهم المصادر والمراجع لدراسة نحو وصرف هذه اللغة. والبطريرك جرجس خياط (١٨٢٨ ـ ١٨٩٩) الذي برع في تأليف الكتب المدرسية باللغة العربية والسريانية، والبطريرك اغناطيوس بهنام بني (١٨٣٠ ـ ١٨٩٧) الذي درس في روما واضطلع باللغات الشرقية والغربية ونتاجه غزير في التاريخ الكنسي.

أما العلامة ادي شير (١٨٦٧ ـ ١٩١٥) فكان يتقن عدة لغات شرقية وغربية إضافة إلى كونه مؤرخاً قديراً نشر أغلب أعماله بالفرنسية بباريس.

المطران أوجين منا (١٨٦٧ ـ ١٩٢٨) صاحب المعجم السرياني العربي (دليل الراغبين) الخوري أسقف بطرس سابا (١٨٩٣ ـ ١٩٦١) صاحب كتاب (مرشد الطلبة السريانيين) الدكتور يوئيل يوسف الذي ألّف ثمانية كتب في علم الترجمة العام والسيد يوسف يعقوب مسكوني (١٩٠٣ ـ ١٩٧١)

سادساً ـ الصحفيون:

أسهم المثقفون المسيحيون العراقيون إسهاماً حقيقاً في تقدم الصحافة

العراقية وتطورها في نشأتها الأولى، ولقد كانوا روّاداً لها، وأثروها بأدبياتهم وجهودهم وكانت لهم ميادينهم الصحفية المتنوعة بإصدارهم صحفاً ومجلات أساسية في الحقل السياسي والأدبي إضافة إلى الحقل الديني. فكانت أول مجلة تصدر في العراق عام ١٩٠١ (مجلة إكليل الورود) التي أصدرها الآباء الدومنيكان بالموصل. و(مجلة زهيرة بغداد) التي أصدرها الآباء الكرمليين، ومجلة صدى بابل، وجريدة العالم العربي وجريدة الزمان، وجريدة البلاد، وجريدة الأخبار وغيرها إضافة إلى المجلات الدينية «النور» و«السلام» و«الفداء» و«النجم» و«المشرق» و«لسان المشرق» وغيرها الكثير.

ومن أبرز الصحفيين الذين أغنوا الصحافة وعملوا على تطورها: السادة: روفائيل بطي، جبران ملكون، توفيق السمعاني، المطران سليمان صائغ، المطران بولس بهنام، القس سليمان البعشيقي، والسيد سليم حسّون.

ومن الجدير بالذكر أن المرأة المسيحية العراقية كانت من أول الصحفيات منهن مريم نرما، وبولينا حسون، إلى جانب أخيها مجيب حسّون. وأيضاً السيد داود صلبوا، ويونان عبو اليونان، وميخائيل تيسي صاحب الصحافة الهزلية، وفائق بطي، والأستاذ لطفي الخوري، وروفائيل مازجي واسكندر معروف.

سابعاً ـ المسرح والمسرحيون:

نشطت الحركة ـ المسرحية بين المسيحيين العراقيين سيما في الموصل بقدوم الآباء الدومنيكان إليها. فأبدع المسيحيون الذين درسوا في مدارسهم ذكوراً وإناثاً، فمثلوا على المسارح البدائية تمثيليات قصيرة، ومسرحيات دينية أو اجتماعية، أو فكاهية هزلية بدءاً بمنلوجات السيد اسكندر زغبي الأعمى الحلبي، فلمع نجم المسرحيين بأعمالهم المسرحية وكان القس حنا حبش أول من كتب ثلاث مسرحيات في العراق وهي: آدم وحواء، يوسف الصدّيق وكوميديا طوبيا، كتبها عام ١٨٨٠، والمتوفى عام ١٨٨٢.

ومن المسرحيين المشهورين: حنا رسام، توماس حبيب، بهنام ميخائيل، عوني كرومي، ريكاردوس يوسف ـ ونعوم فتح الله سخار (١٨٥٩ ـ ١٩٠٠) الذي ترجم مسرحيات فرنسية إلى العربية، كما ووضع غيرها مثل مسرحية لطيف وخوشابا. . .

ولقد مثلت العديد من المسرحيات الاجتماعية والأخلاقية على مسرح الآباء الدومنيكان، ومدرسة شمعون الصفا وغيرها أمثال: مسرحية الأمير الحمداني، مسرحية جنفياف، مسرحية القيامة، مسرحية يوسف الصديق، مسرحية الزبّاء.

ثامناً ـ الأكاديميون والعلماء المبدعون:

لمع عدد كبير من المسيحيين العراقيين في تخصصات علمية مهمة داخل العراق وخارجه في مجالات الكيمياء والفيزياء والذرّة والطب والجراحة والأدوية، وقد حصل العديد منهم على جوائز دولية بحكم ما قدموه من إبداعات ونتاجات، وآخرون حازوا على براءات اختراعات مشهورة، ولا يمكنني ذكر أسمائهم جميعاً بهذا المجال الضيّق، ومن أبرزهم: العلّامة متي عقراوي (١٩٠١ ـ ١٩٨٢) والدكتور متي ناصر مقادسي صاحب الاكتشافات في الفيزياء، والأستاذ بشير اللوس (١٩٠٥ ـ ١٩٦٤) في علم الحيوان. الدكتور يوسف نعمان (١٩٢٣ ـ ١٩٨٦) طبيب القلب الشهير، والدكتور انطون صبري انطون باحث في فايروسات أحياء مجهرية. والدكتور جورج يوناثان سركيس في علم الكيمياء، والدكتور ريمون نجيب شكري في علم الرياضيات. والأب الدكتور بول نويا ٠١٩٢٥ ـ ١٩٨٠) العالم في التصوّف الإسلامي. والأب باسيل عاكولا في التاريخ القديم. وغيرهم كثيرون.

تاسعاً ـ الأطباء والجراحون:

منذ العصور القديمة والعراق يشتهر بالطب والأطباء وصنع الأدوية،

وهكذا في العصر العباسي الذي تسلم زمامه المسيحيون المبدعون أمثال حنين بن إسحق وابنه، وأسرة جيورجيس بختيشوع، وواصل أحفادهم هذه المهنة الشريفة فتخرج العدد الكثير من الأطباء المشهورين عالمياً وهنا نذكر أبرزهم للذكر لا للحصر:

أديب زيا عطاالله، آرام دوديان اسكندر عتيشا، بيثون رسام، جميل دلالي، جورج غزالة، وسليمان غزالة، وحنا خياط، عبد النور ممو، يوسف جبور، وديع جبوري، نقولا جورج، فوزي أنور عزّو، فريد ناسي، زارية زاكار يريمان، ستافري جبرائيل، بوغوص بوغوصيان، توما جبرائيل هندو، جورج رؤوف اللوس، غانم يعقوب عقراوي، فيلكس يوسف رزوق، عبد الله سرسم، يوسف سرسم، ناجي سرسم، بشير سرسم، متي سرسم، جميل جمعة، روفائيل تبوني، حنا زبوني، يوسف زيوني، خضر فندقلي، يوسف شماس، نضير مطلوب.

ومن الصيادلة: حميد سرسم، داود صقال، سعد الله صقال، والدكتور نوئيل صقال، والدكتور استارجيان، وفائز تبوني، وكره بيت، ومنير رسام، وإلياس أيوب، والبير جرجسية والبير رسام...

عاشراً ـ المحامون ورجال القانون:

برز من بين المسيحيين العراقيين رجال قانون أذكياء، ومحامون مبدعون، وأغلبهم يشهد لهم التاريخ بمواقفهم الجريئة في المرافعات وكسبهم للدعاوي والقضايا التي كانوا يدافعون عنها، ومن أبرزهم:

يوسف إلياس حتو، جورج جرجي، داود الصائغ، شاب توما منصور، متي موسى، انطوان شماس، نوئيل رسام، نجيب آدمو، متى خلف، جرجيس سريم، إسحق بيثون، جبرائيل البناء عبد الله فائق، نجيب يوسفاني، وعبد الله ليون، ومتي بيثون، وجرجيس فتح الله (المشهور ببجوثه وترجماته ودراساته)

التي أصدرها كتباً ومقالات.. وعبد الجليل برتو ـ ونوري روفائيل، وعبد الله فائق وحنا بني...

حادي عشر ـ الكتّاب والأدباء والشعراء:

لمع في سماء العراق من الكتّاب والأدباء المسيحيين العدد الكبير من الشخصيات البارزة في عالم الثقافة الذين دبجت يراعهم مقالات ونبذا مع القطع الأدبية الراقية والقصائد الرائعة التي عبرّت عن الظواهر الاجتماعية والأوضاع الراهنة بكلمات معبرّة وأسطر عميقة في المدلول والتأويل بعالم القصة والمسرحية وغيرها، ومن أبرزهم:

بنيامين ميخا حداد، سليمان غزالة، المطران بولس بهنام، الأب يوسف حبي، المطران لويس ساكو، ميخائيل عواد وأخيه كوركيس عواد، يعقوب إفرام منصور، يوسف عبد المسيح ثروت، يوسف فوزي، يوسف متي يوسف يعقوب حداد، إبراهيم بطرس إبراهيم، إدمون صبري، بهنام وديع أوغسطين، جبرائيل حنوش، يعقوب سركيس، لطفي الخوري، ليون لورنس عيسابي، إدمون سليمان لاسو، عبد المسيح وزير، هيثم بهنام بُرده، زهير بهنام بُرده، والشعراء: رزوق فرج رزوق، يوسف الصائغ، أمين يوسف قصير، سركون بولص، القس يوسف سعيد، الفريد سمعان حنا... وبهنام ميخائيل (كاتب مسرح) وغيرهم كثيرون.

ثاني عشر: الموسيقيون:

سطعت في سماء العراق نجوماً مسيحيين في الموسيقى والعزف واشتهروا في الأوساط العراقية والعربية وحتى العالمية، فأثاروا اعجاب الملايين من السامعين لمعزوفاتهم الشجية والعذبة وخاصة على العود والقيثارة والطبلة ثم القانون والسطور، وكانوا أعضاء ومسؤولين بارزين في العديد من الفرق الموسيقية الوطنية عن طريق الإذاعة والتلفزيون وفرقة الإنشاد ومن أشهرهم

وأبرعهم:

فائق حنا مروكي (عازف وملحن) وفريد الله وبردي (مؤلف موسيقي) آرام أرميناك بابوخيان (موسيقى)، سعيد شابو (فنان موسيقي وملحن) غانم حداد (موسيقى) (عازف الكمان والعود) والأستاذ منير مشير (موسيقى مبدع بالعزف على العود) وأخيه جميل بشير (عازف بارع على العود) باسم حنا بطرس (مدير الفرقة السمفونية الوطنية) حنا بطرس (مؤلف موسيقي).

ثالث عشر ـ الرسّامون والمصوّرون:

منذ الأجيال الأولى، شجعت المسيحية الرسم والتصوير وخاصة على جدران الكنائس وصفحات المخطوطات، فنبغ وبرع عدد كبير من المسيحيين العراقيين بهذين الفنين، ولمع عدد منهم في اللوحات الزيتية والمائية التي أرّخت وقائع حياتيه يومية وسجلت بالريشة وآلة التصوير كثيراً من العادات والتقاليد المسيحية والشعبية، ومن أبرزهم للذكر وليس الحصر:

هيثم فتح الله عزيزة (فنان متخصص بالصورة الصحفية، وصبيح نعامة (فنان تشكيلي) عيسى حنا (رائد فن الملصق) فرج عبو (فنان تشكيلي) سامي لاسو جحولا (فنان رسم الحياة اليومية والعادات) وسام مرقص السندي (فنان تخطيطي) أرداش كاكا فيان (فنان التصوير الفوتوغرافي) كوفاديس اواديس (فنان التصوير الفوتوغرافي) حازم پاك (فنان التصوير الفوتوغرافي) حارث يوسف غنيمة (التصوير الفوتوغرافي) بسّام فرج (فنان كاريكاتير) أفرام عطا الله (التصوير الفوتوغرافي) ماهر حربي (فنان تشكيلي) بهنام بطرس (رسم الطبيعة) هاشم سمرجي ٠رسم الأغلفة وفن الملصق).

رابع عشر ـ المؤرخون والباحثون:

في العراق ابتدأ التاريخ، ومنه انطلق، وعنه يتحدث، وإليه يعود، ولذلك نبغ فيه جيش من المؤرخين الثقاة والمحققين في التراث العام والخاص، إضافة

إلى التراث الشعبي، ومن بينهم المؤرخون المسيحيون الذين اهتموا خاصة بتاريخ الكنيسة والمجتمع والإعلام والأحداث. ولمع من بينهم العلماء المدققين لقراءاتهم التاريخية وغربلتها للوصول إلى الحقيقة في التحليل والاستنتاج، ومن أشهرهم:

الآب أوغسطين مرمرجي الدومنيكي (باحث لغوي)، المطران بهنام قليان (مؤرخ) المطران إيرميا مقدسي (لغوي) المطران توما أودو (باحث لغوي) الفونس منكنا (مؤرخ وباحث) الأب نرسيس صائغيان (مؤرخ ومحقق) الخوري إفرام عبدال (مؤرخ باحث) البطريرك إفرام برصوم (باحث ولغوي ومؤرخ) القس بطرس نصري (مؤرخ) المطران إفرام نقاشة (مؤرخ) فرج بصمة جي (باحث آثاري) المطران إسحق ساكا (باحث ومؤرخ) روفائيل بابو إسحق (مؤرخ وباحث) المطران صليبا شمعون (باحث ومؤرخ) البطريرك زكا عيواص (مؤرخ وباحث) الدكتور مجيد خدوري (مؤرخ وباحث) يونان عبو اليونان (باحث) يوسف الريحاني (باحث) الأب البير أبونا (باحث ومؤرخ) كوركيس عواد (مؤرخ) ميخائيل عواد (مؤرخ) يوسف يعقوب مسكوني (باحث ومؤرخ) الأب يوسف حبي (باحث ومؤرخ) يعقوب سركيس (باحث ومؤرخ) الخوري عبد الأحد جرجي (باحث ومؤرخ)، يوسف زيا عبو (باحث) يوسف الريحاني (باحث) أنيس وزير (باحث) بنيامين حداد (باحث) بيتر يوسف (باحث) انطون صبري (باحث في الفايروسات).

خامس عشر ـ النساء العاملات:

عُرفت المرأة العراقية، ولا سيما المسيحية بحبها العلم والسعي في طلبه والاختصاص في ميادينه العلمية والإنسانية والفنية بتشجيع من أخيها الرجل سواء كان أباً أو زوجاً أو أخاً أو ولي أمر. فأرسلها إلى المدارس والجامعات، وشجعها للاندفاع والانطلاق في سبيل خدمة وطنها الحبيب العراق وأبنائه الميامين، وقد نبغ منهن الكثيرات في ميادين الطب والصيدلية والحقوق والعلوم

الإنسانية الأخرى ومنهن للذكر لا للحصر.

الدكتورة البرتين ايليا حبوش (باحثة كيميائية) جانيت حبيب توما (باحثة في التمريض النسائي) دنيا ميخائيل (شاعرة أمل إيليا نجار (خبيرة في اليونسكو) ياتريس أوهانيان (موسيقية وعازفة) الدكتورة خته بوداغ يوحنا (باحثة علمية) رِنى بشير سرسم (باحثة بعلم الرياضيات) سيرانوش الريحاني (طبيبة) حبيبة بيثون (طبيبة) نور بني (طبيبة) نور إيليا جمعة (طبيبة) كليمانتين ثابت (طبيبة) هالة سرسم (طبيبة) فكتوريا مطلوب (طبيبة) الدكتورة باسمه ايشوع (باحثة في علم المكتبات) عالية رسام (طبيبة) آمال رسام (باحثة في علم الانثرويولوجي) بولينا حتون (صحفية) مريم نرمة (صحفية) أوديت مارون بدران (باحثة في علم المكتبات) إلهام بشير اللوس (مختصة بعلم المكتبات).

الخلاصة:

كمؤرخ عراقي متواضع، لا بد من وقفة تأمل و استنتاج، فلقد كانت مكانة المسيحيين العراقيين في مجتمعهم كبيرة، ذات أهمية واعتبارات اجتماعية متميزة منذ نهايات العهد العثماني، وتبوأوا مناصب خطيرة ومهمة في العهود التي تلت العهد العثماني وأقصد بها: العهد الملكي والجمهوري.

الذي أريد قوله وأركز عليه هو أن المسيحيين العراقيين استجابوا لكل قوانين العراق على مختلف العهود، وساهموا في كل مؤسسات الدولة، ولم يتوان ابناؤهم من أداء الخدمة العسكرية الإلزامية وبإخلاص ووطنية صادقة. وقد برز من بينهم ضباطاً استشهدوا في سبيل الوطن والأمة أمثال العقيد إسماعيل هرمز الذي صدر بحقه حكم الإعدام لأنه رفض الخيانة عام ١٩٥٩، واشتركوا في الحياة السياسية كجزء من ابداء الراي. فمثلًا عُهد إلى العديد منهم مناصب وزاريه أمثال حنا خياط (الصحة) يوسف غنيمة (المالية) روفائيل بطي (وزير دولة) بشير سرسم (الصحة). وغدا بعضهم نواباً مثل رؤوف اللوس، وتوفيق السمعاني، كما وقام البعض بادوار معينة في تأسيس أو الانخراط في أحزاب عراقية متنوعة الاتجاهات

وخصوصاً الحزب الشيوعي العراقي، إذ يقال بأن يوسف سلمان (فهد) مؤسس الحزب الشيوعي العراقي، ومن أبرز الشيوعيين المسيحيين العراقيين: جميل توما ونوري روفائيل وكريكور آكوب بدروسيان وثلاثتهم من خريجي الجامعة الأمريكية في بيروت. وهناك يوسف الصائغ وداود الصائغ وآرام خاجادور وكامل قزانجي وإبراهيم قسطو (عسكري) وإبراهيم عيسو في الحزب الديمقراطي، وغيرهم برزوا في القيادة العراقية لحزب البعث مثل طارق حنا عزيز مع بعثيين قياديين آخرين أمثال ممتاز قصيرة الذي أعدم في عهد عبد السلام عارف وغيرهما.

وعليه ـ مما سبق ـ يتوضح لنا جلياً بأن للمسيحيين العراقيين دور كامل في بناء العراق على امتداد العشرين قرناً من أيام أجدادهم البابليين والآشوريين والكلدانيين والعرب المسيحيين، سيما في العهد الأموي والعهد العباسي وخاصة في بناء ونهضة العراق الحديث أمام العهد الملكي والجمهوري ـ كما أسلفنا ـ بفكر وأيدي رجالاتهم وعلمائهم ولغويهم وكتّابهم ومؤرخيهم حيث برز العديد منهم وبذلك أظهروا دورهم وشراكتهم في التعايش اليومي بينهم وبين مواطنيهم المسلمين بالشراكة الاجتماعية والشراكة السياسية في العراق.

فلا بد إذن من التشبث بالمسيحيين وشدّهم في بلدهم العراق لأن لهم لبنات عديدة في صرحه الشامخ بل هم بدايات أساساته والعاملين الفالحين في تطويره ونهضته فليسوا بالأقلية في ميدان العمل والفعل الفكري والاقتصادي إن لم يكونوا الأكثرية، فالإحصائيات تؤكد لنا إن نسبة المثقفين المسيحيين تبلغ ٥٠٪ من مثقفي العراق خاصة في صفوف النساء، علماً أن نسبتهم العددية من السكان لا تبلغ ١٠٪.

المسيحيون العراقيون هم بكل طوائفهم أبناء العراق والحقيقيون إذ يعتبرون من أقدم سكانه منذ أن كانوا جرامقة وسريانا وكلدانا وآراميين فعلى إخوانهم المسلمين ذلك والعمل على تعميق الأواصر متضامنين بوحدتهم الحضارية ومتعايشين عيشاً واحداً لتاريخ واحد فيكونوا فوق الأحداث

والانشقاقات وإثارت النعرات ورفض الإنشطارات يداوون جميع الجروح بدواء الوطنية الواحدة للوطن الواحد.

فوادي الرافدين استقىٰ أبناءه منهما وسرت الأمواه مسرى الدم في العروق والشرايين فصار أبناء لأب واحد اسمه العراق وأم واحدة اسمها النخلة.

إن المسيحيين العراقيين يدركون بأن لهم تاريخاً رائعاً من المعايشات اليومية مع كل العراقيين المسلمين والأكراد والتركمان بمختلف الأديان والأطياف والقوميات. وعلى المسلمين أن يدركوا بأن التاريخ لا يكتمل إلا مع المسيحيين، فليتعز المسلمون بالمسيحيين والمسيحيون بالمسلمين في كل شبر من أرض العراق الخالدة. فالبطريركيات والمطرانيات والخورنات والكنائس والأديرة والصوامع المسيحية العراقية هي ثروات لا تفنىٰ بل لا بد من الحفاظ عليها وتشجيع العبادة فيها، إلى جانبها المساجد والجوامع والحسينيات، تتكاتف المنابر والمآذن بأبراج النواقيس والصلبان رمز الإخوّة والمساواة.

لا بد من خلق عراق قوي يسمو فوق كل التفرقات وأن تطوى صفحات التعصب الأعمى المقيت إلى رحاب المحبة والتسامح والتعاون «وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان وكونوا عباد الله إخواناً».

الملحق الأول

الحوار المسيحي الإسلامي عبر التاريخ

إن كلمة الحوار، وإن درجت في الاستعمال أكثر من اللزوم وصارت عرضة للالتباس، حتى ليؤثر عليها البعض لفظة المشاركة أو التلاقي، يراد بها هنا التعبير عن نمط من الوجود والعمل يأبى كل اعتزال، ويعني دائماً بالآخر. بل يعتقد أن العلاقة بالآخر هي التي تكوّن الشخصية، فمن الواجب إذن أن يكون الحوار الأمنية العميقة لكل مؤمن جدي وصادق.

والحوار عند المسيحيين إنما هو سُنّة ممعنة في القدم تعود إلى يسوع المسيح نفسه، فهو وأن كان قد جاء أولاً إلى «الخراف الضالة من بيت إسرائيل» فقد أراد دوماً تخطي الحواجز الاجتماعية والسياسية، فكلّم السامرية، واصغى إلى الكنعانية، وأعجب بإيمان قائد المئة الروماني، وأشاد بتوبة «أهل نينوى» وحكمة «ملكة التيمن».

فلذلك كانت دعوة بطرس، أول رسله تصلح أيضاً للمسيحيين من أبناء هذا العصر عندما يقول «كونوا على استعداد دائم لتجيبوا كل من يسألكم حجّة من الرجاء الذي فيكم، ولكن بوداعة واحترام، وليكن ضميركم صالحاً» (١ بطرس ٣: ١٥ ـ ١٦) وهو قول مرادف لقول المعلم الإلهي: «وهاءنذا أرسلكم كالخراف بين الذئاب، فكونوا كالحيات حاذقين، وكالحمام ساذجين، . . . فلا

يهمكم حين يسلمونكم كيف تتكلمون أو ماذا تقولون، فسيلقى إليكم في تلك الساعة ما تتكلمون به، فلستم أنتم المتكلمين بل روح أبيكم يتكلم بلسانكم» (متى ١٠: ١٦ ـ ٢٠).

أما المسلمون فيعلمون أن كتابهم منذ البداية يدعو على إقامة الحوار مع مخاطبيهم من المؤمنين «تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم» و«ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن» (٢٩: ٤٦) بعدما دعا رسول الإسلام إلى مثل ذلك بقوله: «ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن» (١٦: ١٢٥) و«وأن جنحوا للسلم فاجنح لها...».

معنى الحوار

من هذا المنطلق،

تعني لفظة حوار، الوقوف معاً، في سبيل معرفة بعضنا، بعضاً، وفي سبيل تفاهم وصداقة ومحبة. فهذه هي سنّة الحياة الحقة، إذ أن الانفتاح يعني الشركة واللقاء والمعايشة، والانغلاق يعني الموت.

يقوم الحوار بين مختلف الأديان على قيم دينية جوهراً. وجعل هذه القيم أمراً مشتركاً يمكن من مقارنة، اختبارات سائر الأطراف ومن خلق تفاهم متبادل، إنما يعني، غالب الأحيان، أن نعزز معاً أهداف تحسن اجتماعي مشتركة.

إن الحوار كما نفهمه نحن المسيحيون، ويفهمه معنا إخواننا المسلمين لأمر إيجابي، جوهراً يحاول أن يكون بعيداً عن الجدل. وما أروع كلمة سيفن نيل: «لا يمكن أن يقوم حوار فعلي مع الديانات الأخرى ما لم يقارن أفضل ما في الواحدة مع أفضل ما في الأخرى».

وما أجمل قول ديوجينوس إلى الأسقف بوليكاربوس: «أعي إنني لم أدخل قط في جدل ضد اليونانيين أو سواهم طالما اعتقد أنه يكفي ـ بالنسبة إلى

الناس ذوي الاستقامة ـ التمكن من معرفة الحقيقة بحد ذاتها وعرضها كما هي في واقعها».

إنه لمن الطبيعي أن يجري الحوار بروح الاحترام المتبادل الكلي لمعتقدات الآخرين وآرائهم. فلسنا نحن والآخرون في مقارنة لنتخاصم بل لنتعارف ونستنير بعضنا ببعض.

من هنا ضرورة إقامة الحوار بمحبة، لا بل نقول بفرح متبادل في الإصغاء إلى إيمان الآخر ودون التخلي عن إيماننا إصغاء مليئاً بروح الصراحة والاستقامة، فإننا نجد في مجتمعات البلدان والأديان والأسر أمثلة بالغة الدلالة عن روابط محبة واحترام تقوم أيضاً بين أناس مختلفي الاعتقادات. وكم أراني سعيداً قيام هذا النوع من الحوار في حالات عديدة، وفي أواسط الشبيبة بنوع خاص.

قال البابا بولس السادس في المقابلة الخاصة التي منحها لأمانة سرّ غير المسيحيين عام ١٩٧٤ أي بمناسبة الذكرى السنوية العاشرة لتأسيسها: «إن حضوركم يحب أن يكون حضور محبة، لأن هذه هي مهمتكم المنتظرة ودوركم هو أن توسعوا شبكة انتباهاً خاصاً إليه، هو كون الحوار يجب أن يكون بعيداً عن أي لون من ألوان التعصب. فمن الواضح أن كل دين لا بل كل مؤمن ينتمي إلى دين يتمتع بالحرية في العلم في سبيل جعل الآخرين يقبلونه إيمانه، فمن الحكمة المشتركة أن يكون جميع المؤمنين أصدقاء أو متساوين، أو ساعين إلى الصداقة والمساواة، ولكن ليس هذا الأمر نقطة يجب أن تتعلق بعمل أمانة سرنا وبسواها من الأجهزة المماثلة لها في الديانات غير المسيحية. إننا نحترم احتراماً كليا أمانة كل إنسان لدينه، ولا نقصد من طريقة عملنا إدخال أي عنصر تعصب...».

«وفي النهاية، أن الحوار أكثر من نظري، يتم على مستوى القلوب أكثر منه على مستوى العقيدة، حتى وإن أدّى دائماً إلى العقيدة...».

الحوار المسيحي الإسلامي

تبذل أمانة سر غير المسيحيين عنايتها في سبيل إقامة الحوار والتقدم به مع سائر الديانات في العالم، بروح الاحترام والتفاهم. ولدى هذه الأمانة لجنة خاصة تعنى بالدين الإسلامي، وهي تأمل بالتمكن من نموها بالتعاون مع الأخصائيين. ولقد انشأ الكرسي الرسولي هذه اللجنة نظراً إلى كون نقاط الالتقاء بين الإسلام والمسيحية بالغة الأهمية إلى حدّ أن الحوار بينهما يرتكز إلى موقف معين أو إلى بنية خاصة، وإنني أشير بإيجاز إلى هذه النقاط:

أ ـ إن الإيمان بالله الواحد، أمر مشترك بين الديانتين. أي أن الله، خالق الكون وسيده يدخل تاريخ البشرية ويكشف لها عن إرادته ويعلّم الناس سبل العدل والسلام ويقودهم إلى الخلاص الأبدي ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم﴾ [آل عمران: ١٦٠]

ب ـ والأمر الثاني المشترك بين المسيحية والإسلام هو الاعتراف بشخص يسوع على أنه كلمة الله والإعراف بأمّه مريم العذراء والتذكير بكلام يسوع وعجائبه وعلاقته بروح الله (يسوع، هو روح الله) وانتظار مجيئه على يوم الدين الأخير، أن يسوع سيدين العالم.

ج ـ إن معظم المبادئ الأدبية والحياة الروحية هي في جوهرها موجودة في الديانتين، فالتصوف نفسه يعبّر عنه غالب الأحيان بأفكار وطرق متقاربة جداً: فالمسلم التقي يناجي الله «الأقرب إلى الإنسان من وريده» بالقول: ﴿تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٢٧].

د ـ إن العلاقات التاريخية والثقافية بين الديانتين بالرغم من مرورها في مراحل لم تكن سهلة دائماً وحتى في فترات مظلمة ومتناقضة، قد شهدت نمواً إيجابياً ومفيداً في مجموعها. كانت بعض العصور وأخصها بالذكر

العصران التاسع والعاشر، (ويمكن القول منذ القرن الثامن حتى القرن الحادي عشر) دون استثناء فترات أخرى مثمرة سواء في العلوم أم في الفلسفة أم في الفنون أم في الآداب أم في اللاهوت أم في التصوف. لقد كانت اسبانيا وصقلية جسور وساطة بين العالم الإسلامي وأوروبا. ولا يزال حتى اليوم ألفاظ عربية متبادلة في لغات أوروبا تعدّ بالعشرات إن لم أقل بالمئات.

هـ ـ وإنه لمن المفيد جداً بالنسبة إلى الحوار المسيحي الإسلامي إن نعي واقعاً قد أفاد خاصة، فالفكر الإنساني والفلسفي الإسلامي قد بقي مصوناً أكثر من الفكر المسيحي (ولكي أكون واضحاً يجب عليّ أن أقول الفكر المسيحي الغربي) الذي نالت منه التيارات الفكرية المضادة للمسيحية، والتي نمت في بلدان الغرب، كالمثالية والماركسية والوجودية والشك والرواقية وغيرها.

إننا نحن المسيحيين لسعداء أن نرى الأصدقاء المسلمين، الذين ظل معظمهم أمناء في ميدان الفلسفة الدينية، لعلوم أخلاقية شبيهة بعلومنا. وأمناء لنصوص تقليدية كلاسيكية ذات سلطة هي في معظمها نصوصنا نحن.

وبكلمة، إننا نجد أنفسنا مع إخواننا المسلمين، غالب الأحيان، أبناء «البيت الواحد» ونتكلم معاً لغة مشتركة.

الحوار المسيحي الإسلامي في التاريخ

هناك ومضات ووقفات مضيئة عبر التاريخ العربي الإسلامي (الأموي والعباسي) نفهم منها كيف كان يجتمع في كرسي أبرشية دمشق والموصل وبغداد والقاهرة، وقرطبة وغيرها، لاهوتيون مسيحيون وفقهاء مسلمون ويتناقشون (وكان الخلفاء العباسيون وأشهرهم المهدي والمأمون يدعون غالب الأحيان علماء مسلمين ومسيحيين، وكانوا يصغون إليهم بكل اهتمام في مجالسهم للحوار في مختلف المواضيع الدينية...).

ولقد حفظ لنا التاريخ محاضر عدد من تلك الحوارات التي جرت في بغداد وتكريت وسامراء وغيرها نذكر منها:

١ ـ المجالس السبعة التي جرت بين مار إيليا برشينايا مطران نصيبين والوزير أبي القاسم الحسين بن علي المغربي في الشرع في بداية القرن الحادي عشر الميلادي.

٢ ـ المحاورة الدينية التي جرت بين الخليفة المهدي العباسي (٧٧٥ ـ ٧٨٥) ومار طيماثاوس الجاثليق الاول (+ ٨٣٣) في أصول الدين والشرع.

٣ ـ المحاورة الدينية التي جرت بين الفيلسوف المسيحي يحيى بن عدي التكريتي (+ ٩٧٤) والمسعودي بجامع سامراء في أواخر القرن العاشر الميلادي في العقائد.

٤ ـ المحاورة الدينية التي جرت بين الاسقف شمعون من طور عبدين من قرية حبسناس، وبين جماعة من العلماء والمتكلمين من المسلمين منهم محمد بن عبد الله الهاشمي وإبراهيم بن الجزائعي وإبراهيم ابن البوازعي وسالم الهمداني وغيرهم في بغداد بحضرة الخليفة المأمون العباسي (٨).

٥ ـ المحاورة الدينية بين ثابت بن قرّة الحرّاني وأبي حنيفة بحضرة الخليفة المأمون العباسي في القرن التاسع الميلادي.

٦ ـ مجادلة لاهوتية جرت بين إبراهيم الطبراني والأمير عبد الرحمن بن عبد الملك الهاشمي في بيت المقدس نحو سنة ٨٢٠م.

٧ ـ مجادلة الانبا جرجي الراهب السمعاني مع ثلاثة شيوخ من فقهاء المسلمين بحضرة الأمير مشمر الأيوبي نحو عام ١٢١٦م.

هذه، وغيرها من المحاورات والمناقشات. الدينية والعقائدية علاوة على الرسائل الفردية التي كان يتبادلها العلماء المسيحيون والمسلمون بشكل أسئلة وأجوبة في العقيدة والشرع. نذكر منها:

أ ـ رسالة عبد المسيح بن اسحق الكندي إلى عبد الله بن إسماعيل الهاشمي في أيام المأمون الخليفة العباسي سنة ٨١٦م جواباً على رسالته التي بها يدعوه إلى الإسلام. فيردّ عليه ويدعوه بدوره إلى المسيحية.

ب ـ رسالة لبولس الراهب أسقف صيدا الإنطاكي جواباً لسؤال، سأله إياه الشيخ أبو السرور التنيسي الرقّام مختصراً رأي المسيحيين في التوحيد والاتحاد.

ج ـ رسالة ثانية لبولس الراهب اسقف صيدا الإنطاكي إلى بعض معارفه المسلمين في صيدا.

د ـ رسالة ثالثة لبولس الراهب يجيب بها على بعض مشايخ عصره المسلمين في الخير والشر.

هـ ـ رسالة أخرى لبولس الراهب جواباً على رسالة أحد شيوخ الإسلام في معجزات السيد المسيح.

وهناك عشرات الرسائل والردود من وإلى، متبادلة بين آباء الكنيسة المسيحيين وشيوخ الإسلام المسلمين حفظها لنا التاريخ، مبثوثة في مخطوطات عديدة في مكتبات العالم العربي والغربي عسى يحالفنا الحظ أن ننشرها في كتاب خاص.

الحوار المسيحي الإسلامي اليوم

هنالك مجال واسع للكلام عن الحوار المسيحي الإسلامي في العصور الماضية، في صعوباته، وفي تقطعاته. ولكن يجب علينا أن نقتصر موضوعنا على الفترة الحالية، وعلى لمحة عن آفاق المستقبل. فليسمح لي القول ـ في ما يتعلق بالماضي ـ إن الحوار لم ينقطع قط. لقد كان هناك تدين عميق، وباحثين ذوي شأن من الفئتين، اشعلوا المصباح دائماً، وحملوه أمامنا.

في هذه السنوات الأخيرة، سيما من جهة الكنيسة الكاثوليكية، بعد

المجمع المسكوني الفاتيكاني الثاني (١٩٦٢ ـ ١٩٦٥) تزايدت بشكل متصاعد المؤتمرات واللقاءات والمحادثات والندوات، واكتفي هنا بتعداد ملتقيات أمانة سر غير المسيحيين، فأذكر منها على سبيل المثال لا الحصر:

١ ـ اجتمع في جنيف ـ كارتيني (سويسرة) من ٢ حتى ٦ آذار ١٩٦٩م، عشرات من المسلمين والمسيحيين، حول المواضيع التالية:

- الله والكتب المقدسة.
- الدين في علم التقنية.
- الحوار المسيحي الإسلامي: إمكانات وآمال.

وقد تم ذلك اللقاء بدعوة من لجنة «إيمان ودستور» التابعة لمجلس الكنائس العالمي.

٢ ـ بدعوة من أمانة السر الرومانية، تم لقاء في روما، من ١٦ حتى ٢٠ كانون الأول ١٩٧٠م بين أعضاء الأمانة وخبرائها من جهة وأعضاء بعثة رسمية تمثل المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية في مصر من جهة أخرى، وتناول النقاش مواضيع تتعلق بالإيمان والعدالة الاجتماعية والتربية الدينية.

٣ ـ اجتمع في برمانا (لبنان) من ١٢ حتى ١٨ تموز ١٩٧٢م، بدعوة من لجنة الحوار، ٢٠ مسلماً و٢٥ مسيحياً للبحث في سبيل التفاهم والتعاون بين المسيحيين والمسلمين على المستوى الإنساني، وأكّدوا أن الحوار الحق يقوم على الاعتراف بالحرية الدينية المطلقة والاحترام المتبادل.

٤ ـ وبدعوة من اللجنة ذاتها، التقى في اكرا (غانا) من ١٧ حتى ٢١ تموز ١٩٧٤م عشرون مسيحياً ومسلماً من إفريقيا الغربية حول موضوع «وحدة الله وجماعة البشر» مؤكدين ضرورة التعاون بين المسلمين والمسيحيين الإفريقيين في الحياة اليومية.

٥ ـ في قرطبة إسبانيا اجتمع مئة من المسلمين والمسيحيين من أوروبا والبلدان العربية من ١٠ حتى ١٥ أيلول ١٩٧٤م بدعوة من الجمعية الإنسانية للصداقة بين المسيحيين والمسلمين، وتدارسوا المواضيع الآتية:

- تقديم الإسلام للمسيحيين، وتقديم المسيحية للمسلمين بشكل موضوعي ونزيه.
- الدين والتوسع السياسي.

٦ ـ التقت في القاهرة بعثة كاثوليكية من روما مع بعض الحكومين بدعوة من المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية وذلك من ٩ حتى ١٦ أيلول ١٩٧٥م.

٧ ـ بدعوة من أمانة السر الرومانية والجمعية الدولية لرجال القانون، اشتركت بعثة سعودية من الفقهاء، برئاسة وزير العدل، في سلسلة لقاءات جرت في روما من ٢٤ حتى ٢٧ تشرين أول ١٩٧٤م وعرض فيها كل من الطرفين الموقف المسيحي والإسلامي من قضية حقوق الإنسان والسلام العالمي.

٨ ـ بدعوة من مركز الأبحاث والدراسات الاقتصادية والاجتماعية التابع لجامعة تونس، التقى ٢٨ مسلماً و١٣ مسيحياً، من ١١ حتى ١٧ تشرين الثاني ١٩٧٤م، في كل من تونس والحمامات والقيروان، حول موضوع «الضمير الإسلامي والضمير المسيحي تجاه تحديات وسائل التنمية».

٩ ـ في هونغ كونغ (الصين) تمّ لقاء من ٤ حتى ١٠ كانون أول ١٩٧٥م بين ٣٠ مسلماً ومسيحياً، بدعوة من لجنة الحوار، تدارسوا فيه كيف يمكن المسيحيين والمسلمين من مجتمع واحد أنت يتعايشوا ويتفاهما ويتعاونوا في بلدان جنوب شرقي آسيا.

١٠ـ في طرابلس (ليبيا) وبدعوة من الحزب الاشتراكي العربي الليبي وموافقة أمانة السر الرومانية، عقد مؤتمر من ١ حتى ٦ شباط ١٩٧٦م، ضم ٣٥٠

مسلماً و١٥٠ مسيحياً جاءوا من ٥٥ بلداً، ألقيت فيه محاضراً قيّمة تناولت:

- العلاقة بين الدين والايديولوجية.
- المعتقدات المشتركة بين الديانتين وسبل التعاون في الحياة اليومية.
- الإيمان والعدالة الاجتماعية.
- إزالة الأفكار المسبقة والتفاهم السيء بين المسيحيين والمسلمين.

١١- بدعوة من لجنة الحوار، اجتمع من ٢٦ حتى ٣٠ حزيران ١٩٧٦ عدد من الاخصائيين من مسيحيين ومسلمين، في جنيف - شامبيزي (سويسرا) لمواجهة أكبر عقبة في سبيل الحوار وهي مشكلة التبشير المسيحي والدعوة الإسلامية وخرجوا ببعض المقترحات الرشيدة.

١٢- في قرطبة (اسبانيا) وبدعوة من الجمعية الإسبانية لصداقة بين المسيحيين والمسلمين، التأم من ٢١ حتى ٢٧ آذار ١٩٧٧م المؤتمر الثاني الذي ضمّ ٢٠٠ شخصية إسلامية ومسيحية من شتى البلدان العربية والأوروبية، وتركزت مناقشتهم على إبعاد النبوة في كل من المسيح ومحمدﷺ

١٣- من ١٤ حتى ١٨ تشرين الثاني ١٩٧٧م، شارك ٢٠ مسيحياً ومسلماً في ندوة عقدت ببيروت (لبنان) وكان محورها: «الإيمان والعلم والتقنية ومصير الإنسان».

١٤ - من ١٢ حتى ١٤ آذار ١٩٧٩ اجتمع بدعوة من لجنة الحوار، عدد من الأخصائيين في شؤون الحوار في جنيف - شامبيزي (سويسرا) ووضعوا المبادئ التي يجب احترامها من أجل تعارف وتعاون أكثر فاعلية بين المسلمين والمسيحيين.

١٥ - بدعوة من مركز الأبحاث والدراسات الاقتصادية والاجتماعية في جامعة تونس، اجتمع من ٣٠ نيسان حتى ٤ أيار ١٩٧٩ في قرطاجة (تونس)

ستون مسلماً ومسيحياً للتباحث في معاني الوحي والتنزيل في كل من المسيحية والإسلام.

١٦ـ بدعوة مشتركة من مجلس الكنائس العالمي (مكتب الشرق الأوسط) والندوة اللبنانية، التقى في بيروت من ٣ حتى ٦ تشرين الثاني ١٩٨٠م، ثلاثون مسيحياً ومسلماً للبحث في نتائج الحوار المسيحي ـ الإسلامي وإمكاناته المستقبلية.

١٧ـ بدعوة من لجنة الحوار وموافقة المجلس الإسلامي العالمي (الباكستان) اجتمع في كولمبو (سريلانكا) من ٣٠ آذار حتى ١ نيسان ١٩٨٢م عدد من ممثلي منظمات الإغاثة من مسلمين ومسيحيين، وانكبوا على دراسة مبادئ الحوار وإمكانات التعاون المشترك في شتى مشاريع الإغاثة والتنمية.

١٨ـ بدعوة من مركز الأبحاث والدراسات الاقتصادية والاجتماعية بجامعة تونس اجتمع من ٢٤ حتى ٢٩ أيار ١٩٨٢م في قرطاجة (تونس) ستون مسيحياً ومسلماً لتبادل وجهات النظر في إمكان مشاركة المؤمنين مسيحيين ومسلمين في نصرة حقوق الإنسان والسلام العالمي والصداقة بين الشعوب.

١٩ـ لقاء عمان، بمبادرة من الأمير حسن ولي عهد الأردن، وبتعاون من رئيس وندسور المطران ميخائيل مان نظم لقاء إسلامي ـ مسيحي بين ٢٨ و٣٠ أيلول ١٩٨٥، وكان موضوعه: «قيم الحياة العائلية في المجتمع الحالي» وكان عدد المدعوين ٤٠ مشاركاً.

٢٠ـ بمبادرة من «مجمع الكنائس العالمي» عُقد لقاء في بورتو نوفو في البنين بين ٣ و٧ آذار ١٩٨٦، وجمع ٣٧ إفريقيا (١٦ مسلماً و٢١ مسيحياً) وكان موضوع اللقاء «الدين والمسؤولية».

٢١ـ في إطار الاحتفالات بالمائة الثانية عشرة لتأسيس جامع قرطبة في إسبانيا، عقدت «اللجنة الإسبانية للعلاقات مع الأديان الأخرى بالتعاون مع «المركز الإسلامي» في إسبانيا، لقاء إسلامياً ـ مسيحيا بين ١١ و١٤ تشرين الأول ١٩٨٦، وقد اشترك في هذا اللقاء مسلمون ومسيحيون أتوا من مختلف بلدان العالم.

٢٢ـ اللقاء المنعقد في المجلس الأوروبي بستراسبورغ يومي ٢٠ و٢١ كانون الأول سنة ١٩٩٠، بمبادرة جمعية الحوار الإسلامي ـ المسيحي واللقاء الدينية A.D.I.C جمع ٨٠ مسيحياً و٨٠ مسلماً أتوا من المغرب وعدة بلدان في أوروبا والشرق الأوسط وأفريقيا.

٢٣ـ لقاء جمع أربعين شخصاً من المسلمين والمسيحيين في لافاليتا بجزيرة مالطة بين ٢٢ و٢٤ نيسان ١٩٩١ وكان المشاركون جميعهم ممثلين عن منظمات مسيحية وإسلامية معنية جميعها بمشكلة المهجرين والنازحين واللاجئين.

٢٤ ـ أول لقاء في واشنطن جمع مسلمين ومسيحيين على مستوى الولايات المتحدة بعد عدة لقاءات تمت على المستوى المحلي بين ٢١ ـ ٢٢ تشرين الأول ١٩٩١. وكان موضوعة «المرأة في المجتمع في نظر الإسلام والمسيحية».

إلى جانب هذه اللقاءات، هناك العديد من المراكز التي تعني بالحوار المسيحي الإسلامي على المستوى الوطني والمحلي والكنسي في فرنسا والهند ولبنان على سبيل المثال. فضلًا عن الجمعيات والندوات في بعض البلدان التي تسعى إلى تقوية أواصر الصداقة بين المسلمين والمسيحيين، نخص بالذكر «فرقة الأبحاث الإسلامية المسيحية» في فرنسا وشمال إفريقيا، وجمعية «الإخاء الديني» المصرية، ومركز الدراسات الإسلامية في معهد القديس بولس اللاهوتي في حريصا، ومركز الدراسات الإسلامية في جامعة البلمند، وكذلك في جامعة القديس يوسف ببيروت وغيرها من المراكز في مناطق مختلفة.

هدف منشود

يجب علينا جميعاً ـ مسيحيين ومسلمين ـ الإقرار بأن علاقتنا قد انحصرت دائماً تقريباً ـ أو غالب الأحيان أو أقله ـ في لقاءات رؤوساء أو مسؤولين دينيين أو باحث. ولا يزال أمامنا طريق طويل يجب أن نقطعه في سبيل «رجل الشارع» والعامة.

ويمكننا القول هنا بالذات أن الحوار «صبر طويل» وحقل ملغوم بالمتفجرات، واختبار مليء بالمفاجئات، وآراء تترادف وتتناقض وقد تتخاصم وتتازع بعد توارِدها من منبع واحد، لتصب في بحر واحد.

هنالك حقاً مسيحيون كثيرون يرون المسلم وكأنه بعيد جداً في إيمانهم؛ وبالعكس، هنالك مسلمون كثيرون يرون المسيحي وكأنه الفارس الصليبي الفرنجي، واقف بالمرصاد للردّ والقتال.

وما هذا إلا ناتج عن عدم المعرفة المتبادلة، وعدم تفهّم لأمر مشترك بين سائر قطعات الحياة وبين من ينظرون إلى المعضلات الوطنية والاجتماعية والسياسية والتعايش والمواطنة الواحدة والإيمان بالقيم والمثل الإنسانية المشتركة، إضافة إلى الحسّ القومي المشترك.

فيجب علينا أن ندهش لذلك، وأن نعمل بثقة في سبيل الحوار المتقارب والمعايشة والتبادل الفكري والعقائدي والاجتماعي لخلق مجتمع مدرك واعي في أمة واحدة وعالم الفضيلة.

إننا على يقين كلي من أن الناس المسيحيين والمسلمين ذوي القلب المنفتح والمستنير، والإرادة الصالحة السليمة، والذي سيكون لهم تأثير حاسم على تهيئة الجماهير سيكونون قلّة. ولا شك إنهم سيلقون عوناً ـ في هذه الأيام بالذات ـ في وسائل الإعلام الاجتماعي، بنوع خاص، في كون كل إنسان يعي إنه قد اصبح مواطناً صالحاً.

يقول الكردينال دوفال بهذا الخصوص: «... يجب على المسيحيين أن يتكلموا عن الإسلام بطريقة يتقبلها المسلمون، كما يجب على المسلمين أن يتكلموا عن المسيحية بطريقة يتقبلها المسيحيون».

إننا نضع ثقتنا في التعاون العملي المتزايد ابداً بي المسلمين والمسيحيين في أعمال التمدين. وهناك عدد وافر من المسلمين والمسيحيين يعرفون دينهم ودين الآخرين معرفة عميقة وهم مستعدون للتعاون معاً في ميدان الثقافة البالغ الأهمية.

وفي الختام، أود أن أختم كلامي بهذه الصلاة التي اعتبرها متشركة بين الطرفين:

نتجه إليك، يا أبانا
رب جميعنا
بقلوب مسالمة ومليئة بالمحبة،
بنفوسٍ فاضلة، وترفل بالتسامح،
بمهج وقورة، تعتلج بالإيثار،
وإرادات صالحة، وضمائر سليمة،
راجين منك عوناً دائماً،
ونورك الذي يهدينا الصراط المستقيم
اجعلنا أمناء للعبادة التي نؤديها لك
يوجهنا كلام انبيائك ورسلك
اجعلنا نعمل ما يرضيك
لكي يظل كل منا أميناً لدينه وإيمانه،
ومليئاً بالمحبة لقريبه،
واجعلنا نسير دائماً على طريق التقدم والخير، في النور الساطع الذي ترسله إلينا كل يوم.
آمين

الملحق الثاني

الحوار المسيحي الإسلامي
شرط التعايش بأمان وسلام

هب، إنه لا يوجد بين المسلم والمسيحي سوى هذه الرقعة الجغرافية الواحدة التي تضمنا. وهذه اللغة الواحدة التي بها نتداول، وهذا الشطر الواحد من التاريخ الذي صغناه وقطعناه معاً، فهذا كافٍ ليحتم علينا التلاقي والآخاء، ولكن مع أن أربعة عشر قرناً إنسلخت، والمسيحيون يعيشون جنباً إلى جنب مع المسلمين، وكذلك المسلمون مع المسيحيين، فما ورث هؤلاء وأولئك عن الجدود. ولا يزالون يتوارثون سوى التجاهل والتقاطع، فكانت هذه الأعماق السحيقة التي تفصل اليوم بين الجانبين.

إنهم التقوا مراراً عديدة في ساحات التاريخ ومفترقاته، ولكنهم لم يتعارفوا إلا قليلًا ، ولم يتصافوا إلا نادراً، وظلوا إخوة غرباء في بيت أبيهم إبراهيم، وكان التقاؤهم الأول، كما اشتدت الفتنة على المسلمين، هجّر محمد المسلمين إلى الحبشة فوجدوا لدى النجاشي المسيحي موئلًا وكرامه: ثم خمدت الفتنة فعادوا إلى مكة. ولما قضى النجاشي حتفه، صلى محمد على نفسه في البقيع معلناً الحداد الإسلامي الأول على نصراني أدركته المنية.

وقد لقي محمد من المسيحيين في مكة. ثم في المدينة في بدء هجرته،

إخلاصاً في الولاء، وارتباطاً بالعهد. فأحبهم حباً لا غشّ فيه. وفي القرآن آيات كثيرة تعبّر عن هذه المودة.

ومات محمد وانتشرت دعوة الإسلام جهة الشمال ضاربة في البلدان السريانية المسيحية الخاضعة أن ذلك لفارس وبيزنطة، وكانت القبائل المسيحية تكره قيصر الروم لتعسّفه وكسرى الفرس لظلمه، فمشى المسيحيون في طليعة الجيش الإسلامي على العراق وسورية، وكانت في زمن الأمويين الأولين أخوّة ليتها تبعث اليوم، ولكنها ما عتمت أن تبدلت، وأدرك المسيحيون إذ ذاك أن آية القرآن ستطبّق عليهم بالحرف الكتابي فيكونون «أهل ذمة» ويكون عليهم من ثم «أن يدفعوا الجزية عن يد وهم صاغرون» وساءت حالهم جداً فأسلم منهم من أسلم، وقبع منهم آخرون في زوايا الشرق يحافظون على تراثهم الديني وسط مضايق شديدة، ثم وقعت الحروب الصليبية التي مع أنها قاربت بين الشرق والغرب، خلّفت وراءها رصيداً من التباغض والتباعد لم يشف الطرفان منه تماماً حتى يومنا هذا، ثم كان سقوط القسطنطينية سنة ١٤٥٣، والفتح العثماني للوطن العربي سنة ١٥١٦، فانطوى سفر المسيحية إلا بعض صفحات، من بلدان الشرق الأوسط.

فيبدو مما تقدم، أن المسيحية والإسلام قد التقيا غير مرةسياسياً وجغرافياً، فكان تفاعل بين الإثنين أعطى جنىً طيباً في مجالات الثقافة. بيد أن السياسة والثقافة، مهما زكت نتائجهما، فلن تكونا سوى عَرَض في العلاقات الإسلامية والمسيحية، أما الجوهر فإنه أعمق من ذلك كثيراً. إنه في الاحتكاك العقائدي المحض بين الديانتين على ضوء الأصول الثابتة، ويقيننا أن بحث الشؤون الدينية في نزاهة وإخلاص وتجرد كفيل بإيجاد حلّ سوي لمشكلة مجتمعنا فيتيسر لأبنائه من كلا الطرفية أن يعيشوا معاً آمنين في رضى ربهم وظلّ موطنهم.

ولا جرم أنه، منذ ظهور الإسلام، بدأت المحاولات من كلا الجانبين،

وأثيرت المشكلة من هنا ومن هنا، ولا يزال الأمر على هذا النحو نتناساه في شؤوننا اليومية الصغيرة، وتصّر علينا الأحداث حيناً بعد حين فنذكره في ساعات الفواجع. وهنا أيضاً لم تخلّف لنا المحاولات سوى رصيد من الفشل.

فمنذ يوحنا الدمشقي في القرن الثامن، إلى يومنا هذا تتوالى كتابات المسيحيين في المسيحية والإسلام في الشرق وفي الغرب خصوصاً. بيد أن الذين كتبوا اختلفت كتاباتهم باختلاف أوطانهم ونزعاتهم وأغراضهم: فقسم دافعوا عن الإسلام فكان حاديهم في فعلهم إما إلحادهم واعتقادهم من ثم بأن جميع الأديان نتيجة النشوء المجتمعي، ولا فارق بينها لأنها من صنع الإنسان، وأما الطعن بوجه غير مباشر في المسيحية التي مرقوا منها. وأما القسم الآخر فقد سقطوا بالنقيض من ذلك فوصفوا الإسلام بأنه بدعة تعج بالشرّ كله، ونعتوا محمداً بكل نعت قبيح. ولم يتخلف المسلمون عن المسيحيين في هذا المضمار فقالوا في المسيحية أبشع ما يمكن أن يقال، ولا يزالون حتى اليوم يصورون وجهها بأشدّ الألوان سواداً، غير أنهم لم ينالوا من شخص المسيح أبداً فهو عندهم بني الله وكلمته وروحه.

والواقع الذي تيقنت منه في تجوالي بين ما كتبه المؤلفون المسلمون في علمي الكلام والتفسير أو التاريخ والتصوف هو أن الإسلام ما قط طرح على نفسه قضية المسيحية الصرف، بل تجاوزها قبل أن يعرض لها، وحلّها قبل أن تُشكل عليه.

على المسيحيين إذن أن يُقبلوا على تفهم الدين الإسلامي بإخلاص لمعتقد الغير، وانفتاح على ما بينه وبين المسيحية من قربى، وأن يُقبلوا بعد ذلك على عرض حقيقة دينهم لإخوانهم المسلمين بلسان عربي مبين، فيتكون من ذلك أدب مسيحي عربي يجني منه كل واحد، أياً كان إيمانه، ثمار الخير والوفاق، ويجد فيه عقائد ثابتة تؤمّن للجميع ثروة الإخوّة التي لا تعادلها غنائم الخصومات مهما تعاظمت.

وبدون هذه الرجعة إلى الأصول الدينية عبثاً نسعى إلى العيش بأمان وسلام، لأن الحلول السياسية والثقافات مسكنّات خادعة، ولا بد للمؤمنين بآله إبراهيم في زحمة هذه الأعاصير المندرئة على العالم من كل حدب وصوب من أن يقفوا صفاً واحداً للدفاع عن قضية الله التي هي قضية الإنسان: فمعضلة الإنسان اليوم ليست كما يزعم بعضهم، معضلة اقتصادية أو سياسية، ولا هي تطاحن على نفوذ معنوي؛ فالإنسان اليوم أكثر منه في أي زمن مضى من تاريخه الغابر، يبحث عن معبود، وما التطاحن العالي في دنيا الاقتصاد والسياسة والثقافة إلا عوارض سطحية ظاهرة للاصطدام الباطني العميق بين الإيمان والكفر، بين الخير والشر، ولقد آن للمؤمنين بالله الخير الأعظم بل مصدر كل خير أن يلتقوا ويتعاونوا على الحد من طغيان الشر، واندرا، الكفر «لا فرق بين عربي على أعجمي إلا بالتقوى «وكونوا عباد الله إخواناً».

وبديهي أن بين الإسلام والمسيحية عقبات عقائدية كأداء لا سبيل إلى تذليلها مهما دعا الداعون إلى التفاهم: فالنقائض لا تتبخر بتصافح الأيدي، وما الدعوة إلى إزالة الفوارق ابتغاء دعم الديانتين، في عقيدة موحدة سوى دعوة إلى خلق صنيعة ممسوخة تكون على كلتا الديانتين وبلاء وبلا فادحين لأن الفوارق بينهما تغور حتى جذور الجوهر بالذات.

فمن هنا ومن إلهام الروح القدس طرح المجمع الفاتيكاني الثاني (١٩٦٢ ـ ١٩٦٥) قضية الحوار المسيحي الإسلام على أسس علمية وفكر صحيح سليم سيما في نقاط اللقاء الجوهرية، التي نوجزها بهذا الطرح الجديد والمهم في العالمين المسيحي والإسلامي وعبر اللقاءات الأولى بين المسيحيين والمسلمين بدءاً من حكم الخلفاء الراشدين ومروراً بالأمويين والعباسيين، ومن ثم في أيامنا الحاضرة.

لأول مرة في تاريخ الكنيسة ناقش المجمع الفاتيكاني الثاني، على مستوى مذهبي ـ عقائدي مشكلة العلاقة بين الكنيسة والديانات غير المسيحية. حيث

خصّص لهذه المسألة المهمة تصريح خاص حول «علاقة الكنيسة مع الديانات غير المسيحية» والذي نوقشت بعض جوانبه بصورة أو بإخرى في عدد من الوثائق الصادرة عن المجمع: في «الدستور العقائدي في الكنيسة» وفي «الدستور الرعوي في الكنيسة وعالم اليوم» وفي القرارات الجمعية: «في رسالة العلمانيين، وفي مهمة الأساقفة الرعوية في الكنيسة» وفي «نشاط الكنيسة الإرسالي» وفي البيانات والإعلانات الصادرة عن المجمع «في الحرية الدينية» وفي «التربية المسيحية».

كما أولى هذا المجمع اهتماماً خاصاً للإسلام. فللمرة الأولى منذ أربعة عشر قرناً من وجود المسيحية والإسلام، يتحدث مجمع مسكوني كاثوليكي بصورة إيجابية عن المسلمين، معترفاً بوضعهم الديني المتميز. حيث جاء في النص النهائي للتصريح حول علاقة الكنيسة. بالديانات غير المسيحية ما نصه: «أن الكنيسة تنظر بعين الاعتبار أيضاً إلى المسلمين الذين يعبدون الإله الواحد الحيّ القيوم الرحيم القادر على كل شيء خالق السماء والأرض ويكلم البشر الذين (أي المسلمين). يجتهدون في أن يخضعوا بكليتهم حتى لأوامر الله الخفية، كما خضع له إبراهيم، الذي يسند إليه بطيبة خاطر الإيمان الإسلامي. وإنهم يجلون يسوع كنبي وإن لم يعترفوا به كآله، ويكرمون أمه مريم العذراء، كما إنهم بتقوى يتضرعون إليها أحياناً، علاوة على ذلك، فإنهم ينتظرون يوم الدين عندما يثيب الله كل البشر القائمين من الموت، ويعظمون الحياة الأخلاقية، أيضاً ويؤدون العبادة لله لا سيما بالصلاة والزكاة والصيام».

وإذا كانت قد نشأت على مرّ القرون منازعات وعداوات كثيرة بين المسيحيين والمسلمين، فالمجمع المقدّس يحضّ الجميع على أن يتناسوا الماضي ويتصرفوا بإخلاص إلى التفاهم المتبادل، ويصونوا ويعززوا معاً العدالة الاجتماعية والخيور الأخلاقية والسلام والحرية لفائدة الناس جميعاً.

لقد قوبلت دعوة المجمع الفاتيكاني الثاني «الجميع أن يتناسوا الماضي

وينصرفوا بإخلاص إلى التفاهم المتبادل» بارتياح وترحيب سواء ضمن أوساط الكنيسة الكاثوليكية ذاتها أو في العالم الإسلامي. إلا أن التطبيق العملي بدا أكثر صعوبة وتعقيداً.

إلا أن الهيئة المركزية الرسمية للكنيسة المكلّفة إجراء الحوار مع المسلمين أصبحت هي الأخرى أمانة سرّ (السكرتارية) لشؤون الديانات غير المسيحية والتي تكوّنت في إطارها ثلاثة أقسام في بادئ الأمر: للشؤون الإسلامية، للشؤون البوذية، ولشؤون الديانات الإفريقية التقليدية.

ومن هنا فإن الحوار الإسلامي المسيحي لم يعد شأناً لاهوتياً أو سجالًا أو ترفاً نظرياً، بل هو تحوّل إلى حاجة وضرورة في عالم اليوم. تَرْقىٰ إلى مستوى المغامرة أن أريد له النجاح في بلورة مشروع نضالي تاريخي إنساني مشترك، ولم يعد مقبولًا اليوم الاكتفاء بشكليات العلاقات الإيجابية الضرورية والمفيدة بين الدول والزعماء أو بعلاقات الفاتيكان بدول العالم الإسلامي.

لقد أصبح من الضروري اليوم إدراج الحوار الإسلامي المسيحي في سياق أعمّ وإطار أشمل، وتحويله إلى إطروحة فكرية لها موقعها المميز في مشاريع الدول المنظمات. وبدل افتتاح عهد «صِدام الحضارات» يطمح المخلصون والمؤمنون إلى افتتاح عهد «حوار الحضارات» وفي القلب منه حوار منه حوار الأديان التوحيدية عموماً والحوار الإسلامي المسيحي خصوصاً.

إن حوار الحياة والعيش المشترك في العراق هو أبسط أشكال الحوار وأعتاها في آن واحد. غير أن المطلوب لتعزيز هذا الحوار وتطويره ولتحصين الحياة الآمنة له هو أكبر من مجرد التجاور والتعاون وأبعد من عيش مشترك. المطلوب أفق ورؤية أشمل ينتجان قيمة متميزة تعطي للنموذج الاجتماعي معنىٰ وترسم للحوار دوراً.

إن مهمة الحوار ينبغي أن تصوغ أنظومة قيم مشتركة مستمدة من الرسالات السماوية ومن التراثات الروحية للمجموعات المسيحية والإسلامية تسمح

بمواجهة تحديات المعاصرة والحداثة. إن هذا الأمر لا يعني مجرد تكرار للوصايا العشر أو لمستلزمات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فحسب، وإنما يعني أولاع وأساساً استنطاق التراث الروحي والخبرة الدينية لصوغ فقه حواري تعايشي ولاهوت أو علم كلام تحرري تغييري يشكلان معاً انظومة ضابطة من القيم والمعايير المتعاهد عليها، تكون استمراراً وتجسيداً لتعاليم الدينين.

إن على الحوار واجب الإجابة عن الأسئلة المتعلقة بعلاقة الإنسان بالطبيعية (حماية البيئة ونظافة الكون) وعلاقته بأخيه الإنسان (حقوق الله وحقوق البشر، حقوق الفرد وحقوق الجماعة) وبغائية العلوم والاكتشافات، وبعلاقة الإنسان بالعلم والتكنولوجيا، بمحيطه البيئي والسكني والمديني، بعلاقة الريف بالمدينة، وبالإنماء المتوازن المستند إلى الإنسان وطاقاته وقدراته إلى غير ذلك.

إن واجب الحوار، استنطاق القيم المشتركة في الدينين والتي تستطيع صوغ الأسئلة الوجودية وطرح الإشكالات الإنسانية والمجتمعية الحضارية، وطرق أبواب البحث عن الإجابات المشتركة التي تنتظرها البشرية.

إن المطلوب من الحوار هو توليد قيمة جديدة نابعة من الإيمان الديني الإبراهيمي واكتشاف المساحات المشتركة التي توّحد بين الدينين في قضايا الإنسان والمجتمع. فيكون الدين في نطاق الأصول الإيمانية المشتركة منطلقاً للحوار لا موضوعاً له، ويكون الحوار هادفاً لاستنباط صيغ جديدة في الإدارة والتنظيم السياسي والمجتمعي ووسائل جديدة في الثقافة والإرشاد والاقتصاد والإنتاج تجعل الإنسان يحتفظ برقية المادي ويستعيد في الوقت نفسه ذات وإنسانيته.

إن تأصيل قيم المحبة والتعاون والتكافل والتواضع والجهد والجد والعمل والبحث عن المعرفة والحقيقة، والعدل والسلام، والتوازن والاعتدال، والوسطية والمعروف، واستنطاق هذه القيم في حياة البشر وتجاربهم هي دليلنا إلى حوار حي ولود خلّاق.

إن الدين هو الحاضر والمستقبل، وليس المثال المنقطع في التاريخ. وأن شخصية الإنسان العربي المسلم والمسيحي، هي شخصية مركبة عقيدها الناظم هو الدين (الإنسان الديني) وحبّات هذا العقد تتشكّل من انتماءات ومستويات متنوعة (فردية، عائلية، عشائرية، مناطقية، مهنية مذهبية، طائفية، قومية... إلخ) إضافة إلى التلوّن بألوان ومناخات ثقافية رافدة من الخارج كما من محيطه القريب. ولا يجوز اختزال هذا الإنسان إلى مجرد فرد ـ مواطن في مواجهة الدولة ـ الإله...

ومن هنا إخلال الدين في محلّه الفعلي يعني أولًا إيجاد التناغم والانسجام في العلاقة بين الدولة والدين، أي تنظيم الصلات بين الدولة والمجتمع. إن الدولة هي جهاز إدارة وضبط للنشاطات المشتركة في المجتمع أي للخير العام المشترك، وهي بهذا المعنى تستخدم وسائل تنتقيها بسبب فاعليتها ومردوديتها؛ فيما تظل غايتها مرتبطة، في جوهرها بالقيم التي يؤمن المجتمع بها (وهي قيم يحددها الدين).

وأبرز مساحات العيش المشترك هي المدينة والحياة المدينية التي تنتظم فيها وحولها. إن بغداد العيش المشترك ليست الكرادة والسنك والدورة وتل محمد.. إن بغداد العيش المشترك والذاكرة والوجدان، هي بغداد الكادحين والعاملين من عمال وموظفين وصغار الكسبة، بغداد الشوارع والأزقة والحارات والأحياء، بغداد المدارس والمعاهد والجامعات، بغداد الأسواق والمحلات والحوانيت، بغداد اللقمة الحلال والضحكة البريئة، بغداد المسجد والكنيسة والأعراس والافراح والأحزان والمأتم، بغداد المكان والموقع والمعنى والدور.. بغداد الحوار اليومي بين الموطنين مسلمين ومسيحيين.

ـ مواجهة الفساد وسطوة المال وثقافة الجنس من منظور أخلاقي ـ روحي واحد:

هذه نقطة مهمة تستلفت الأنظار ضمن الحوار والعيش المشترك أو

المعايشة. فالفساد، كما المال، لا دين له ولا مذهب له. وإن مواجهة هذا الطاعون القادم إلى بلادنا والمرشح للتوسع مستقبلاً إلهي مهمة وطنية ودينية مشتركة من أجل إعادة بناء الشخصية الحضارية السوية للمواطن والمجتمع. ومن أجل تمجيد الله وحفظ أمانته في خلقه.

إن مثلث المال ـ الجنس ـ المخدرات، هو الحضن الطبيعي للفساد العام والخاص، وهو ينمو ويترعرع وسط ضفاف السلطة والقوة عليها. ولا بد من بناء جبهة إيمانية مشتركة ـ تواجه تحديات هذا العصر المتمثلة بإنفلات طاغوت السلطة ـ القوة ـ ومثلث الشيطان (المال. الجنس. المخدرات) وليس غريباً أن نرى التداخل والتشارك بين أعمدة هذا الهيكل الشيطاني من سلطة مكتسبة بفعل المال الناجم عن تبييض غنائم المخدرات، ومن توظيف لهذا المال في بناء امبراطوريات الإعلان وسوق المطبوعات والأفلام الإباحية.

وكل ذلك يؤسس لثقافة وقيم نظام معين، ولممارسة تفكك المجتمعات، وتضرب التضامن والتكافل الاجتماعي وتعبق التنمية وتغرق العالم الثالث في بحار الظلمات من بؤس وفقر ومديونية واستهلاك رخيص، وسوق سلاح وحروب ومجاعات. والغريب أن الغرب ينتج من داخل ثقافته السائدة ثقافة مضادة، نقدية، مقلومة تبدع أفكاراً ورؤى وممارسات وحالات إنسانية رائعة فيما بلادنا ومجتمعاتنا تأكل وتستهلك ثقافة الغرب الشيطانية، ولا تلتفت إلى ثقافة النقدية الإنسانية والغريب أن ما نستورده هو أبشع ما في الغرب من شواذ ورذائل، ولا نلتفت إلى ما فيه من خير وفكر وتساؤلات لقد طغى هذا الطاعون من خلال التلفزة وعمّ الأذى الناجم عن أفلام العنف والجريمة والسطو والاغتصاب والإباحية والجنس الاستهلاكي والإعلانات المروّجة لسلع استهلاكية على أساس صورة المرأة ـ السلعة الجنيسة الشهوانية الرخيصة، الأمر الذي يسيء إلى كرامة المرأة ويهبط بقيمتها ويزعزع عوامل الاحترام المتبادل والحب والمودة والتراحم. إن وحش الإعلان المبتذل والإعلام الوقح الكاسر

الذي يقتحم كل الحرمات بسطوة المال وبحماية السلطة، وتحت شعار الحرية وحقوق الإنسان، لهو أكبر جريمة ضد الإنسانية وضد الحرية وأكبر استباحة للقيم والأخلاق وللتعاليم الدينية والمبادئ الإنسانية.

إن مواجهة هذا الفساد المستشري تكاد تكون عنواناً رئيساً مفصلياً حاسماً يمكن أن ينعقد حوله جهد وطني شعبي إسلامي ومسيحي يطلق تياراً واسعاً لإعادة الاعتبار للقيم والمبادئ، ولمثالات الجامعة وللشخصية السوية المتوازنة، وللحضارة الإنسانية ولمجتمعاتها المنتجة الكادحة فكراً وعملاً.

ـ نشر ثقافة الحوار وقِيَمَها ومبادئها وسط الشباب:

لقد تميزت أجيالنا بحملها أفكاراً ومفاهيم جعلت منها مطلقات مقدسة لا تقبل الحوار. وعلى رغم إدعاءات الديمقراطية والحوار. وعلى رغم إدعاءات الديمقراطية والحوار والمجادلة بالتي هي أحسن، فإن مفهوم الحوار كان يعني بذل الجهد لإقناع «الآخر» أي جعله يغادر مواقعه ويتخلى عن آرائه وأفكاره ويتبنى ما نؤمن به نحن. إن الحوار بهذا المعنى كان يستبطن على الدوام نظرية القوة وميزان القوى ويقوم على الغلبة والاستقواء وما تحمله من قيم التذاكي والتنابذ والتشهير وصولاً إلى تجاوز كل المحرّمات.. أما اليوم، فإن جيل الشباب الحائر الباحث عن قيم شديدة وأفكار جديدة، هذا الجيل لا يملك خبرة الجيل السابق، ولا يملك الظروف الاجتماعية ـ الاقتصادية ـ والبيئة السكنية ـ الحضارية، وانظومة القيم المجتمعية والضابطية، وحالة الاستقرار والأمان، وعناوين القضايا الكبرى التي شغلت أجيالنا والأجيال السابقة، وتالياً فإن هذا الجيل الجديد يفتقد إلى أدنى حد من مقومات الحوار.

إن الكلام عن الحوار والتغنى به وبفضائله وأدعاء احترام الآخر قد يخفي أحياناً (وغالباً ما يكون ذلك صحيحاً) احتقاراً للآخر وتجاهلاً له وجهلاً به وانتفاخاً للذات ما يستتبع إنتاجاً لعصبية مقيتة قد تتحول بركان عنف أعمى. إن الحوار يبدأ

من ضرورة قبول الآخر كما هو، لا كما نريده نحن أن يكون أو نتصوره. وقبول الآخر يبدأ من فهمه ومعرفة حقيقته. إن معرفة النفس مقدمة للكل معرفة، كما أن معرفة الأخرى مقدمة لمعرفة النفس. ومن هناك ضرورة نشر وتعميم معنىٰ الحوار وثقافته وقيمه، باعتبار التكامل لا التضاد بين الأنا والآخر، وباعتبار الاغتناء لا الإلغاء، وباعتبار المعرفة لا الجهل، وباعتبار الوصول إلى قواسم مشتركة تنطلق منها لحوار آخر لا التحصن في مطلقات غيبية مقدسة.

وفي هذا الإطار يدخل أيضاً العمل من أجل تربية تعرّف بالآخر وتنفتح على تراثه الديني، وهو عمل صعب وخطير وقد سبق لمجلس كنائس الشرق الأوسط أن قام بمحاولات ونظمّ مؤتمرات في هذا السبيل. كما قامت بعض مراكز الأبحاث والدراسات بنشر كتب تربية مدنية موحدة وجديدة من نوعها تركّز على الحوار وعلى فهم الآخر وقبوله. ما زال المطلوب أكبر بكثير مما هو حاصل، خصوصاً إذا عرفنا مقدار الجهل المتبادل ومقدار الخرافات والأوهام السائدة في صورة الآخر والنظرة إليه. أن الاعتراف بالآخر وقبوله كما هو يعني أول ما يعنيه التعرف عليه من خلال تراثه الديني كما هو، ومن خلال مصادره ومن خلال المقاربة النقدية: لثقافات وحضارات وديانات الشعوب والأمم... كما أن وجود طفلين في مدينة واحدة لا يتاح لهما اللعب معاً والدرس معاً والفرح معاً لأن مدارسهما لا تعطلّ في ذات الأعياد مثل عيد ميلاد السيد المسيح يقتصر على المدارس المسيحيين وغيرها لهو أمر يدعو ليس فقط إلى الأسف والحزن، وإنما إلى القلق والخوف.

وهكذا نقول إن الحوار هو السبيل الحقيقي لنهضة حضارية شاملة، وإنه شرط للتعايش بأمان يفتح آفاق الديمقراطية والعدالة والتنمية والسلم والتقدم...

الملحق الثالث

الإسلام والمسيحية
نحو مجتمع أكثر أخوّة ومحبة وتسامح
الحوار والعيش المشترك

مقدمة:

الله أخوّة ومحبة وتسامح،

«أحبوا بعضكم بعضاً... أحبوا أعداءكم، باركوا ولا تلعنوا.. صلوا من أجل الذين يضطهدونكم... ما من حب أعظم من هذا أن يبذل الإنسان نفسه عن أحبائه».

بهذا الدفق من الشعاع فاه السيد المسيح في سمع الدهر. وردّد صدّى لنجواه الرسول محمد بقوله: الخلق كلهم عيال الله، أحبهم إليهم أنفعهم لعياله» ليكون من بينهما، إذا استحالا في ذاتية البشر فعل إيمان، ينابيع، «على الأرض السلام وفي الناس المسرّة».

توقّع أجراس ابن مريم البتول، أنشودة الآذان لابن آمنة محمد، ألحاناً تدفع البشرية جمعاء إلى دنيا في كل أنحائها تراجيع «حيّ على الصلاة، حيّ على الفلاح».

والدين العقيدة في مكنون اللغة يعني العقد والالتزام. فأرادة الديانات أن توحّدنا في الله، فاختلفنا عليه، وطفق كل فريق على أن يدخله جاهداً في مُلْكه،

ولكن رويدكم يا هؤلاء، فإن الله لأقدس وأجلّ وأكبر من أن تتناولوه بعقلية الثروة والسلعة والمتاع.

سَمَت نفس محيي الدين ابن عربي الصوفي الأشهر يوماً إلى المطلق الأسمى، فقال يصوّر لنا سريرة قلبه بين حالتين بقوله:

لقد كنتُ قبل اليوم أنكِرُ صاحبي
إذا لم يكن ديني إلى دينه داني

فقد صار قلبي قابلًا كل صورة
فمرعى لغزلان ودير لرهبانِ

وبيت لأوهامٍ وكعبةَ طائفٍ
وألواح توراة ومصحف قرآن

أدين بدين الحب أنّى توجّهتْ
ركائبُه، فالحب ديني وإيماني

الحوار والعيش المشترك:

فكرت طويلًا قبل البدء بكتابة هذه الكلمة في المنهج الأصلح لمعالجة هذا الموضوع الشائك الصعب، لكثرة المسلّمات المتناقضة لدى الأطراف المختلفة، فيما يتصل به ذلك أن عيش المسلمين مع أبناء الديانات والثقافات الأخرى تجربة تاريخية عريقة ضمن النطاق العربي وضمن النطاق الإسلامي. هذه التجربة التي انتهت جوانبها القانونية بسقوط الدولة العثمانية، والتي كانت تجربة غير ناجحة للعيش المشترك لارتباطها بالصغار والتمييز في القيمة الإنسانية، وفي حقوق الفرد والجماعة، وهي الحرية بمعناها الإنساني العميق.

وعليه لا بد من الحوار والعيش المشترك اللذين بينهما رباط عضوي. فالحوار من شأنه أن يؤكد نقاط التلاقي بين الديانات. والعيش المشترك يبرهن

على الأخوّة والمحبّة والتسامح بخلق مجتمع جديد يصبو نحو تحقيق عيش أفضل وأرقى.

إن البحث في تعديل النصوص وإصلاحها والتي نعيش في ظلها، وتطبيق شرعة حقوق الإنسان والمواطن والحفاظ على تقاليد القيم الروحية والأخلاقية، كل ذلك هو أمر له قيمته، إنما ما هو أهم من النصوص، وأكثر فعالية، هو تفهمها وتطبيقها المشترك..

ومن البديهي، أن العيش المشترك الذي نسعى إليه، لن تكتب له الحياة، ويرجى له البقاء إن لم يرتكز وينطلق من الحوار الحر الذي يعتمد تبادلاً صريحاً ورصيناً للحجج والآراء سيوصل حتماً إلى معرفة بعضنا بعضاً بعمق وشمول. فلقد قيل قديماً وبحق: «الإنسان عدو ما يجهل» فهل أستطيع أن أعيش مع جاري إذا لم أتعرّف عليه وأزوره، وأحاوره وأتحسس مشاعره وأشاطره الأحزان والأفراح؟ فهيا إذن إلى حوار الصدق والمحبة، يبدأ بين الأفراد، ثم يمتد إلى الأحياء والقرى والمدن، ليشمل بعافيته وروحانيته أخيراً سائر المواطنين جميعاً.

ولكن من المحال أن نتحاور بمحبة ونعيش بسلام، إذا لم نؤمن بالأخوّة في الوطن الواحد بما لسوانا من حق عندنا وعليما مرددين قول الشاعر:

ما دمتَ محترِماً حقي فأنت أخي

آمنت بالله أم آمنت بالحجر

وقبل البدء بتحديد الموقف من العلاقات بين المسلمين والمسيحيين، أريد أن أبيّن أبعاد العبء الثقيل الرازح على أكتافنا من جرّاء تاريخنا وحاضرنا ثم اعرض مبادئ النظرة السليمة للحوار الإسلامي المسيحي قبل أن أنتقل في مرحلة أخيرة إلى استخلاص النتائج بالنسبة للعمل المشترك الواجب إنجازه في مستقبل مشترك تسود فيه القيم الإنسانية.

الأعباء الصعبة:

١ ـ عبء التاريخ:

من الأعباء المضنية التي تقف حاجزاً دون القيام بحوار إسلامي ـ مسيحي مثمر هو عبء التاريخ.

إن تاريخ العلاقات بين المسيحيين والمسلمين في القرون الماضية، لم يكن في الواقع تاريخ أخوّة تربطهم بعضهم ببعض أواصر القربى والمودة. إن هذا التاريخ كان قبل كل شيء تاريخ نزاع طويل وصراع كان يشتد عنفاً من وقت إلى آخر، وذلك على رغم تكييف العلاقات الثقافية بين الطرفين بما فيها تبادل العلم ومقوّمات الحضارة، وتوثيق العلاقات الاقتصادية. (اذكر منها على سبيل المثال نشاط دار الحكمة في بغداد وجلب مخطوطات الفلسفة اليونانية والعلم الهليني من القسطنطينية وحركة الترجمة، ثم حمل الحضارة الإسلامية إلى أوروبا من طريق إيطاليا والأندلس).

أما النزاع السياسي فكان له في بعض المراحل أثره السلبي في النقاش العلمي والجدال الديني، محولاً هذا الجدال ميداناً للتهجم على الخصم ودفع عقائده ومقومات إيمانه، والحكم عليها بالضلال البعيد والعبث الفكري.

وكان هناك في كثير من حقبات هذا الماضي انزلاق من السماحة الوديعة إلى الطغيان الباغي، ومن البحث عن الفهم والتفاهم إلى القضاء والحكم والإدانة.

وكان هناك أيضاً تحوّل من البحث عن العناصر الفكرية والعقائد الدينية والقيم الأخلاقية والشرائع المسلكية المشتركة بين المسيحية والإسلام، إلى التركيز على نقاط التناقض بين الدينين والاختلاف بين أنظمتهما الاجتماعية.

٢ ـ عبء الحاضر:

إن عبء الحاضر الذي يثبط المحاولات الرامية إلى تنشيط الحوار

الإسلامي المسيحي والعيش المشترك، يتعلق بغموض المواقف المختلفة في العلاقات الدولية ومغيبات المستقبل، ما لا يشجع على اكتساب السكينة العاطفية والصفاء الفكري اللذين لا بد منهما لمن يشتغل بقضية الحوار الإسلامي ـ المسيحي.

فهناك ظواهر تسيء إلى العلاقات الاجتماعية بين العالم الإسلامي والعالم الغربي. وهذه الظواهر مؤداها أن العالم الإسلامي في إطار تحرّك نشاط الأصوليين، تنشر صورة عنه في الغرب وكأنه هو الخطر الأول على السلام وعلى مستقبل البشرية. وهذه الظواهر مؤداها أيضاً من الناحية الأخرى أن الغرب بدوره تنشر عنه صورة في العالم الإسلامي وكأنه مجتمع منحط مُنهار معدوم الأخلاق ويشكل خطراً على العالم الإسلامي. ثم هناك الخطأ في المفاهيم الذي لا يزال يجعل الكثير من المسلمين يساوون بين الغرب والمسيحية، وينسبون سلوك الغرب إلى الدين المسيحي، من دون أن يدركوا أنه تم انفصال بين الدين والدولة في الغرب وذلك من زمن بعيد. بالغرب ليس فيه من المسيحية نظام سياسي مسيحي. غير أن جذور القيم الأخلاقية التي ما لبث الوجدان الغربي يحترمها هي متأصلة في التراث المسيحي.

ومن هنا جعلنا بحثنا على محورين. الأول: الحوار الإسلامي المسيحي. والثاني: العيش المشترك في مجتمع جديد.

أولاً: الحوار الإسلامي المسيحي

لا أريد التوسع، والوقوف طويلًا بهذا الموضوع الأول، إذ عرضت ما فيه الكفاية في البحث المرفق مع هذا الملخص، عسى أن ينشر كاملًا في كتاب أعمال المؤتمر، فيقف القارئ على جوانب عديدة ومسهبة حول حركة الحوار الإسلامي المسيحي عبر التاريخ الماضي والحاضر. إنما فقط أكتفي بتعريف الحوار هذا فأقول:

تعني لفظة حوار «الوقوف معاً، في سبيل معرفة بعضنا بعضاً، وفي سبيل تفاهم وصداقة ومحبة. فهذه هي سُنّة الحياة الحقة، إذ أن الانفتاح يُغني الشركة واللقاء والمعايشة، والانغلاق يعني الموت.

يقوم الحوار بين مختلف الأديان على قِيَم دينية، جوهراً. وجعل هذه القِيَم أمراً مشتركاً يُمكّن من مقارنة اختبارات سائر الأطراف، ومن خلق تفاهم متبادل، إنما يعني، غالب الأحيان، أن نعزز معاً أهداف تحسن اجتماعي مشتركة.

إن الحوار كما نفهمه نحن المسيحيون، ويفهمه معنا إخواننا المسلمين لأمر إيجابي، جوهراً يحاول أن يكون بعيداً عن الجدل العقيم. وما أروع كلمة سيفن نيل: «لا يمكن أن يقوم حوار فعلي بين الديانات الأخرى ما لم يقارن أفضل ما في الواحدة مع أفضل ما في الاخرى».

إنه لمن الطبيعي أن يجري الحوار بروح الاحترام المتبادل الكلي لمعتقدات الآخرين وآرائهم، فلسنا نحن والآخرون في مقارنة لنتخاصم بل لنتعارف ونستنير بعضنا ببعض.

من هنا ضرورة إقامة الحوار بمحبة، لا بل نقول بفرح متبادل في الاصغاء إلى إيمان الآخر دون التخلّي عن إيماننا إصغاءً مليئاً بروح الصراحة، والاستقامة، فإننا نجد في مجتمعات البلدان والأديان والأُسَر أمثلة بالغة الدلالة عن روابط محبة واحترام تقوم أيضاً بين أناس مختلفي الاعتقادات.

فالحوار يجب أن يكون بعيداً عن أي لون من ألوان التعصب. فمن الواضح أن كل دين لا بل كل مؤمن ينتمي إلى دين يتمتع بالحرية في العمل في سبيل جعل الآخرين يقبلون إيمانه، فمن الحكمة المشتركة أن يكون جميع المؤمنين أصدقاء أو متساوين أو ساعين إلى الصداقة والمساواة... وفي النهاية إن الحوار عملي أكثر من نظري، يتم على مستوى القلوب أكثر منه على مستوى العقيدة حتى وإن أدّى دائماً إلى العقيدة...

وهكذا، استشراف العناصر والمقدمات للحوار بين المسيحية والإسلام يبلغ بنا إلى معرفة وتعارف، هما وحدهما يوصلان إلى اتفاق على صيغة للعيش المشترك، ذلك أن الأمور المشتركة بينهما تشكل الأساس الذي ترتكز عليه علاقات الأخوّة والمحبة والتعاون مع التسامح ونقطة انطلاق لبناء عيش مشترك.

نحن إذن مدعوون في هذا الزمن الصعب لخلق ذهنية جديدة، فلا يتوقف الحوار بين المسيحية والإسلام عند الأمور المختلف فيها بين الديانتين، وإلا بقيت المسافات بيننا في الوطن، فيما العالم يسعى إلى إزالة المسافات بين البلدان. بل الهدف من الحوار في هذا العصر ـ وقد أشرفنا على نهاية الألف الثاني لندخل في الألف الثالث ـ هو إبراز الأمور المشتركة. وبالتالي إزالة الالتباسات والأفكار الخاطئة لدى كل من الطرفين حول عقائد الطرف الآخر، بغية الوصول والتوصل إلى احترام متبادل، وإلى قبول الآخر كما هو، في غَيريَّته. وإلى إرادة التعاون لكي يحقق كل واحد الصيغة الإنسانية التي تميّزه، وتجعل منه ما هو.

معلوم أن المسيحية والإسلام ديانتان مختلفتان وستبقيان كذلك، فلا بد لنا من الاعتراف بواقع الاختلاف العقائدي وبالحق في الاختلاف، لأن كل منهما يستند إلى كتاب لديها تعتبره مقدساً، وترتكز عليه لتؤكد صحة عقائدها.

نفهم من هنا، أن المسيحية والإسلام طريقان متنوعان يقودان كلاهما إلى الله الواحد، وبالتالي إلى القيم التي تبني إنسانية الأفراد والجماعات.

هذه هي الذهنية الجديدة التي لا يقول أحد منا معها بعد اليوم، أن دينه هو وحده الدين الصحيح، والآخر على ضلال بيّن أنها ذهنية تعرض علينا سلوكاً جديداً يمنعنا من الاستمرار في خطى العصور السابقة، ألا وهو التفكير المتبادل، وتقتضي مِنّا نظرة جديدة منفتحة على الآخر، ينتج منها الاحترام المتبادل والمحبة المتفهمة لحق الآخر في أن يكون مختلفاً في تصوراته العقائدية

لله، وهكذا نعيش وحدتنا في التنوع، فلا يسعى أحد منا إلى إزالة الآخر أو حرمانه من حقوقه في المساواة التامة في الإنسانية وفي الدولة.

هذا هو النهج الذي تسير فيه الكنيسة وقد أعلنته رسمياً في المجمع المسكوني الفاتيكاني الثاني في الوثيقة المعروفة «بيان في علاقة الكنيسة بالأديان غير المسيحية» حيث يقول آباء المجمع:

«إن الكنيسة، في مهمتها الرامية إلى تعزيز الوحدة والمحبة بين الناس، بل بين الشعوب، تنظر ههنا في ما هو مشترك بين الناس، يحدوهم على أن يَحيَوا مصيرهم المشترك».

ثانياً: العيش المشترك

نقسم الكلام هنا إلى قسمين: الأول حول الأحكام الإسلامية في حقوق المسيحيين (أهل الذمة) في الدولة الإسلامية منذ نشوئها في عهد الخلفاء الراشدين، وإلى يوم سقوط الدولة العثمانية التي كانت تحكم الرقعة الكاملة للوطن العربي حيث يعيش المسيحيون إلى جوار المسلمين. وهذا أيضاً لا أريد التوسع فيه هنا لأنه معروف وقد درسناه أغلبنا في كتب مادة التاريخ المدرسية الخاصة والعامة، إنما مجرد التذكير والمذاكرة إذ قد توسعت فيه وبإسهاب مشهود في البحث الكامل المرفق مع هذا الموجز فأقول:

لقد أباح الخلفاء الراشدون ومن جاء بعدهم من خلفاء بني أميّة وبني العباس استناداً إلى القرآن الكريم والأحاديث بإعطاء الحقوق السياسية لكافة أهل الذمة، بحرية الرأي، والاجتماع في كنائسهم ومعابدهم والقيام بشعائرهم الدينية وتبادل الآراء فيما يخص اختيار وانتخاب رؤسائهم الدينيين، وما يترتب على ذلك من مناقشة أوضاعهم وحل مشاكلهم فيما بينهم بجو من الحرية التامة على أن لا يسيئوا استعمالها بإثارة الفتنة أو التحريض على العصيان أو الردّة أو الدعوة إلى التشكيك في العقائد الإسلامية.

هذه الحقوق قد أقرّها الإسلام لأنه سمح للمسلمين بمناقشة آرائهم الدينية وعقائدهم بالحسنى فقال القرآن:

﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ [العنكبوت: ٤٦]. وقد اعترف الرسول بحقوقهم هذه وجعلهم على قدم المساواة مع المسلمين في الحقوق والواجبات فقال: «... **فأعلمهم أن لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين**». (الكاساني: بدائع الزهور ج٧ ص١٠٠).

كذلك أعطى الإسلام الحقوق الدينية لأهل الذمة في ممارسة شعائرهم الدينية مستوحين هذه السياسة من القرآن القائل: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦]. فسمح لهم إقامة شعائرهم وطقوس عباداتهم، ويتجلى هذا التسامح في العهود والمواثيق التي أعطاها الرسول والخلفاء والأمراء والقادة لأهل الذمة. مع الحرية المطلقة في ممارسة هذه الطقوس في المدن والقرى، وإن اختلف الفقهاء في كيفية ممارستها وإقامتها.

وأيضاً بلغ من اهتمام الرسول والخلفاء بمصالح أهل الذمة ورعاية حقوقهم والإشراف على أحوالهم ما دفعهم إلى تمكينهم ومساعدتهم في أحوالهم المعاشية، فأباحوا لهم التمتع بموارد الدولة المالية ومرافقها العامة، ومشاركتهم للمسلمين بها. فقال الرسول: «**الناس شركاء في الماء والكلأ والنار**» (أبو عبيدة، الأموال) ولذا فقد ضمن لهم من موارد بيت المال في حالة الحاجة والعجز لأنهم من رعايا الدولة الإسلامية. وقد أوجب الرسول على الخلفاء ضرورة الإشراف على أحوال الرعية، وأن الإمام مسؤول عن رعيته، فالإمام راع ومسؤول عن رعيته» (الزيلغي في تيسير الوصول ج٢، أخرجه كتب الحديث الخمسة عدا النسائي) وقد أوصى القرآن بحسن معاملتهم فقال: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

كذلك ضمن الإسلام ومنح حقوق أهل الذمة في العمل والوظائف في الدولة الإسلامية حيث أطلق لهم حرية العمل في الحياة الاقتصادية والمساهمة

بالأعمال المختلفة التي يرغبونها من تجارة وصناعة وحرف كالمسلمين إلا الربا فهو محظور عليهم كالمسلمين. كما منهم من بيع الخمور ولحم الخنزير في أمصار المسلمين أو إدخالها على وجه الشهرة والظهور، إلا أن يبيعوها في قراهم، وأمصارهم فيما بينهم، ولو كان فيه مسلمون (السرخسي ج٢، والكاساني ج٧).

وقد أجاز الفقهاء مشاركة المسلم الذمي والعمل معه على أن يلي المسلم البيع والشراء، فقد قام الرسول بأعمال البيع والشراء والرهن مع أهل الذمة (ابن القيم في الأحكام أهل الذمة).

وقد استخدم حكام المسلمين أهل الذمة في وظائف الدولة المختلفة مع العلم أن وظائف الدولة ليست حقاً للفرد على الدولة إنما هو تكليف تكلفه به الدولة إذا كان أهلًا لها، وواجب يقوم به الفرد إذا عهد إليه بها. (زيدان، أحكام الذميين) وقد أجاز الفقهاء لأهل الذمة تولي الوظائف بالدولة ومنهم الماوردي وأبو يعلي والحسن البصري. فقالوا: (يجوز للخليفة أن يولي وزارة التنفيذ لأهل الذمة).

إضافة إلى حقوق زوجة المسلم النصرانية، وحق السكن وحق الضمان، وحق الإرث وحق التقاضي وحق الكسب وغيرها، مع فرض الواجبات كالخراج والجزية والخرزة والعشور وغيرها.

أما القسم الثاني، وهو العيش المشترك الحالي الحاضر الذي نعيشه اليوم مع إخواننا المسلمين في الوطن الواحد فلا بد من وقفة لإعطاء الموضوع حقه لأهميته.

أ ـ التثقيف المتبادل:

إن الكنيسة الكاثوليكية تنظر بعين الاعتبار إلى الإسلام، ولذلك تحضّ المسيحيين على أن يتكسبوا معرفة أوسع وتقديراً أكبر للدين الإسلامي، وهذا

يهتم بطريقة خاصة رجال الدين الذين لهم، بداعي عملهم الديني، علاقة وثيقة بالإسلام والمسلمين. وهذه أعتبرها الخطوة الأولى للسير معاً في طريق العيش المشترك إن لم أقل اللبنة الأولى ترسي في أساس بناء مجتمع جديد تسوده المحبة والأخوّة والتسامح.

ولذلك يقرر المجمع المسكوني الفاتيكاني الثاني في وثيقته «عمل الكنيسة الرسولي» إلى تثقيف الكهنة العلمي عليه «أن يتوافق من بادئ الأمر مع طابع الكنيسة الجامعة وطابع الأديان المغاير. وهذا المبدأ ينطبق على جميع المواد المدروسة التي تعدّهم لخدمتهم المستقبلية كما ينطبق على سائر العلوم التي يفيد تدريسها لكي تحصل لديهم معرفة عامة للشعوب الإسلامية، وثقافاتها ودينها، معرفة لا تشمل الماضي فقط بل الحاضر أيضاً، لأن من يريد أن يتصل بشعب آخر، يجب عليه أن يحترم تراث هذا الشعب وعاداته ويقدّره، ثم فإن هذه المواد التثقيفية يجب أن يضاف إليها في البلاد المختلفة ما يسهّل التعمق في تاريخ الشعوب ونظم مجتمعهم وعاداتهم، ومن اكتساب معرفة أوسع للنظام الأخلاقي والشرائع الدينية والمفاهيم التي كوّنت في تقاليدهم المقدسة حول الله والعالم والإنسان.

ب ـ العيش الأخوي في مجتمع واحد:

إن تطور العلاقات بين المسيحيين والمسلمين يمكنه أن يوضح مدى تغيّر موقف الكنيسة، وتحوّل من الاشتغال بالدحض والتفنيد، إلى التقدير والاعتبار.

لقد كانت حصيلة الآراء في الإسلام مدة العصور الماضية التي أُقِرّت في الكتاب والمنشورات المسيحية، سلبية، وكذلك في الكتب الإسلامية عن المسيحية: أما المجمع الفاتيكاني الثاني فيخص المسلمين بكلمات تختلف في طابعها ومحتواها عمّا صاغته الأجيال السالفة، وتحاول أن تكون عادلة مع المسلمين، وكذلك العكس صحيح إذا ما قرأنا ماذا في أدبيات المسلمين الحديثة حول المسيحية والمسيحيين.

وقد صرّح المجمع الفاتيكاني الثاني أيضاً: «إن الكنيسة تنظر بتقدير إلى المسلمين الذين يعبدون الله الأحد الحيّ القيوم، الرحيم القدير، خالق السماء والأرض، الذي وجّه كلامه إلى البشر، وأنهم يسعون في الخضوع بكل نفوسهم لأحكامه الخفية كما خضع إبراهيم لله الذي ينتمي إليه الإيمان الإسلامي بطيبة خاطر.... وعلى ذلك فإنهم ينتظرون يوم الدين الذي فيه سوف يبعث الله الناس وسيجازيهم. ولذلك يشدّون على السلوك الأخلاقي ويعبدون الله خصوصاً بالصلاة والصدقة والصوم».

إن العناصر المشتركة في الإيمان والقيم بين المسيحيين والمسلمين يعتبرها المجمع أساساً كافياً يبرر دعوته الموجهة إلى المسيحيين والمسلمين في أن ينبذوا جانباً شقاقهم وعداواتهم، ويسعون في تحقيق تفاهم صادق بينهم، ويعملوا معاً على صون العدل الاجتماعي والقيم الأخلاقية ودعمها على إقرار السلام والحرية لجميع البشر.

جـ ـ الانفتاح للعيش المشترك:

نظراً إلى العناصر المشتركة في الحقيقة والخير بين المسيحية والإسلام، يحبذ المجمع الفاتيكاني الثاني اللقاء مع المسلمين والعيش معهم، لقاء يرتكز على موقف جديد، أي على الاستعداد للعيش المشترك بعد الحوار الأخوي، والتعاون في شتى المجالات، ومثل هذا العيش لا يجري في اتجاه واحد، بل هو تبادل مِن جهة الطرفين اللذين هما في الوقت نفسه سامِع ومخاطب، متقبّل وناقل.

وهذا يعني أن المواطنين جميعاً مسلمين ومسيحيين أن يكونوا مستعدين أن يتلقنوا الواحد من الآخر، ويتعايشوا ويعملوا في ميدان واحد بحسب القِيم الأخلاقية والحقيقة الكامنة في الخير المشترك. إذ أن جميع قِيم الحقيقة والخير أينما وجدت هي آثار عمل الله وعمل روحه القدوس في حياة البشر. وهكذا يمضي المواطنون معاً في التماس وجه الله، الذي هو إله جميع البشر، وفي

البحث عن الحقيقة الكاملة الحيّة هذا يقود إلى الاعتراف بتكامل نسبي لجميع مظاهر عمل الروح في البشر وفي التاريخ. وهكذا يمكن المسيحيين أن يلاقوا المسلمين بانفتاح كبير وبرغبة في اكتشاف مظاهر عمل الروح القدس، آملين أن يكتشفوا أبعاد حقيقة المسيح الشاملة، وملامح الشامل الواسع الذي هو من مميزات دين الله الذي هو دستور الحياة اليومية والعامة في المجتمع الواحد بسائر مظاهره واتجاهاته.

د ـ الاحترام ومحبة الحقيقة:

إنه أسهل أن نتكلم عن هذا كله من أن نقوم به الواقع العملي. وليس العيش الأخوي المشترك، بمهمة سهلة، إذ أنه يفرض انفتاح الذهن وطواعية القلب. وإلى ذلك، يجب على المتعايشين إلّا يحصلوا على معرفة وافية لدى الآخرين. وليس أمر العيش أو الحوار قائماً بتبادل المجاملات، بل إنه أمر جدّي يفرض الانفتاح والمودة، ولكنها مودّة واعية تقبل بما تراه حقيقة وخيراً، وتوجه الافتقاد إلى ما تراه بعيداً، هي مودّة مرتكزة إلى الأمانة ليقين دينها، وهكذا فإن العيش المشترك أساسه الأمانة للذاتية الخاصة، والانفتاح على الآخرين.

هـ ـ العمل المشترك والتعاون:

ثم إن العمل المشترك والتعاون مهمة كبيرة تسترعي انتباه جميع المؤمنين. إن إحلال السلام والعدل في المجتمع وتوثيق التضامن بين فئات المجتمع الواحد وبين الشعوب في العالم وصون الطبيعة والبيئة ومواجهة التقنيات الجديدة التي تهدد بالتسلط على الإنسان والطبيعة، قضايا تهم جميع الشعوب.

إن الحوار والتعاون على العمل المشترك يشجعان على الانفتاح والتقارب، ويمكّنان المسيحيين والمسلمين من أن يختبروا انتساب جميع البشر أمام الله بعضهم إلى بعض، وتضامن جميع الناس مع جميع الناس أي أن يختبروا أخوّة البشر الشاملة.

و ـ مستويات العيش المشترك:

هناك حوار الحياة حيث يعمل الناس على أن يعيشوا بروح انفتاح وحسن جوار، مقتسمين أفراحهم وأحزانهم ومشاغلهم الإنسانية.. وهناك حوار أعمال حيث يتعاون المسيحيون والآخرون في سبيل تنمية كاملة وتحرر للإنسان غير المنقوص.

وهذان الشكلان يقابلان ما نسميه «العيش المشترك» وهما يعبران عن إرادة البلوغ إلى ما يسميه المجمع الفاتيكاني الثاني «الحوار الأخوي» مع المسلمين، وإلى عيش مشترك تسوده علاقات صداقة وولاء بين المسيحيين والمسلمين. فإن صلات الحياة اليومية والالتزام المشترك بالعمل تفسح المجال معاً على تعزيز القيم الإنسانية والروحية المشتركة بين الإسلام والمسيحية.

ومثل هذا الحوار على مستوى الحياة والأعمال المشتركة أي في نطاق العيش المشترك يشدد على أهمية «التنمية التامة والعدالة الاجتماعية وتحرير الإنسان» كما تصرّح به وثيقة المجلس البابوي، ولذلك تجدد الوثيقة موقف المسيحيين في أوطانهم المختلفة بأنه التزام بمجمل التنمية والعدالة وتحرير الإنسان بشكل مجرّد ودونما أي تحيّز. وعلى الجماعات المسيحية أن تجنّد طاقاتهم في سبيل حقوق الإنسان وأن تجاهر بمتطلبات العدالة وأن تندد بالمظالم ليس فقط عندما تطال أبناءها ولكن في غير نظر إلى الانتماء الديني لضحاياها. كما يجب أن يتكاتف الجميع ليحاولوا أن يحلّوا المشاكل الصعبة التي يواجهها المجتمع والعالم اليوم، وليشجعوا التربية على العدالة والسلام.

ز ـ الثقافة:

وتُلفِت وثيقة الفاتيكان النظر إلى مجال خاص يجب الانتباه إليه في علاقة المسيحيين بالمسلمين وهو مجال الثقافة.

وهنا تقوم الوثيقة بتحليل علاقة الدين بالثقافة، وهدف الحوار والعيش

المشترك بين المسيحيين والمسلمين في شرقنا العربي المرتكز في مجمله على الثقافة الإسلامية والمشبّع من القيم التي تفتحت في هذه الثقافة، بل أيضاً لأهميته في تطوير العلاقات بين الشرق العربي والعالم الإسلامي من جهة، والبلاد القائمة على التراث المسيحي من الغرب مثلاً.

أود أن أعرض النقاط المهمة التي يحويها تحليل الوثيقة الفاتيكانية، والإرشادات التي توجهها إلى المسيحيين في هذا الصدد. تقول الوثيقة: «إن مفهوم الثقافة أوسع من مفهوم الدين... وقد ساهمت الأديان مساهمة حقيقية في تقدم الثقافة وبناء مجتمع أكثر إنسانية».

مسألة علاقة الثقافة بالدين، مسألة متشعبة.. لأن أدياناً عدة تستطيع أن توجد في إطار ثقافي واحد، كما تستطيع الديانة الواحدة أن تجد مجالاً للتعبير عن ذاتها في أطر ثقافية مختلفة. وقد تستطيع فوارق دينية أن تؤدي إلى ثقافات مميزة في منطقة واحدة...

في الحوار اليقظ يمكن الإنسان أن يعرف ويتقبل القيم الثقافية التي تلائم كرامة الإنسان ومصيره السامي. وهنا تظهر أهمية الحوار بين المسيحيين والمسلمين على صعيد الثقافة. فهذا الحوار الثقافي إنما «يهدف إلى التغلّب على التوترات والنزاعات لا بل المواجهات المحتملة بمزيد من التفهم بين بعض الاتجاهات المختلفة في ثقافتنا المشتركة. وهذا الحوار يمكنه المساهمة في تطهير الثقافات من كل عنصر يقام فيها إنسانية الإنسان فيكون هكذا عامل تحوّل. ويمكنه أيضاً أن يساعد على تعزيز قِيَم ثقافية تقليدية يهددها ما قد يكون في كل تدويل غاشم من تحديث أعمى».

وهنا نصل إلى حوار التبادلات اللاهوتية حيث يعمل أصحاب الاختصاص على تعميق الفهم للعقيدة الدينية والتراث الديني لدى كل من المسيحيين والمسلمين، وتقدير القيم الدينية والروحية الخاصة بكل منهم تقديراً متبادلاً.

ومثل هذا الحوار في العقيدة يقتضي من علماء المسلمين واللاهوتيين

المسيحيين موقفاً متزناً» كما توضح الوثيقة نفسها. «عليهم ألّا يكونوا مغفلين ولا شديدي الانحياز إلى النقد بل أن يكونوا ذوي انفتاح وحسن تقبّل. فالتجرد والإنصاف، وقبول الفوارق، بل التناقضات الممكنة هي مبادئ الحوار السليم. ثم إن الوثيقة المذكورة تشدد على أن هذا يعني أن عمل الله في حقيقته الشاملة وخيره السامي قد تتضح معالمه في شكل من الاشكال لمؤمني الدين الآخر.

وفضلًا عن ذلك فإن كمال الحقيقة تلقّاها المسيحيون بحسب إيمانهم، أو مسلمون بحسب معتقدهم لا يعني أن مؤمني هذا العصر من الدينين قد استوعبوا هذه الحقيقة بجميع معطياتها وأبعادها وتفرعاتها. إن البحث عن الحقيقة أي في النهاية، البحث عن الله ـ عملية لا نهاية لها، لأن الله لا تُسبَر أسراره ولا توصف أبعاده وصفاً تاماً، فهو العلي المتعالي، وابتغاؤه مشروع لا ينتهي.

ثم إن الحوار في العقيدة لا يرمي في هدفه الأخير إلى التوفيق الشامل بين العقائد المختلفة الاقتناعات المتناقضة بين المسيحيين والمسلمين. فالتحاور عليه أن يحترم أمانة المتحاور معه لدينه الخاص. إن الحوار يساعد على التغلّب على أشكال سوء الفهم وسوء التفاهم التي تراكمت عبر القرون، وعلى إزالة الأحكام المسبقة المرتكزة غالباً على عدم المعرفة والتسرع في الحكم. وهكذا بالحوار الرصين وتبادل الفكر الناضج والبراهين المحكمة والاعتراضات التي تبحث عن مزيد من الفهم والمعرفة يمكن لأصحاب العلم من المسلمين والمسيحيين أن يصلوا إلى تحديد دقيق لعناصر الاتفاق ومواضع الاختلاف في العقيدة بين المسيحية والإسلام.

وهناك أيضاً نتيجة لا يستهان بها لهذا النوع من الحوار الرصين الصافي وهي إنشاء جو تفاهم واستعداد للتقرّب بين المحاورين وكثير من الأحيان تنشأ بينهم مودة صداقة وأخوّة. وهذا ما اختبرته أنا شخصياً في مدة قضيتها في الحوار مع بعض المسلمين تزيد على عقد من الزمن، وبالتالي ينتج عن ذلك تمهيد واسع وعميق لإنشاء مجتمع تسوده المحبة والأخوّة والتسامح.

وهكذا ينتج من عناصر العرض السابقة منهاج جديد للعلاقة بين المسيحيين والمسلمين في العالم وفي كل بلد ومنها عراقنا الحبيب. ومنهاج جديد للتعاون بينهم للبلوغ إلى هدف مشترك.

توصيات:

١ ـ الشهادة المشتركة للإيمان بالله، في عالم تهزه أزمات الفكر والعقل والقلب وتهدد بإبعاده عن الله وعن نظامه في خلقه.

٢ ـ العمل على إقامة العدل في المجتمع وفي علاقة البشر بعضهم ببعض، إذ أن العدل في نظر المسيحية والإسلام هو قوام المجتمع وقاعدة السلام.

٣ ـ العمل على إقامة الرفق والرحمة في معاملة الأفراد وفي بناء المجتمع والتضامن وهذه مهمّة يعلق عليها الدينان أهمية كبرى.

٤ ـ العمل على إقامة المحبة والأخوّة بين البشر كافة لإنشاء مجتمع إنساني منفتح تذكّر فيه المحبة، جميع الناس بمحبة الله لهم.

٥ ـ العمل على إقامة مجتمع متضامن منفتح للجميع ويعمل بدوره على إيجاد عالم متضامن للجميع.

٦ ـ تشكيل لجان خاصة تنبثق من هذا المؤتمر للبدء في مباشرة الحوار ووضع أسسه الأولى بلقاءات دورية متواصلة لبناء المستقبل القوي السليم، مستقبل الجميع، بالتضامن مع الجميع، وهذا ما أثبته السيد المسيح بقوله: «إفعلوا بالآخرين ما تريدون أن يفعل الأخرون بكم» وهذا ما قال الرسول محمد في حديث معروف: «لا يؤمن أحد حتى يريد لأخيه ما يريد لنفسه» والسلام.

مصادر الكتاب ومراجعه

المطران غريغوريوس صليبا شمعون،

١ ـ **تاريخ أبرشية الموصل السريانية**، مطبعة شفيق، بغداد (١٩٨٤).

الأب الدكتور جورج البناء،

٢ ـ **المغتربون والمهاجرون المسيحيون إلى أين**، المطبعة الوطنية، عمان (١٩٩٨).

رشيد الخيون،

٣ ـ **الأديان والمذاهب في العراق**، منشورات الجمل، طبعة أولى، بيروت (٢٠٠٣).

روفائيل بابو اسحق،

٤ ـ **تاريخ نصارى العراق**، طبعة ثانية، دار الوراق، بيروت (٢٠٠٧).

٥ ـ **دليل المملكة العراقية**، بغداد (١٩٣٦).

٦ ـ **دليل الجمهورية العراقية**، بغداد (١٩٦١).

٧ ـ **موسوعة العراق الحديثة**، بيروت (١٩٦٢).

مجلة بين النهرين، الأب الدكتور يوسف حبّي،

٨ ـ **الهجرة نعمة أم نقمة**، العدد ١٠١ ـ ١٠٢، بغداد (١٩٩٨) وقد إقتبسنا منها فقرات بتصرّف.

٩ ـ قراءة متعمقة في مستقبل مسيحية العراق، العدد ٩١ ـ ٩٢ ـ بغداد (١٩٩٥) وقد إقتبسنا منها فقرات بتصرف.

الأب الدكتور سهيل قاشا،

١٠ـ لمحات من تاريخ نصارى العراق، بغداد (١٩٨٢).

١١ـ الكنيسة العراقية إزاء الاضطهادات الفارسية (٢٠٠٦).

١٢ـ تاريخ ما أهمله التاريخ، دماء بريئة، بيروت (٢٠٠٦)،

١٣ـ مسيحيو العراق، دار الوراق، بيروت (٢٠٠٩).

١٤ـ تاريخ نصارى العراق، دار الرافدين، بيروت (٢٠١٠).

١٥ـ المسيحيون في الدولة الاسلامية، دار الملاك، بيروت (٢٠٠٢).

١٦ـ اللقاء الاسلامي المسيحي، بيروت (٢٠٠٥).

١٧ـ تاريخ التراث العربي المسيحي، بيروت (٢٠٠٣).

١٨ـ أحوال النصارى في عهد بني أمية، ثلاثة أجزاء، بيروت (٢٠٠٣).

١٩ـ تاريخ أبرشية الموصل للسريان الكاثوليك، بغداد (١٩٨٥).

٢٠ـ مذهب اليزيدية، بيروت (٢٠٠٣).

٢١ـ مذهب الصابئة، بيروت (٢٠٠٣).

٢٢ـ اليزيدية الايزدية، جونية (٢٠٠٥).

الفهرس

الإهداء ٥

تقديم بيني وبين الأب قاشا النوارس المهاجرة ٧

تمهيد ٩

الفصل الأول: ظهور المسيحية في العراق ١٥

الفصل الثاني: مستقبل المسيحية في العراق ٥٥

الفصل الثالث: الهجرة نعمة أم نقمة ٧٩

الفصل الرابع: مواطن الهجرة...! ١٠٣

الفصل الخامس: المسيحيون العراقيون ودورهم في بناء العراق الحديث ١٢٥

الملحق الأول: الحوار المسيحي الإسلامي عبر التاريخ ١٤٥

الملحق الثاني: الحوار المسيحي الإسلامي شرط التعايش بأمان وسلام ١٥٩

الملحق الثالث: الإسلام والمسيحية نحو مجتمع أكثر أخوّة ومحبة وتسامح
الحوار والعيش المشترك ١٧١

مصادر الكتاب ومراجعه ١٨٩